

من
تراب الطريق
(٣)

رجائي عطية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠ م

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

عطية ، رجائي .

من تراب الطريق (٣) / رجائي عطية . - القاهرة

: المكتب المصرى الحديث، ٢٠١٠. ٤٠٠ ص؛ ٢٠ سم .

تدمك ٩٧٧ ٢٠٩ ١٩٧ ٦

١- المقالات العربية

أ - العنوان

٨١٤

رقم الايداع ٧٦٠٥ / ٢٠١٠

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى

طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو

البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف

على ذلك كتابة ومقدمًا

• تصميم الغلاف : نادية شريف — كمال بهنساوي

المكتبة المصرية الحديث

www.almaktabalmasry.com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء

الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية

تقديم

هذه خواطر من القلب ، مجدولة بحب الوطن ، معنية

بهموم الناس فى بلادنا .

رجائى عطيه



من تراب (٢٩٤) كيف لا نحزن؟! (*) الطريق

صعب على أى إنسان صاحب إحساس أن يتشغل أو يحفظ نفسه من جالبات الأحزان المتزايدة يوماً وراء يوم فى بلادنا .. أينما يولى نظره يصادف ما يضرنى ويوجع ويؤس ويحبط ويجعل الحياة بطعم الحنظل .. أيام الفتن يُقال من باب النصيحة : «أغلق عليك بابك» .. ولكن لو استطاع الإنسان أن يعتزل ويغلق عليه بابه ، هل بمستطاعه أن يغلق عقله ويلغى حواسه البصرية والسمعية التى تطلعه من خلال الصحف والمرئيات والمسموعات على «السداح مداح» أو «اللبن سمك تمر هندى» الجارى على أرض وجو الكنانة .. نعم الجو نفسه تسمم بممارسات وأساليب وفساد وجنوحات وضلالات وتمويهات وتمثيلات لم نعهدها فى بلادنا حتى فى أشد العهود ظلاماً وإظلاماً ! لا يستطيع راغب فى فهم حقيقة ما يجرى إلّا أن يضرب أخماساً فى أسداس .. فإن انكشف عنه الغطاء أبصر من وراء الحجب الكثيفة ما يعز على كل مخلص أن يكون هذا هو حال إدارة وتصريف شئون مصر المحروسة !!

يصعب على المتأمل أن يعزو الاشتباكات المحتدمة إلى محض المصادفة أو سوء التقدير .. فأى تقدير يغفل عن أن إثارة الاحتقانات سياسة غير

(*) المال ٢٠٠٩/٧/١٤

محمودة .. الحكومة لاتكاد تنفض يدها بنحو أو بآخر من احتقان حتى تدفع الأمور إلى احتقان أو احتقانات أخرى ، تفعل ما تريد ومن لا يعجبه يستطيع أن يضرب رأسه في الحائط أو يشرب من ماء البحر أو يلقي بنفسه فيه ! هل صارت مثلاً ! إثارة القضاء واستفزازة هدفًا مرجوًا .. وإلا فلماذا ملاحقة القضاة بكل ما يغضب ويستفز .. ما حكاية تعديل تشكيل مجلس القضاء الأعلى في الاجتماع واليوم الأخير لرئيسه وأربعة من أعضائه أحيلوا للمعاش ؟! وما الذى شجر فجأة وأغلبية المجلس تلملم متعلقاتها للرحيل حتى يعرض هذا الأمر الخطير في جلسته ويومه الأخير وفي مصادرة غير محمودة وغير لائقة على الرئيس الجديد والتشكيل الذى تغير معظمه بفعل المعاش للمجلس ؟! وهل طرأت الفكرة بغتة بعد انتهاء دور الانعقاد لمجلسى الشعب والشورى .. ماهى الظروف الخطيرة المفاجئة الملحة التى دعت السيد وزير العدل للانتفاض بغتة لتقديم هذا المشروع الذى أثار القضاة وأنديتهم وأثار الرأى العام بعد انقضاء مجلسى الشعب والشورى ، وعرضه على مجلس القضاء الأعلى فى اليوم الأخير لتشكيله الذى خرج منه فى اليوم التالى رئيسه وأربعة من أعضائه ولم يبق إلا اثنان ؟! .. وماهى علة أو حكمة تصعيد الرئيس السابق للجنة انتخابات محكمة جنوب القاهرة مرتين فى أسبوعين ، الأولى إلى مساعد الوزير مع حفل تكريم بعد أن عطل انتخابات نقابة المهندسين ، وفى وقت كانت تجب فيه المراجعة عن الإصرار على إجراء انتخابات نقابة المحامين رغم حكم محكمة النقض الذى قرر فى وضوح وجلاء أن المجلس المؤقت لمحكمة استئناف القاهرة هو وحده المختص دون

غيره بإجراء هذه الانتخابات التي تعثر إعلان نتيجة العضوية فيها ثلاثة أيام كانت حُبلى بأمور سوف يكشف عنها التاريخ .. جرى فيها الرق والتعديل حتى نقلت مصادر موثوقة أن «محظى» الحزب الحاكم لم يحصل إلا على (٢٢٠) صوتا فصارت بقدرة قادر عدة آلاف ؟!

أما التصعيد الثاني الملاحق للتصعيد الأول في بحر أسبوعين ، فهو إلى رئاسة المحكمة الدستورية العليا وبالتالي إلى رئاسة اللجنة المشرفة على الانتخابات القادمة لرئاسة الجمهورية .. لقد بدأت الكتابات تلح على هذه المسألة ، ولكنى لا أريد أن أسارع إلى سوء الظن ، وأتساءل فقط عن الأقدميات والمعايير وعن الأسباب التي دعت إلى إغفال الأقدمية وترك الاختيار من أعضاء المحكمة الدستورية العليا وكفاءات عالية بين كبار رجال القضاء ومستشارى محكمة النقض ؟!

نرى كل يوم ردود أفعال رجال القضاء ، وتبرمهم وضيقهم وغضبهم وأسباب وأسانيد احتجاجهم على مشروع قانون تعديل تشكيل مجلس القضاء الأعلى الذى يضرب استقلال القضاء من خلال إضافة عناصر مختارة ومعيّنة أصلا في مواقعها بقرار وزير العدل المنتمى للسلطة التنفيذية ! مع قلقلة القضاء وضرب استقلاله في الصميم ، تتوالى بالونات الاختبار وتهبئة التربة لحل مجلس الشعب ، أى لضرب السلطة التشريعية ، بقرار رئاسى صادر عن السلطة التنفيذية لغير سبب واضح يبيحه أو يتطلبه الدستور والقانون ، ولكن الأسباب يقال إنها كامنة وراء الكواليس وإن

لم تهدأ الأقلام عن الإشارة إليها تلميحاً أو تصريحاً !!!
لم أعد أدري ما هو النص ؟! .. هل هذا هو النص اللائق بمصر ومصر
مصر ؟! وهل ما تجرى به أقلام حملة المباخر من مغالطات مقرونة بالسب
والقذف و«الردح» و«الشرشحة» صار هو لغة الخطاب في بر مصر ؟!
كنت قد أمسكت بكتاب : «لا تحزن» آملاً أن أقرأ فيه ما يقاوم حزني ،
فلم أملك إلا أن أضعه جانباً ، فجالبات الأحران في بلادنا أعصى من أن
تكفكفها أو تسرى عنها كلمات أيا كانت .. الحزن صار كامناً متغلغلاً في
نسيج وصفحة وجدان الناس في بلادنا !!!

من قرب الطريق (٢٩٥) سمعة مصر! (*)

يبدو أن «سمعة مصر» تعلقة لتغليق أبواب النقد والعصف بالحرريات ،
وللمصادرة على أن يكون للمصرى شأن سواء الحق في أن يعتقد من
الآراء ما يشاء ، ويبدى منها ما يشاء ، طالما أنه يلتزم حدود الشرعية
والنظام العام !

رأينا حكامًا مصريين يلوحون لكل نقد لأعمالهم أو تصرفاتهم أو
سياساتهم ، بأنه معاداة لمصر ، وإضرار بسمعة مصر ، مازجين بين ذواتهم
وبين الوطن ، معتبرين أنهم والوطن شيء واحد ، من اعترض على
سياساتهم يكون قد اعترض وأضر وأساء إلى مصر !

وما كادت هذه النغمة تتراجع قليلا أو كثيرا ، حتى صارت «لبانة»
في فم كل مسئول يتعرض للمراجعة والانتقاد .. أدهشني أن أقرأ عن
تصريحات يقال إنها صدرت عن رئيس اتحاد كرة القدم ولم يكذبها ،
رجم فيها رئيس أحد الأندية بأنه يضر بسمعة مصر ! لماذا ؟! لأنه استخدم
حقه ، بل قام بواجبه ، في الشكاية إلى الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا)
من خروج الاتحاد المصرى على أحكام المادة (١٨) من لائحة الفيفا ،

(*) المال ٢٠٠٩/٧/١٥

والتي تمنع انتماء الأندية المتعددة في الدورى إلى جهة واحدة وتبعية واحدة ..
شكا رئيس النادى المدموغ بالإساءة إلى «سمعة مصر» من وجود ثلاثة
أندية تنتمى لقطاع البترول ، إنبى وبتروجيت وبترول أسيوط ، وأن هذه
التبعية والسيطرة للجهة المتبوعة تجلت في تفويت مخالفة لعب «لاعب»
لأكثر من نادٍ منها في الموسم الكروى الأخير ، وهى مخالفة محظورة ،
وتفويت إبطال نتيجة المباراة التى لعبها للنادى الأخير ، وذلك بحث
النادى المجنى عليه أو بالأحرى إصدار الأمر إليه بعدم الشكوى حتى لا
تلغى النتيجة وحتى لا يحاسب المسئولون والنادى البترولى المخالف !

ما اشتكى منه رئيس النادى ، وانضم إليه ممثلون لأندية شعبية مضارة
بهذا الوضع يـرى أيضا على ناديين تابعين للقوات المسلحة : طلائع
الجيش ، وحرس الحدود .. وهذه التبعية تبعية عسكرية محكومة بالأوامر
العسكرية التى لا يجوز مخالفتها ، وتتجلى فى هذه التبعية ، مثل التبعية
البترولية ، أصرخ المحاذير التى أرادت المادة (١٨) تجنبها حماية للنظام
الكروى واستقامة وعدالة دورياته ومسابقاته !

أذكر فى أواخر السبعينيات ، أن وقفت للدفاع عن أحد القادة أمام
اللجنة العليا للضباط منعقدة بصفة قضائية ، عن اتهامات تستوجب إن
صحت الإحالة إلى المحاكمة العسكرية (الجنائية) لا إلى المساءلة التأديبية ..
يومها كان المرحوم المشير محمد عبد الغنى الجمسى هو رئيس اللجنة
العليا ، فتساءلت أمامه واللجنة عن أسباب الإحالة إلى المساءلة التأديبية
بدلاً من المساءلة الجنائية أمام محكمة عسكرية عليا كما يوجب القانون ،

فقيل: إن السبب هو المحافظة على الثقة الواجبة فيما كان يتولاه القائد المائل أمام اللجنة ، فقلت للسيد المشير: إن إبدال المحاكمة التأديبية بالمحاكمة الجنائية ، هو الذى يخل بالثقة الواجبة المتذرع بها !

كان لذلك أسباب بسطتها ، ولست فى حل من ذكرها ، ولكن المشير تفهم عن اقتناع محمود أن التمسح «بالثقة الواجبة» لإحلال المساءلة التأديبية محل المحاكمة العسكرية الجنائية ، هو تمسح غير مقبول يأتى فى غير موضعه ، وأنه هو بالفعل الذى يسىء إلى الثقة الواجبة ولا يحميها ، فجاء القرار معبراً عن رفض التعلل «بالسمعة» للحيلولة دون جريان الأمور فى مجراها الطبيعى !

إن الحق فى الشكوى حق دستورى ، يحميه الدستور ويكفله القانون ، وشكاية رئيس النادى المدموغ بالإساءة إلى «سمعة مصر» ، شكاية صحيحة وجرت فى حدود الدستور والقانون ، لا يحميها فقط نص الدستور ، ولا يساندها فقط انضمام من انضموا من رؤساء الأندية الشعبية إليها ، وإنما معها حجتها فى موضوعية وصحة مبناها ، مما سيكون له آثار بالغة يبدو أنها هى التى أزعجت رئيس اتحاد كرة القدم ودعته إلى استعمال العبارة المثيرة : «الإضرار بسمعة مصر» .. دعكم من سمعة مصر ، فالذى يضر بسمعتها الكروية هو ما يجرى فى ممارسة الاتحاد الذى كان هو نفسه شاهداً مباركاً للمخالفة التى جرت بين الناديين البتروليين بأوامر عليا من القطاع البترولى صدع لها النادى المجنى عليه ، وصدع بل باركها اتحاد كرة القدم !!!

من

تراب

الطريق

(٢٩٦) الى عاوزه البيت

يحرم على الجامع ! (*)

تذكرت هذا المثل وأنا أتابع أقلام كبار كتابنا الذين وإن نأوا بأنفسهم عن الدخول في طواوير الطبل والزمرد والبخور التي صار لها متخصصون ، إلا أنهم وظفوا كل معارفهم وهمهم وخبراتهم لنقد النظام الإيراني . وقد يكون في النظام الإيراني ما يغري بالنقد والهجوم ، ولكن ما بالنا نترك أحوالنا في بيتنا وننمى إلى أرض بعيدة لأمة أخرى ، تاركين أحوال بيتنا ومتاعب ومواجع شعبنا لا نلقى لها بالاً ولا نتعطف عليها بكلمة !

ما تحتاج مصر إلى نقده وبيان مثالبه ومحاذيره ومخاطره ، كثير كثير يملأ عين الشمس وكل عين تبصر وترى .. والقضايا المتفجرة هنا عديدة متنوعة تقض المضاجع وتحمل نذراً مخيفة تحتاج معها إلى فكر وبصيرة وحكمة كل صاحب رأى أو ممسك بقلم .. تصورت من كثرة الكتابة عن إيران وعن نظام حكمها الذى لا يطاق ، أنه نوع من الإسقاط ما دام أصحاب هذه الأقلام لا يريدون الإفصاح عن رأيهم فيما يجرى في بر مصر !! ولكن ما رأيانه من ذلك كان في أعمال فنية استخدمت الإيحاء

(*) المال ١٦ / ٧ / ٢٠٠٩

أو الرمز أو الإسقاط ، كما فعل توفيق الحكيم مثلاً في بنك القلق ، أو نجيب محفوظ في الكرنك أو ثرثرة فوق النيل ، أو يوسف إدريس في قصته المخفية المحاصرة : «أبو الرجال» .. ولكن لا عهد لنا بأقلام قادرة ومنها من لم يعد أسير موقع أو وظيفة تكبله ، ومع ذلك يترك أوجاع وشجون بلده ، وتجاوزات حكمه ، ومتاعب شعبه ليشتن قلمه وهجومه على إيران ونظام إيران !

لقد مل المصريون من كثرة الحديث عن إيران ، وتعجبوا ولا يزالون من امتناع الحديث عن مصر وأحوال مصر والمصريين .. كون نظام الحكم الإيراني لا يطاق ، مسألة تخص الشعب الإيراني الذي يعرف ما يطاق ببلده وما لا يطاق ، ومسئول قبلنا على الأقل عن مواجهة ما لا يطاق هناك !

ولكن من يتولى عنا ما لم يعد يطاق من أحوالنا في مصر ؟! هل نكلف كتابا إيرانيين وآخرين من بلاد تتركب الأفيال للاهتمام بشئوننا والحديث عن لواعجننا ؟! أليس يقال من قديم : إن أهل مكة أدرى بشعابها ، فلماذا إذن لا نترك مكة أقصد إيران ! لأهل إيران ونفزع لمصائبنا التي استعصى علاجها وفهم دوافعها وأسبابها على أبناء الدار ؟!

لقد ضرب الرئيس الأمريكي الأسبق جيمى كارتر ، ضرب المثل على أثر التخفف من المنصب وأعبائه وقيوده في استرداد الحرية والقدرة على الرؤية الواضحة المصفاة المبرأة من أثقال وحسابات الموقع .. وكان الظن

أن كتابنا الكبار الذين أحيلوا إلى المعاش بعد ربع قرن في مواقعهم ،
سيستردون حرياتهم وستصفو رؤيتهم ويستقيم توجههم وعباراتهم ،
ولكننا عاينا العكس .. لماذا؟! إن في الصحافة غير الحكومية ما يتيح
منافذ أخرى للتعبير والارتزاق غير « السدود» الحكومية المغلقة إلا
على ما يراد .. نعم توجد أقلام كبيرة في صحف قومية قد حيل بينها
وبين الكتابة بصحفها لأن أقلامها جرت في صحف أخرى بما لا يراد ،
ولكن يقول الواقع المشاهد إنهم لم يخسرو شيئا بل كسبوا دخولا أكبر ،
بينما خسرت صحفهم من حجبهم عن الكتابة فيها ! .. فلماذا الخوف
والإحجام؟! هل أمسى الخوف عادة صارت إلى « فوبيا» تمسك بتلابيب
الكاتب أن يبقى ملتزما بما جرى واعتاد عليه بحكم الحسابات أو اتقاء
توابع عدم الرضاء!!؟

القارئ والمتلقى بعامة ، قد صار في أزمة حقيقية ، لا يستطيع أن يرى
نافذة يطل منها وعليها حكومة بالموضوعية .. لقد صارت الموضوعية
بضاعة بائرة في هذا الزمان ، وباتت الشخصية والرياء وتوابعه هي
الأصل والأساس .. اجترأ حملة المباخر على الحديث حتى فيما لا يعرفون
ولا يحسنون ، وتجروا وظهورهم مسنودة إلى حائط السلطة ونفوذها أن
يرموا بالأقذار كل صاحب قامة حقيقية في برمصر ، وكأن البلاد قد
ضاقَت وضمَرت حتى لم تعد تحتل وجود قامات يرى حملة المباخر أن
وجودها اقتطاع وخصم من الهياكل المطلوبة للأسياد !!

الذى لا يدركه القائمون على الأمور ، أن هذا الواقع المرسيقود إلى
كارثة محققة ، لأن القلوب مطوية على امتعاض صار سخطاً يتنامى ويكبر
وسوف يصير كالجبال ، يومها لن تنفع الموارد ولا الخديعة ولا المداورات
ولا المسكنات .. إن السلطة أى سلطة مهما اشتدت ، هشة حين تفقد دعم
وموافقة القاعدة العريضة إذا ما تقطعت بها أحبال الصبر !



من

تراب (٢٩٧) الشوق إلى المعرفة (*)

الطريق

يجب أن نلاحظ دائما الفارق بين أشواقنا كآدميين وبين معارفنا ..
والأصل أن الأشواق دائما تسبق المعرفة أى معرفة حتى في حالات
الإعادة والتكرار ، وأن وجود الأشواق يستتبع استمرار زيادة المعرفة ،
وإذا توقفت الأشواق تراجعت المعرفة أو توقفت ، وتوقف معها كل
شئ هام في حياة الإنسان!

والأشواق تطلعات لدينا إلى ماهو في اعتقادنا ، أفضل وأرحب وأكثر
إمتاعا وإرضاء . مع حساب أن الإنسان في قياس وتصور نظام ونطاق
أشواقه يتصور أن آدميتنا تشمل الكون بكل ما فيه الآن وإلى الأزل
والأبد . لهذا نحن لدينا شوق شديد لمعرفة أصل الإنسان وأصل الكون
ومصير الإنسان ومصير الكون .. وشوقنا لا ينقطع لمعرفة الخالق عزّ
وجل ، وكيف خلقنا سبحانه وخلق الكون ، وعلاقته بنا وعلاقته به ،
وعلاقة ذلك بالخير والشر والثواب والعقاب والدنيا والآخرة والأرواح
والأجساد والملل والنحل والحياة والموت ! هذه الأشواق وما يتعلق بها
وما يتفرع عنها تملأ نواحي الوعي والنفس لدى كل آدمى متحضرا كان

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٢٠

أو همجياً .. مؤمناً أو ملحداً .. عالماً أو جاهلاً .. كبيراً أو صغيراً .. صالحاً أو طالحاً ، وتمتد فروعها وأغصانها إلى سائر أجهزتنا النفسية والعاطفية والعقلية ، وتتغلغل في القيم والأخلاق والمعتقدات والخبرات والثقافات والحضارات ، وفي سائر ما يفعله الآدميون أو يفكرون في فعله من صناعة أو حرفة أو مهنة أو فن أو أدب أو علم .

وتتسلق أشواق الآدمي في طريقها تقدماً وتحلفاً فوق الآمال والأمانى والأحلام والأساطير لإرواء عطشها الذي لا ينقطع ، ولتهدئة حاجتها من المعرفة التي لا تهدأ .. ويظن كل جيل من البشر أن ما لديه يكفيهِ ويقنعه .. ثم يحس أن أشواقه تمتد إلى أكثر مما عنده ، أو أن ما في يده فعلاً أعجز عن إشباع مطلوبه وتسكين شكه وقلقه وحيرته .. وأن كل ما حصله أو وجدّه : إما قد أخفق في معرفة حقيقة ما يشاقه ، وإما قد فشل في الوصول إليه !

لم تقنع أو تشبع أشواق الإنسان إلى المعرفة قط ... ولا يمكن أن تجد ما يقنعها أو يشبعها إلا لأمد .. لأن هذه الأشواق يصحبها دائماً وأبداً اشتهاات لواقع آخر جديد مأمول أرحب وأفضل وأصدق من أي واقع حاضر . بغض النظر عن مبلغ نجاح أو صدق ذلك المأمول .

إن المعرفة اليقينية لكل شيء كان ويكون وسيكون من المستحيلات .. لأن الإنسان جزء فقط من الكون .. وهذا ما لا تسلم به أشواق الآدمي ..

لأنه مجرد طاقة تدفع غريزته إلى الفهم والمزيد من الفهم ، ولأن المعرفة التقريبية أو الإحصائية وهى كل ما فى استطاعتنا من الواقع الذى يعرفه أو يمكن أن يعرفه الإنسان لا تكفى لإطفاء أشواقه .. لأنها معرفة لا تنفى الغيب والمجهول والجائز والمحتمل والمتصور والمتخيل ، ولا ينقطع معها وجود المستقبل وانتظاره وتعلق الآمال والمخاوف به . فلن تنقطع أشواق الآدميين للمعرفة والمزيد من المعرفة قط . ولن يُشفى غليلهم منها أبدا ، ولن يكفوا عن الالتجاء للآمال والأمانى والأحلام والتصورات والمخاوف والأوهام قط .

نعود فنقول إن غريزية أشواقنا لنعرف ما لم نعرف وما لا نعرف ، هى مجرد طاقة تسوقنا فى هذا الاتجاه وتشعرنا بالنقص الذى يشوب واقعنا الحالى أيا كان هذا الواقع .. لأنه دائما واقع مؤقت مناسب لزمان ومكان يستعد للتغير القليل أو الكثير إلى ما يتصور أنه أفضل ، وقد يكون غير ذلك عندما يتحقق ، لأنه تغير مبنى على آمال ووعود وتوقعات قد لا تصدق وما أكذب آمال الإنسان وأحلامها وما أغنى ذخيرته بالوعود !!

من تراب (٢٩٨) الطريق

بين التفاهة والعظمة (*)

لا أعرف متى وأين سئل نابليون بونابرت ، لماذا لا نجد «عظماء» في السلطة ، ولكنى أعرف أنه أجاب بأن السبب أن التفاهة المطلقة هي اللازمة لكى تحصل على السلطة ، ولكن العظمة الحقيقية هي الواجبة لممارسة السلطة .. وأعرف أيضا أن هذه العبارة «واقعية» برغم ما فيها من مرارة صادمة .. قلائل بل نادرين من استطاعوا أن يجمعوا بين التقيضين : التفاهة ، والعظمة !!

أيسر السبل ، بالتفاهة ، أن تصل إلى السلطة .. أى سلطة .. فالتفاهة ليست مرتقى صعبا .. ما على الآدمى إلا أن يخرج نفسه من منظومة القيم والوقار واحترام الذات ، ليطلق للنفس الأمارة الحبل على الغارب لتمارس التفاهة التى لا تكبدها عناء ولا تقتضيها جهدا ، وهى أسرع لدى الناس قبولا لأنها أيسر تحصيلها مادامت تدغدغ المشاعر وتطلق الأوهام .. ما عليك إلا أن تكون «التفاهة» لسان خطابك وحال سلوكك وأفعالك !!

الدركة المحيطة بالسلطة ، أى سلطة ، لا تحب أن تفسح سبيلا للعظمة والعظماء ؛ لأنهم يقطعون منها ، والناس لا تميل ولا تقبل على العظمة والعظماء لأنها تنفر بطبعها من كل مقارنة تشعرها بالضالة أو النقص أو الدونية !
مرتقى التفاهة إلى السلطة مرتقى سهل وميسور الوصول إلى مأربه ..

(*) المال ٢١/٧/٢٠٠٩

وربما حسب المفسحون للتفاهة أنهم سيركبون صاحبها باكر ، فتطمعهم تفاهته في تحقيق أغراضهم وآراءهم .. هذا المرتقى السهل الميسور لا تحديات فيه ولا امتحانات ، ولا صعاب ولا عراقيل ، ولا قدرات أو مضامين !!
بيد أن سلاسة الوصول إلى السلطة ، لا تعنى القدرة على ممارستها .. فالوصول إلى السلطة قد تجدى فيه التفاهة والتغريب ، ولكن ممارسة السلطة مسئولية تحتاج إلى عظمة وقدره ، ولا تقبل التفاهة !. وهنا التحدى الكبير والمعضلة الصعبة .. فكيف يستطيع تافه أن يخرج من قمقم التفاهة إلى العظمة ، وكيف يجتمع النقيضان فيجمع الفرد الواحد بين التفاهة والعظمة ، وهل يمكن للتافه أو سالك ومعتاد التفاهة ، أن يتعاضم فجأة فيرتفع إلى ما يحتاجه وتستوجه السلطة وممارستها من قوة وشجاعة وحكمة ومقدرة وعلم ومعرفة وفن وشخصية .. إن هذه المقومات تصب في نهر «العظمة» .. والعظمة لا تنبت للفرد فجأة ، وإنما هى مقومات محفورة في نسيجه وشخصيته .. هذا المحفور أشبه بتضاريس الجغرافيا التى تخطها السنون والمناخ والبيئة والتربة ، فى تفاعل لا يستغنى عن التوفيق ، وإلاّ صارت التضاريس خبط عشواء لا تشكل شيئاً ذا قيمة ، وهكذا كل تافه بترك نفسه وتكوينه ومساره للمقادير .

تورّم فى التاريخ أشخاص لو درست تاريخهم بموضوعية وإسعان ، لعرفت أن كلاً منهم مارس كل أنواع التفاهة والخداع والدياجوجية والانتهازية والتغريب واللعب بالإعلام وبمشاعر البسطاء ليصل إلى السلطة التى قفز عليها ، فلما وصل إليها لم يستطع أن يكون عظيمًا عظمة حقيقية تواكب مقتضيات ولوازم السلطة فانتهد حياته نهاية مأساوية !

لأنه ظل في جميع ممارساته مشدودًا لما اعتاده من أساليب وإن خدعت
وفتحت الأبواب لركوب السلطة، إلا أنها لا تصادف ولا تصادق العظمة
الحقيقية الضرورية الواجبة لممارستها وحسن إدارة وتصريف الأمور!

ما يصدق على المتورمين في التاريخ، له أمثلة عديدة في تاريخ العاديين
والصغار على السواء.. تستطيع أن تجد مشاهير بلا قدرة ولا استحقاق،
وتستطيع أن ترى في الصغار نماذج بالآلاف لا حصر لها.. لمعواثم انطفأوا
بسرعة أقرب إلى احتراقات النيازك والشهب.. والسبب أن التفاهة
تستطيع أن تضحك على بعض الناس بعض الوقت، ولكنها لا يمكن أن
تنظلي على كل الناس طول الوقت.. والعيون التي تفسح الطريق لطالب
السلطة عيون ضريرة لأنها معلقة بالأوهام مخدورة بحبكة الحيل وتغريب
الخدع والأكاذيب.. ولكن هذه العيون ينكشف عنها الغطاء وهي تتابع
وتراقب ممارسة السلطة، وهي مراقبة يفرضها انتظار الموعد.. فإذا
تأخر، تفنجلت العيون وأبعدت أكثر، ولم يعد أمام صاحب السلطة
للمحافظة على ما تحقق له، إلا أن يستعير «عظمة» من المحال أن تكون
محلا لاقتراض أو إقراض!

هل حلت أو يمكن أن تحل التفاهة مكان القدرة والكفاءة والعظمة
الحقيقية؟!.. لا يحدث ذلك إن حدث إلا في العدسات الالامة لعيون
ضريرة بلا رؤية ولا بصيرة.. ولا ينظلي إلا على تعاريج نفوس ضامرة
ملهية بالأضغاث مخدورة بالخدع والأحاييل.. من المؤسف أن أحدًا لم
يعد يتعظ من دروس التاريخ ليستمر التآرجح الدائم في لعبة السلطة،
بين التفاهة السهلة الشائعة، والعظمة العزيزة النادرة!!!

من

تراب (٢٩٩) شجيرة الورد! (*)

الطريق

(١)

هل يستطيع طالب الورد أن يعثر على شجيرته بين الخصومات والعداوات ، وهل استطاعت الأديان أن تجمع الإنسانية على وداد المحبة ، ومباعدة العداوات ؟! اختار الأستاذ الشاعر المحامي الأديب محمد عبد الله محمد : «شجيرة الورد» عنواناً لقصيدة يخوض فيها إلى أعمق الأعماق ، ويرصد عوامل نمو الأحقاد وتبادل العداوات بين الجماعات ، وهل يمكن لمجتهد أن يفهم الدين إذا استخف بتداخل هذه الأحقاد والعداوات التي يتصور باعثوها أنها يمكن أن تتوارى وراء علو صوت العبادات .. هذه الأحقاد التي تتجذر وتتصل حتى بعد الموت وتتحكم في الأرواح والمصائر إلى الأبد .. إن «شجيرة الورد» لا تبقى في الغابات إلا مع الأشواك .. مصيرها للأسف ليس في يدها ، بل في قبضة الغابة الشمطاء التي ترمز إلى شرور الحياة ، وماذا يفيد عبير أو أريج هذه «الشجيرة» إذا لم يشاركها فيه الأقارب من عشب ومن شجر ؟!

يقول الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

(*) المال ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٩

هذا إلى النارِ للإحراقِ يَرْضُدُّهُ
 شريعةُ الحربِ حمراءُ معالمُها
 بها الجماعاتُ أعداءُ على حَذَرٍ
 وظيفَةُ الدِّينِ تأييدٌ وَتَعَبَةٌ

وليسَ يُحَسِّنُ فَهَمَ الدِّينِ مَجْتَهِدٌ
 فَإِنَّهَا ثُمَّ خَلَفَ الْأَمْرَ مَائِلَةٌ
 وَحَيْثُمَا زَجَرَ الإِعْصَارُ وَانْطَلَقَتْ
 فَجَلْجَلُ الْوَيْلِ وَالتَّنْكِيلُ وَانْدَلَعَتْ

حَقْدُ الْجَمَاعَاتِ بَعْدَ الْمَوْتِ مَتَّصِلٌ
 فَرَعُونَ لَا تَبْرُحُ التَّوْرَةُ تَلْعَنُهُ
 كَمْ تُشْرِكُ الرَّبَّ فِي أَحْقَادِهَا أُمَّمٌ
 شَرِيعَةُ الْحَرْبِ تَحِيَا فِي ضَرُورَتِهَا

شَجِيرَةُ الْوَرْدِ فِي الْغَابَاتِ هَلْ بَقِيَتْ
 مَصِيرُهَا رَغْمَ هَذَا لَيْسَ فِي يَدِهَا
 مَاذَا يُفِيدُ عَيْرٌ لَا يَشَارِكُهَا
 وَإِخْوَةُ الْغَابِ فِي صَيْدٍ وَفِي قَنْصٍ

فَإِنَّهُ الْخَصْمُ عَادَانَا نُعَادِيهِ
 لَا يُخْطِئُ الْخَصْمُ مَا فِيهَا وَمَا فِيهِ
 مِنْ بَعْضِهَا الْبَعْضُ تُبْدِيهِ وَتُخْفِيهِ
 يَحْمِي الْجَمَاعَةَ إِذْ يَحْيَا وَتَحْمِيهِ

إِذْ اسْتَحَفَّ بِأَحْقَادِ الْجَمَاعَاتِ
 وَفِي ثَنَايَا الذَّوَاهِي وَالْإِشَارَاتِ
 مِنْهُ الْعَدَاوَاتُ فِي صَدِّ الْعَدَاوَاتِ
 لَطَى الصَّرَاعِ عَلَا صَوْتُ الْعِبَادَاتِ !!

خَلَفَ الْمَصَائِرِ وَالْأَرْوَاحِ فِي الْأَبَدِ
 وَكَمْ يُصَلِّي بِهَذَا اللَّعْنِ مِنْ بَلَدٍ
 وَتَسْتَعِينُ عَلَيْهَا مِنْهُ بِالْمَدَدِ
 كُلُّ الْجَمَاعَاتِ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَعْدِ

إِلَّا مَعَ الشَّوْكِ شَوْكِ النَّافِرِ الْحَذِرِ
 فِي قَبْضَةِ الْغَابَةِ الشَّمْطَاءِ وَالْقَدَرِ
 فِيهِ الْأَقَارِبُ مِنْ عُشْبٍ وَمِنْ شَجَرٍ
 بَعْضٌ لِبَعْضٍ عَلَى وَعْدٍ مَعَ الْخَطَرِ

أخي، الجماعةُ في حَزْبٍ وإن لَعِبَتْ
يَبِيتُ يَحْلُمُ رُؤْيَا الحَرْبِ شاعِرُهَا
وقد يُغْنِي مع الأَطْفَالِ قِصَّتَهَا
فلا غَرَابَةَ والأسبابُ دَاعِيَةٌ
فقلْبُهَا بين مغلوبٍ ومنتَصِرٍ
فقد يُرْصَع يَوْمَ النَصْرِ بالدَّرَرِ
وقد بقوْدُ هُتَافِ الشَّيْبِ لِلسَّيْرِ
إذا تَعَلَّقَ دِينُ القَوْمِ بالظَّفَرِ

لم يولِدِ السِّلْمُ فالأَرْحَامُ عاجِزَةٌ
وكلِّمَا نَشَبَتْ في الفِكْرِ فِكْرَتُهُ
فَظَلَّ شَوْقَ عَقِيَّاتٍ يَدَاعِبُهَا
أخي، الجماعةُ لا تَنْسَى معَارِكَهَا
عَنْ حُمْلِهِ وبذورُ الحَرْبِ تَمْلَأُهَا
عدا من الخوفِ عَادِيهِ فَأَجْلَاهَا
مَاهِزَّ نَشْوَةِ أَحْضَانٍ وَمَلَأَهَا
فِيهَا تُحَسُّ بِمَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا

«لشجيرة الورد بقية»

من

تراب (٣٠٠) شجيرة الورد ! (*)

الطريق

(٢)

وقفنا في شجيرة الورد ، مع الشاعر الأديب الحكيم ، محمد عبدالله محمد ، المحامي ، عند تعجبه من عقم الأزحام عن أن تلد السلام ، وكيف ينساق الأفراد وراء سطوة الجماعات التي لا تنسى معاركها .. قد تكون الجماعة عملاقا ككل ، ولكنها محض عضلات وقبضات بلا وجدان ولا قلب .. يسير الفرد في أعقابها كنقطة بلا حيلة ، شأن النملات السائرة على الجدران ، حائرا بين السلم الذي لا يعبه أحد ، وبين الحرب التي تأخذ بخناق الغرائز فيصير الناس أضدادا وأعداء .. انظر ماذا فعلت جماعة بنى اسرائيل بعيسى المسيح .. جاء يبكي الناس قاطبة لا يحركه آباء وأجداد ، فاتهموه بشق أمته : بنى اسرائيل ، سيق كالشاة (بغض النظر عن شخصية المصلوب) منقادا لجلاد ! فهل يخون الجماعة من في الحب جاوزها إلى محبة أغيار أو من تنزهم لديها منازل الأعداء ؟! إن في ملكوت الرب متسعا للكل ، وشجيرة الورد لن تمنعها الأشواك من الجفاف ، فلا حيلة لها في غابة لا يستهويها سوى الحرب ، بينما لم يخلق العطر للأحقاد ، بل لإثراء المحبة والأحباب .. خميلة الورد فيها الورد مبتسم ، يدعو الجميع إلى الحسنى ويبيدها .. هذا الورد الذي تمسك بالعطر والصبر ، لا بالغلبة بالمكر والخداع .. يذهب معاناة المتعب ، ويزيد فرحة الفرحان .. السلام

(*) المال ٢٧ / ٧ / ٢٠٠٩

فهم لا يدركه إلا من نضج وطرده الخوف بإيانه عن أيامه القابلة ولياليه !

يقول الشاعر الحكيم محمد عبدالله محمد :

قالوا الجماعة عِملاق فقلت لهم	نعم ! عماقَةُ الدنيا الجماعاتُ
ما للعمالقِ وَجْدَانٌ لها عَضْلٌ	سُوقٌ وظَهْرٌ وأَكْتافٌ وقبضاتُ
بها زَوابعُ في أعماقِها سَكَنَتْ	وقسوةٌ وغراباتُ وغَرَائِثُ
إِنَّا نَسِيرُ على أَقدامِها نُفْطًا	كما تَسِيرُ على الحِيطانِ نَمَلَاتُ

عبدُ السلام قَضَى والحَرْبُ حِرْفَتُهُ	ولا تَنافُضُ فالأَسَاءُ عِمْيَاءُ
لم يَعَشِقِ السَّلْمَ إنسانٌ فُيْعِدُهُ	وليس للسَّلْمِ إِطْلَاقاً أَرْقَاءُ
هل مَنْ يَقولُ سلامُ الله صَدَقَها	ومَنْ يَرُدُّ فكيف الناسُ أَعْداءُ ؟
يقولُها الكُلُّ لا صدقا ولا كذبا	فيها اقتداءٌ وتسكينٌ وإِرجاءُ !

شَجيرةُ الوردِ لا الأشواكُ تَمْنَعُها	من الجفافِ ولا الأوراقُ تُجَدِّها
وليس للوردِ عند الغابِ جَارِحَةٌ	تُعِينُ في الحربِ تَحْمِيهِ ويَحْمِيها
لم يُخْلَقِ العِطْرُ للأحقادِ يورِثُها	بَلْ للمحبةِ والأحبابِ يُثْرِها
خَمِيلَةُ الوردِ فيها الوردُ مَبْتَسِمٌ	يدعو الجميعَ إلى الحُسنى ويُبْدِيها

عيسى المسيحُ بكى للناسِ قاطِبةً	لم يبكِ من أجلِ آباءٍ وأجدادِ
فَقِيلَ عنه شَقِيٌّ شَقَّ أُمَّتَهُ	وسَقَّ كالشاةٍ منقادًا لِلْجَلادِ

خَانَ الْجَمَاعَةَ مَنْ فِي الْحُبِّ جَاوَزَهَا إِلَى حَبَّةِ أَغْيَارٍ وَأُضْدَادِ
وِظَنٍّ فِي مَلَكُوتِ الرَّبِّ مَتَّسَعًا لِلْكُلِّ بِالْفَهْمِ لَمْ يُحْصَرْ بِمِيلَادِ

ما زال مشكلَةُ العملاقِ يُشكِّلُهَا تباينَ الفهمِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْقِيَمِ
لَسْنَا خَلَايَاهُ مِثْلَ مَا قَالِ وَأَصْفُنَا عَنِ الْوَرَاثَةِ وَالْأَعْرَاقِ وَالْقِدَمِ
نَحْنُ الْإِنْسَاءِ أَفْرَادٌ وَنَجْمُنَا فَهْمٌ إِلَى الْحَقِّ أَوْ وَهْمٌ إِلَى صَنَمِ
الْمَارِدُ الضَّخْمُ أَفْكَارٌ وَعَاطِفَةٌ يَهْبِجُ مِنْ وَقَعِ أَحْدَاثٍ وَمِنْ كَلِمِ !!

هُوَ الْعَوَاطِفُ رَبَّاهَا تَجْمَعُنَا هُوَ اعْتِيَادٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْعَدَدِ
هُوَ التَّوَافُقُ فِي الْإِبْقَاعِ بِأَنَسُهُ طَبْعُ الْقَطِيعِ وَنَحْمِيهِ مِنَ الْبَدَدِ
يَزِيدُهُ الْوَصْفُ أَبْعَادًا وَأَقْنَعَةً يُمْدِدُهُ الْوَهْمُ لَمْ يَشْبَعْ مِنَ الْمَدَدِ
رَقِيَ الْقُرُودُ عَلَى أَكْتَافِهِ مَرَحًا وَتَمَسَّحُ السَّاقُ عِشْقًا كَفَّ مَعْتَقِدِ

تَمَسَّكَ الْوَرْدُ إِيمَانًا بِعَالِيهِ بِالْعِطْرِ وَالصَّبْرِ لَا بِالْمَكْرِ وَالْغَلَبِ
وَرَبِمَا زَادَ لِلْفَرَحَانِ فَرْحَتُهُ أَوْ كَانَ عَوْنًا لَتَعْبَانٍ عَلَى تَعَبِ
يَقُولُ مِغْنَى لِأَفْرَادٍ عَلَى حِدَةٍ لَا دَخَلَ فِيهِ لَصُوتِ الْجَاهِ وَالذَّهَبِ
السَّلَامُ فَهْمٌ وَفَهْمُ السَّلَامِ يَعْرِفُهُ مَنْ لَا يَخَافُ لِيَالِيهِ مِنَ الْعَطَبِ

من

تراب (٣٠١) قد يأتي الخير من السوء ! (*)

الطريق

هذه العبارة : قد يأتي الخير من السوء ، شدتنى فى حوار ناضج راق فى أحد الأفلام الغربية ، أرادت بها الصديقة أن تتشل صديقها من ليل الأحزان التى تغشته منذ فقد زوجته بعد سقطة لها موجهة .. لم يعد يرى سوى الانتقام والثأر لخسارته المزدوجة ، وبات أسيرًا للواعجه النفسية وما اكتنفه من شعور عميق بالسوء ! ماذا تقول له ؟! شدنى فى العبارة بساطتها وسلاستها وبعدها عن الوعظ الصوتى أو الخطابى الذى كثيرا ما تقع فيه الأفلام والمسلسلات العربية ، إلا فيما ندر ..

قليل بل نادر فى أفلامنا ما ارتفع حوار به إلى هذا النضج السلس الذى ينساب فى بساطة هادئة بلا تقعر ولا خطابة .. خذ على سبيل المثال الحوار العميق الراقى الذى صاغه كاتبنا الأديب الراحل إحسان عبد القدوس ، وجسده سينمائيا الخيط الرفيع القديران فتن حمامة ومحموديس .. تستطيع أن تستخرج من كل عبارة درسا عميقا من دروس النفس والحياة ، يجرى سلسا فى بساطة ، وتقع عليه وتمسك بمعناه بلا وعظ ولا خطابة .. فارق بين هذا الحوار الذى يرتقى برؤية وفهم وذوق ونضج المتلقى ، وبين حوارات يستهويها محض متابعة القفشات والعبارات الشائعة فى الأحياء

(*) المال ٢٨ / ٧ / ٢٠٠٩

الشعبية أو القرى أو النجوع .. مشدودة بالألفاظ والمترادفات عن العناية بالمعنى .. قد لا يجيد صياغة وجدل الحوار ، من يتقن الحكمة القصصية اللازمة للأعمال الدرامية .. وهكذا الحياة ذاتها .. لا يتصادف في كل الأحوال أن تجتمع سلامة الفكرة مع صدق التعبير !

لم تأت العبارة التى شدتنى : قد يأتى الخير من السوء ، لم تأت بجديد فى واقع الحياة .. فمعناها متداول ، قد يفهمه الناس بالسليقة ، ومن فاته الفهم يدركه فى خطاب الدين كقول القرآن المجيد : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٦٥] ، وفى الحكم والأمثال .. من مثل : ما تضيق إلا لتفرج .. أو من مثل : «يخلق من ظهر الفاسد عالم ، ومن ظهر العالم فاسد» !

الذى شدتنى فى العبارة ، بساطة صياغتها ، وعمق معناها ، وسلاستها البعيدة عن أى تنطع أو تقعر أو مغالاة .. نعم ، قد يأتى الخير من السوء .. أليست النوائب التى تحمل بالأفراد والجماعات ، حافزًا لليقظة والانتباه واستخراج قدرة الصبر والصد والمقاومة والخلاص ؟! أليست العاهات التى تولد مع الشخص أو تلم به حافزًا نراه كل يوم فى تقوية باقى حواسه وملكاته ؟! ألا تزداد قوة إبصار العين السليمة بعد إصابة الأخرى ، ويزداد السمع رهافة وحساسية وقدرة مع توارى أو زوال الحاسة البصرية ؟! أليس يُقال كل ذى عاهة جبار ؟ المعنى هنا لا ينصرف إلى التجبر والجبروت ، وإنما إلى ما تحفزه العاهة من استيقاظ ونمو الحواس والملكات والعوامل التعويضية !

في القرآن المجيد درس بليغ لمن يتأمل الآية : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] .. المبادرة إلى الفرح أو الحزن ، اختيالا أو غفلة لا تدرك أن الأسى قد يعقبه ما يسر ويرضى ، وأن الفرح قد يسفر عما يحزن .. من يدرك واقع الحياة ، يعرف أن مشاهدتها متتابعة ، وأن أحدا لا يستطيع أن يمسك بالمشهد الأخير إلا بعد حدوثه !

في الفيلم الذى شدتنى فيه عبارة : «قد يأتى الخير من السوء» ، لفتتنى عبارات أخرى تجمع بين عمق المعنى وسلاسة وبساطة التعبير .. «الدم لا يمحو الدم» .. كم نحتاج إلى وصايا ومواعظ لندرك معنى هذه العبارة التى تدمغ بلا خطابة كل صيور القتل والثأر والانتقام ، فضلا عن صور التعدى والإيذاء والتدمير والهلاك لبنى الإنسان ؟!

من

تراب

الطريق

(٣٠٢) لا رئاسة لهيئة الدفاع (*)

في أي قضية

درجت بعض الصحف ، على إسباغ صفة رئاسة هيئة الدفاع على أحد أو آخر من الزملاء المحامين في قضية أو أخرى .. وقد تفضلت إحدى صحفنا الكبرى بوصفى بذلك في قضية ضخمة كنت أزال فيها أساتذة أكبر منى علما ومكانة وأقدمية وتاريخا .. منهم أستاذى صاحب الأفضال محمد عبدالله محمد الذى أسبغ على من أبوته وعلمه وأستاذيته ما لا عدد ولا حصر له ، وآخرون من أعلام المحاماة ، فسارعت بالاتصال بالمحرر ورئيس التحرير ، مؤكداً ليس فقط أننى لست رئيسا لهيئة الدفاع ، بل إن المحاماة ورسالتها وأصولها لا تعرف بتاتا رئاسة لهيئة الدفاع ، حتى وإن أسبغت على أقدمهم وأميزهم وأكبرهم سنا وتاريخا ، وقد سارعت الصحيفة بالتصحيح الذى طلبته ، وكنا فى منتصف ثمانينيات القرن الماضى ! فى زماننا كثرت الألقاب ، وكلها غريبة على المحاماة .. فالمحامى محام وكفى .. لا يحمل لافتة بأنه مثلاً محامى الحريات أو محامى الجماعات الإسلامية أو محامى الكبار أو الفنانين أو الصحفيين .. فالمحاماة أوسع وأشمل وأرقى وأعظم من أن يحتويها لقب أو تخصيص .. المحامى .. كل محام .. هو محام للحريات ، ولل كبار والصغار ، وللإسلامى والمسيحى ، ولل فنان أو العاطل من موهبة الفن ، وللصحفى أو الكاتب أو لمن لم

(*) المال ٢٩ / ٧ / ٢٠٠٩

يعمل قط بالصحافة أو الكتابة .. وهذا الاتساع والشمول هما سر تمكن وتميز المحامى والمحامة .. حسبه أن يؤمن بالقضية التى يقبلها أيا كان عنوانها .. فالعناوين غير المضامين .. وقد يكون المتهم بالضرب البسيط مذنباً حتى النخاع ، وقد يصادف أن يكون المتهم بالقتل العمد مع سبق الإصرار والترصد بريئاً من الجريمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب !

أما رئاسة أو ترأس هيئة الدفاع فهو تعبير جاهل جهول يناقض معنى المحاماة ذاتها ورسالتها التى تتأبى على أى إخضاع لرئاسة زميل أو رغبة حاكم أو توجيه جهاز أو توصية صاحب نفوذ .. بل لا تخضع لرغبة المتهم ذاته .. المحامى يستمد مشروعية دوره من حرিতে وتخففه من أى قيود إلا ما يهديه إليه عقله وفنه وموهبته .. لا يملكت أحد أن يراجعه أو يصادر عليه ، حتى المتهم مع أنه الأصيل الذى يستمد منه المحامى وكالته فى القضية .. هو يوكله ولكنه لا يملى عليه خطأ فى الدفاع ، فقد يعترف المتهم فى التحقيقات بالتهمة ، ويبنى المحامى دفاعه على بطلان وعدم صدق الاعتراف ، وقد ينكر التهمة ويمعن فى نفيها وإنكارها ، ويرى المحامى أن يبني دفاعه على طلب استعمال الرأفة لأسباب وأسانيد يراها أجدى للمتهم وأصوب لدفاعه .. وقد يوافق المتهم على استجوابه بمعرفة المحكمة ، فيرفض محاميه هذا الاستجواب ، فلا يسع المحكمة إلا النزول على رفض المحامى برغم موافقة الأصيل ، لأن القانون اشترط للاستجواب أمام المحكمة أن يكون بموافقة المتهم ودفاعه معا ، فلا تغنى موافقة أحدهما عن موافقة الآخر !

خطة الدفاع هى بنات فكر وعلم وثقافة وخبرة وفن المحامى ، لا

تقبل بطبيعتها إملاءً من أحد ، حتى ولو كان زميلاً أطول وأعرض باعاً وخبرة وأقدمية ومكانة في المحاماة .. ومن يعرف طبيعة القضايا وما تثيره من أفكار ووجهات نظر ، يعرف أن رئيس المحكمة نفسه وإن ترأس الهيئة إلا أنه لا وصاية له على رأى أعضائها ، ولهذا فإن التصويت في المداولات في الأحكام يبدأ بالأحدث ثم الأقدم ثم الرئيس حتى لا يتأثر عضو المحكمة بأقدمية زميله أو رئاسة رئيس الهيئة !

أما المحامى فهو متخفف من أى قيد شكلى أو إدارى أو موضوعى ، هو سيد نفسه وابن أستاذيته هو وعلمه هو .. يخلق فوق السحاب ، ولا يشده شئ مهما كان إلى الأرض أو إلى سحاب آخر لا يقنعه أو لا يريد .. هذه الحرية هى قوام المحاماة وعدة المحامى ، وهى هى سبب الحصار أو التطويق الجارى محاولة فرضه من أكثر من صف قرن على نقابة المحامين .. تضيق النظم المستبدة بالرأى الآخر ، وتسعى ما وسعتها الطاقة لمصادرتها ، والمحاماة هى الأرض البكر للآراء الحرة والتعبير الفاهم الممكن .. والمحامى هو طاقة لا قيمة لمضمونها بغير حريتها . وهذه الحرية محققة للمحامى من كونه لا يخضع لقيد إدارى أو وظيفى أو حتى نقابى .. رزقه على الله ، وعلى علمه وكفاءته .. لا سبيل لاحتوائه ، لذلك كانت النقابة هى المستهدفة بقصد تعقيم المحامين من خلال تطويق النقابة !

على أن كل محاولات السلطة ، فى كل عهد ، لمحاصرة النقابة ، لم تُجد فى محاصرة أو تطويق المحامى .. سيقى المحامى حرّاً متخففاً من أى قيد أو رئاسة ما بقيت المحاماة رسالة حرة تحفظ للمجتمع والأفراد أمانهم وحريتهم وتكفل حماية وتحقيق العدالة !

من تراب (٣٠٣) عن أي سلام يتحدثون؟! (*) الطريق

بفارق ٤٨ ساعة ليس إلّا، حملت الصحف نقلا عن وكالات الأنباء، دعوتين متنافرتين متعارضتين أشد التنافر والتعارض، فضلا عن المغالطة والتهافت .. في ١٤ / ٧ / ٢٠٠٩ حملت عناوين الصحف تصريحات مليئة بالصلف والغطرسة صادرة من نيتانيا هو رئيس الوزراء الإسرائيلي، تقول في تبجح: «على العرب والفلسطينيين الاعتراف بيهودية إسرائيل» .. وفي التضاعيف والتفصيلات أنه يجب على العرب والفلسطينيين التخلي وصرف النظر عن حق العودة إلى ديارهم، فعودتهم تقويض تدريجي لإسرائيل (اليهودية)، والاعتراف بيهودية إسرائيل هو مفتاح السلام إذ في هذه التصريحات صادرت على كل مطلوب، بل وضعت العقدة في المنشار، ونسفت أي حديث يمكن أن يدار أو يلوح به عن السلام .. ولكن الأغرب لأن إسرائيل لا يصدر عنها إلّا كل غريب، هو ما صدر عن الولايات المتحدة من تأييد ليهودية إسرائيل، ثم ما صدر بعد ٤٨ ساعة ليس إلّا من تصريحات هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية المنشورة بصحف ١٦ / ٧ / ٢٠٠٩ .. فمن واشنطن دعت الوزيرة الأمريكية الدول العربية إلى المبادرة الآن لاحظ: الآن! باتخاذ تدابير

(*) المال ٣٠ / ٧ / ٢٠٠٩

ملموسة لاحظ : ملموسة ! باتجاه تطبيع علاقاتها مع إسرائيل التي طرقت
هى الأخرى الحديد وهو ساخن فأعلنت عن مشروع قانون مطروح
يمنع الاستفتاء على إعادة الجولان المحتلة إلى سوريا .. لتكون بذلك
ملكا أبديا لإسرائيل ، وخارجة بالتالى عن نطاق أى تفاوض للسلام ،
ومع ذلك لا تكتفى الولايات المتحدة بتأييد يهودية إسرائيل ، فتنادى
العرب بالتطبيع الآن مع إسرائيل وبتدابير ملموسة .. ثم تلتزم الوزيرة
الأمريكية الصمت وترفض الإجابة بنعم أو لا ردًا على سؤال وجه إليها
حول حدوث تفاهم من عدمه بين الولايات المتحدة وإسرائيل بشأن
الاستمرار فى بناء المستوطنات بعدما أعلن لها وزير الخارجية الإسرائيلي
عن رفض الاستجابة إلى دعوة وقف الأعمال فى بناء المستوطنات !

ماذا إزاء يهودية إسرائيل..، لو أعلنت كل دولة بها أغلبية مسيحية
عن مسيحية الدولة ؟! إن هذا سوف يرد على أمريكا وكل دول أوروبا
الغربية وعلى بعض الدول فى آسيا وأفريقيا وأستراليا والأمريكتين ..
لنرى مسيحية أمريكا ومسيحية إنجلترا ومسيحية فرنسا ومسيحية
إيطاليا .. وهلم جرا !

وماذا لو أعلنت كل دولة بها أغلبية مسلمة عن إسلامية الدولة ؟! إن
هذا سوف يسرى على كل الدول العربية ، وعلى دول كبرى وصغرى فى
آسيا وأفريقيا .. لنرى إسلامية كل دولة عربية ، وإسلامية إندونيسيا ،
وإسلامية باكستان ، وإسلامية أفغانستان ، وإسلامية بنجلاديش ..
وهلم جرا !

إن ذلك سوف يسلخ حق المواطنة عن كل شخص غير مسيحي في الدول المسيحية ، وعن كل شخص غير مسلم في الدول المسلمة ، ليحل الانتماء الديني محل المواطنة .. التسليم بيهودية إسرائيل ومهما كان ما فيه من مغالطة وتجاهل للفلسطينيين والمسلمين ، المقيمين واللاجئين .. هذا التسليم يعنى بطريق اللزوم التسليم لكل دولة تبعا لأغليبتها الدينية أن تعلن مسيحية أو إسلامية أو بوذية أو كونفوشية الدولة ، لتنتهى المواطنة ، وتغلق كل جسور التقارب بين الأديان ، وتعمق العنصرية والتعصب الدينى والعرقى ، ويتعارك العالم في حروب ضارية لا يدركها من يتنادون بغير عقل ولا منطق بيهودية إسرائيل !

ثم كيف يكون السلام ، ناهيك عن التطبيع مع إصرار إسرائيل على يهودية الدولة ، ومنع عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، والشروع فى إصدار قانون يحظر الاستفتاء على إعادة الجولان إلى صاحبها سوريا .. علام إذن سوف يتفاوض العرب ، وعلى أى أساس سوف يكون السلام .. ثم ، وهذا هو الأدهى ، ما هو مبرر دعوة وزيرة الخارجية الأمريكية إلى وجوب مبادرة العرب والآن ! للتطبيع مع إسرائيل ، وبوسائل ملموسة تقطع بقبولهم يهوديتها ومكانتها فى المنطقة !!

لا يمكن لأى عاقل أن يحسن الظن بإسرائيل ، وأمريكا بالتبعية ، إزاء تصرفات تنسف أى فرصة للسلام ، ما بين يهودية الدولة ، ورفض العودة ، وامتلاك الجولان ، والجدار العازل ، والقدس عاصمة أبدية لإسرائيل !! إن الحديث عن السلام رغم هذا كله وغيره من غارات ونسف وتدمير وتجريف واغتيال ، يعنى أننا نضع الهزل مكان الجد .. حقا صدق من قال : «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» !!

من

تراب (٣٠٤)

لن ينال السلام^(٥)

إلا القادر على الحرب! الطريق

ليست هذه دعوة للحرب ، وإنما تقرير لواقع وفهم لضرورة أنه يجب ألا تترك الآخر يعتقد أنك صانع خامد خانع معدوم القدرة والحيلة ، لا رغبة ولا قبل لك بالمناضلة حين تجب لنول حقل المهضوم أو المسلوب .. وأنت لن تستطيع أن تقنع الآخر بهذه القدرة بمحض الكلام والطنطنة ، وإنما يجب أن يكون في واقعك وعملك ورصيدك وعزمك وإرادتك ، ما يحمل رسالتك بأنك قادر على أن تختار وتمارس وبكفاءة خيار الحرب إن فرض عليك خنوع كالسلام !! خالٍ عارٍ من الحق !

دعمني ولا يزال هذا الإحساس وأنا أراقب الأنظمة العربية بغير استثناء ، تركت الآخرين يعتقدون اعتقاداً راسخاً لا يتزعزع بأننا فقدنا القدرة ومعها النخوة ، وأنا قد بتنا نتسول ما يُلقى إلينا إن أُلقي من فتات ! الفتات هو غنيمة الشحاذين والمتسولين ، لا يدفعه إن دفعه ! إلا الكرم والأريحية ورغبات التفضل والمنّ التي لم يعد لها محل ولا موضع ولا وجود في دنيا السياسة !

السياسة لا قلب لها ، وإدارة الصراعات وقت السلم أو التهادن لا تقل ، بل هي ربما تكون أعرض من إدارة الصراع زمن الحرب ..

(*) المال ٢٠٠٩ / ٨ / ٣

إدارة الصراع ، وتحريك آلياته في اتجاه حقك ومصلحتك هى ناتج أو لا ناتج ! إمكانياتك وجديتك وقدرتك على ممارسة الصراع بكل أدواته وأشكاله انتهاءً بالحرب إذا لم يكن منها بد !!

فأنت لا تستطيع أن تدير هذا الصراع ، إدارة حقيقية منتجة وفاعلة ، ما لم تدرك أدواتك وتقبض عليها ، فأولها أن ولاءك يجب أن يكون لقاعدتك .. لا يبالي بالرضا أو بعدم الرضا هناك ، وأن إمكانياتك معلقة بالقاعدة التى تسندك ، وبالأدوات التى تملكها .. هذه الأدوات لا تترك شيئاً فى موازين القوى إلاّ يجب أن تحرص عليه وتجنّبه .. تجنّى قاعدة اقتصادية وعلمية متينة ، ووضعاً سياسياً حاضراً وفاعلاً ، وقوة عسكرية قادرة ، وعلاقات دولية مؤثرة ومؤازرة من واقع مصالح تفرسها على الآخرين بأكثر مما تتمناه أنت .. هذه المصالح المتبادلة تُشأ وتُها لها أسبابها إن لم تكن موجودة ، وتُنمى وتُزاد وتُفعل إن كانت قائمة .. فالدول وسياستها وراء مصالحها كالأفراد .. لن يناضل أحد من أجلك إلاّ إذا كانت له مصلحة واضحة فى هذه المناضلة ، ولن يبالي بك أحد إذا كنت لا تبالي بنفسك وحقك ، وتبأشره وتنتصر له بنفسك .. على حد الحكمة القائلة : «ما حك جلدك مثل ظفرك ، فتول أنت جميع أمرك» !

أين نحن الآن فيما يجرى فى المشهد الراهن ، لم تقدم ولن تقدم إسرائيل والحال كذلك ما يشف عن أى رغبة فى السلام ، فهى تنعم الآن بكل ما تريده وزيادة بلا حرب ولا سلام ، فهى ناعمة فى الوطن الذى سلبته ، وبمن تهلكه أو تطفشه من بنيه ، وبالقضيات التى أضافتها إليه فى ١٩٦٧

بما فى ذلك القدس العربية وهضبة الجولان التى بدا أنها لم تعد سورية بعد أن أطلقت إسرائيل مشروع قانون يحظر الاستفتاء على ردها .. وهى الأمرة الناهية فى الأراضى المضمومة إلى جوار الوطن السالف سلبه ، المتحكمة فى الإقامة وفى المعابر والمنافذ ، المتمكنة من الحصار الذى فرضته بالجدار العازل الذى لم تبال بحكم محكمة العدل الدولية بالتوقف عن إنتامه وإزالة ما تم منه ، وهى هى التى أعلنت القدس عاصمة أبدية لإسرائيل وانتقلت حكومتها إليها ودون أن يعترض عليها أو يراجعها أحد ، وهى ترفض الدخول فى اتفاقية حظر الأسلحة النووية ناعمة بترسانتها المدمرة التى تركتها الولايات المتحدة بلا أى تعليق ويممت شطر إيران الإسلامية تحظر عليها مجرد التخصيب الذى لم يقم دليل على أنه يتجه لعمل نووى ولو بمعشار معشار ما تمتلكه إسرائيل التى لا يراجعها أحد !!

ما هى إذن الدوافع والمرغبات التى يمكن أن تدفع إسرائيل إلى السلام ؟! أليس السلام يقوض ويوقف ما تجريه الآن من غارات وإبادة وإهلاك وتهجير وتجريف ، وما تقيمه من مستوطنات يجرى العمل فيها على قدم وساق دون مبالاة بالاعتراض الأمريكى الذى يبدو أنه من باب إبراء الذمة ، هذا الإبراء الذى عز ويعز ولو من باب الشكل على ما يجرى من تهويد للقدس وما حولها فى صورة بلغت حد إجبار أصحاب الدور على هدمها بأيديهم وإلاّ تعرضوا للعقاب ؟!

إذن ، فليقل لى أحد لماذا تقبل إسرائيل بالسلام ؟! هى نعم تراوغ
من أجل إعطاء الانطباع بقبولها للسلام ، ولكنها مراوغة ليس إلا لإلهاء
العالم والعرب حتى تستوى وتكتمل الطبخة وتضيع فلسطين وشعبها
إلى الأبد !!

ماذابقى بعد ذلك ؟!.. إن العرب متناحرون ، وهكذا فعلت وتفعل
الفصائل الفلسطينية ، والصراع على أشده بين فتح وحماس ، والكل
منشغل بالتفاهات عن إدارة صراع حقيقى فاعل يقنع إسرائيل بأنها
ستدفع ثمن ما تتصور أنها تسعى لتأييده ، ويقنع العالم والمتحكمين فى
مساره الآن بأن دوام هذا الحال من المحال !

ولكن هذا المحال رهين بأن يرى من ييدهم الأمور ، أن أحدا لا
يستطيع أن ينال السلام ، ما لم يكن قادرا على الحرب !

من

تراب (٣٠٥) الطعنات الطائشة!! (*)

الطريق

في تعقيب له على الحملة التي شنت على روايته : «وليمة لأعشاب البحر» بعد أكثر من ١٥ سنة من نشرها ، وبعد سنوات لا أذكرها من دخولها مصر قال الروائي السوري تعقيبا على هذه الأزمة : «لقد منحني شهرة لم أسع إليها» !!

وأحسب أن هذه المقولة الصادقة ! تنطبق بحذافيرها بل أكثر انطباقا على سلمان رشدي المحسوب على الروائيين بروايته : «آيات شيطانية» .. وتنطبق على أفلام صاحبت إطلاقها دعاية لإثارة الاحتقان ليرتد نفعا وترويجا وتسويقا للفيلم المتواضع الذي كان سيذهب بالتأكيد إلى زوايا النسيان لولا الاحتقان والهيجان وسيل التغطيات الصحفية والفضائية التي تتابع التشنجات وتراها مادة خصبة لترويج الصحيفة أو المحطة التلفزيونية الفضائية أو الأرضية ، ولا بأس أيضا من الترويج لمقدم البرنامج أو محرر الصحيفة ، بينما يطير الروائي أو المصنف الفيلمي إلى العالم في دعاية مجانية واسعة غير مدفوعة الثمن ، تلفت الأنظار إلى الكاتب أو المؤلف أو المخرج أو الممثل ، مثلما تستدعي الجمهور إلى منافذ بيع الرواية أو إلى دور عرض الفيلم السينمائي ، وينال العمل وصاحبه شهرة لا يستحقها ، لعل أكبر أمثلتها في السنوات الأخيرة الآيات الشيطانية للمدعو سلمان رشدي !

(*) المال ٢٠٠٩ / ٨ / ٤

حول هذه المعانى بادرت بالكتابة للأهرام (٢٠٠٨ / ٧ / ٣) ، حول منح المذكور : سلمان رشدى ، لقب فارس الذى أسبغته عليه ملكة بريطانيا التى كانت عظمى ومرت بإمبراطوريتها سنوات طويلة لم تكن تغرب عنها الشمس .. يومها دعوت المسلمين ، ودعوت نفسى ، إلى تجاهل هذا التكريم واللقب ومانحته والممنوح له ، فلا الماحة فارسة ، ولا الممنوح له فارس ، ولا يتمنى إلى شجرة وسجايا الفروسية التى تضم الشجاعة والبسالة والمروءة والصدق والشهامة ..

وقد صدق حدسى ، مر الحدث بلا تعقيب أو بلا تعقيب كبير ، ودخل الوسام واللقب فى مزبلة التاريخ ، ولم يعد أحد يذكر الفارس ولا عمله الردى الذى عرف رداءته من اطلع عليه واكتشف ما فيه من خلط وتخليط بين الخيال الروائى وهو مباح ، وبين حقائق التاريخ التى لا يجوز تحريفها أو الكذب فيها !

أردت أن أقول إن مثل هذه الطعنات الطائشة ، تأتى بعكس المقصود بها ، ولا تنفع من حيث تصور الطاعن أنه يصيب .. مثل هذا بدأ يشيع فى تعقب كثير من الأعمال والقرارات والمصنفات ترفع بشأنها دعاوى ممن لا صفة لهم ، فيكون مآلها اليقيني عدم قبول الدعوى لرفعها من غير ذى صفة ، وتطلب طلبات لا يجوز طلبها كسحب الجنسية التى لا يملك القضاء نفسه سلطانا عليها لأنها من أعمال السيادة التى لا تخضع لرقابة القضاء أو سلطة القضاء ، وإذا ما تأملنا حصاد الدعاوى التى رفعت بغير صفة أو بغير مبنى ، سنرى أن الحصاد «صفر» بالثلث ويكل الخطوط العربية واللاتينية وبكل لغات وأرقام الأرض !

على أن «الصفير» لا يقتصر مداه على خلو الوفاض والبوء بالخسران ،
لأنه فيما يعرفه العارفون يحصن العمل أو التصرف أو القرار بما يُسمى
عدم جواز نظر الدعوى مستقبلا لسابقة الفصل فيها ، فيغلق الباب
على أى دعوى فى المستقبل ولو كان مبنها صحيحًا ، ثم هو فضلا عن
التحصين يروج للعمل وصاحبه ولموضوع القرار ترويجا يلاحق الناس
فى بيوتهم على موجات الأثير أو شاشات التليفزيون ، وفى قراءاتهم
للمصحف والمجلات والدوريات !

قد يتساءل حسنو النية ، لماذا لا يتعظ أصحاب هذه المبادرات الخائبة .
والجواب واضح وبسيط هو غياب العقل .. فلو حَصَرَ العقل لأدرك
المحتقنون الغيرون أن الاحتقان سيأتى بنقيض غايته ، وأن طعناته ستطيش
عن هدفها وغايتها ، وسترد لنفع من أثار بسوء صنيعه الغيرة والاحتقان !
ولو كان العقل حاضرا بدلًا من عرض النفس وإبداء الشطارة والغيرة
المصطنعة ، لأدرك رافعو الدعاوى بلا صفة أن تراكم هذه الإخفاقات لما
يرفعونه من قضايا طائشة ، سيرتد بالسوء عليهم وعلى سمعتهم ونظرة
الناس إليهم ، وأنهم لن يغنموا شيئًا ، ولن يلاقوا إلا حصاد الهشيم .
والاستخفاف بهم وبأعمالهم ، وضياح ما ينبغى أن يتوفر للمارس المهنة من
مكانة وصدق واحترام ووقار !

لا تملك حين تراقب مثل هذه المشاهد ، إلا أن تتحسر على غيبة
العقل ، وتذكر المثل السائر من سنين دون أن يتعظ به أحد : «رزق الهبل
على المجانين» !!!

من

تراب (٣٠٦) ماذا يقال أو (*)

الطريق لا يقال في المقال !!

خطير جداً ومؤسف ، أن تكون الكتابة لمجرد الكتابة أو استعراض الشطارة .. الأزمة الراهنة التي تهدد مصر في حصتها التي تعتمد عليها حياتها في مياه النيل ، تقوم على أن ما تجريه دول المنبع وتحاول إجراؤه دون التفات لحقوق دول المصب ، يهدد الحياة والزرع والضرع في كل من مصر والسودان ، فلا بديل لهما عن مياه النيل ، فهو شريان الحياة .. واحتجازه هناك في الأعلى مهدد الوادي هنا وفي السودان . بينما يبدد الاحتجاز بالسدود هناك محض إيذاء لدولتي المصب .. بلا عائد مضارع لدول المنبع التي تنعم ببدائل نهريّة متعددة ، فضلاً عن الأمطار التي لا تنقطع هناك طوال العام !

أسوأ ما يمكن أن يقال الآن ، ويفقد مصر حجتها في حوار الحياة والموت الدائر الآن مع دول المنبع ، أن يقال إن مصر «تبدد» ما يصلها من مياه النيل ، ناهيك أن يقال إن هذه هي القضية .. الغريب أن هذا الادعاء لم يصدر عن دولة من دول المنبع تحاجي به مصر في دفاعها عن شريان حياتها ، وإنما صدر على غلاف وصفحات مجلة مصرية من الصحف القومية ، حملت في صدر مانشيتات عددها السبت (١) أغسطس

(*) المال ٨/٨/٢٠٠٩

(٢٠٠٩)، مانشيت «سِماوى» نصه : «المؤامرة الحقيقية لاحظ : الحقيقة !!

على حصتنا فى مياه النيل» !!

فما هى ياترى هذه المؤامرة الحقيقية !!! والتى أمسكت بها المجلة القومية ؟!

قد يظن القارئ إذا لم يفتح المجلة ، أنها مؤامرة بين دولة أو أكثر من دول المنبع ، تأمرت مع قوى شريرة تستهدف مصر وأمنها بل وحياتها .. هذا هو المعنى اللفظى لكلمة «المؤامرة» : «هى إذن لا بد أن تكون مؤامرة» خارجية ضد مصر وشعبها وحقوقها وحياتها !

إلا أن القارئ لا يكاد يفتح المجلة حتى يجد المانشيت سالف البيان مكررا فى كل صفحة من الصفحات ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥ يزين مقالا مطولا تحت هذا العنوان لرئيس التحرير ، يكفى أن تطل على عناوينه الداخلية ، لترى هل هذا كلام يقال أو لا يقال فى المقام الذى نحن فيه الآن ؟! .. تقول العناوين المليئة بالتشاطر فى غير موضعه :

- «أيهم الأخطر على أمننا القومى : الحالمون ببناء السدود فى دول أخرى .. أم زارعو الأرز وحافرو الآبار فى أراضي وضع اليد وملوئو النيل بمياه الصرف الصناعى» ؟!

- «قبل أن نقلق من حرب لا تلوح احتمالاتها فى أى أفق .. علينا أن نتوتر مما نفعله بحصتنا فى مياه النيل .. نحن نروى الأرض بالغمر ونعيش بالغمر .. صدق أو لاتصدق .. بالساعة» !

- «نسمع صرخات من مزارعين يشكون من تضيق وزارة الري

فى نوباء الماء .. ولكننا لم نعرف أى خبر عن زرع مات بسبب العطش .. مما يعنى أن الحصص المطلوبة لا ضرورة لها!

- «زارعو الأسماك يربحون الألوف سنويا .. لكنهم يهدرون ألوفاً من أمتار الماء على كل فدان .. ويعطلون مسارات الماء .. ويعرقلون ظلمبات الصرف وليسوا مستعدين للتخلى عن كارثتهم (مزارعهم السمكية)» !

- «مصدرو الأرز يمكنهم أن يبيعوا الكيلو فى مصر بقرش صاغ .. مقابل تصديره بملايين الدولارات إلى آسيا .. وفى الطريق يهدرون مليارات من ثروتنا المائية .. تأكل منها الشعوب الصفراء» !

- «كل يوم تلقى محطة أبورواش مليوناً وربع المليون متر مكعب من مياه الصرف الصحى فى فرع رشيد .. و١٠٢ منشأة صناعية على الأقل تلفظ إخراجاتها فى عرض النيل على مدار الساعة» !

- «٤٠ ألف حالة تعدى على النيل .. و٢٣ ألف بئر مياه جوفية غير مرخصة .. وأعضاء مجلس الشعب يقاومون أى قرار حكومى يمكن أن يؤدى إلى حماية حصتنا من المياه» !

فماذا بعد؟!

هل أعظم من ذلك هدية يمكن أن تقدم لدول المنبع الآن !! فى الحوار الضروس الدائر بينها وبين مصر؟! ألا يعطى هذا الكلام الآن !

ذريعة لدول المنيع للتغول على الحقوق المصرية مادامت مصر تفرط هذا التفريط الهائل في مياهها بشهادة شاهد من أهلها أو رئيس من رؤساء تحرير صحفها؟!

هل مجاله الآن فتح مسألة ترشيد المياه ، وبهذا الشكل ، وبهذه المبالغات ، لنقوض بتشاطرنا ما يبينه المدافعون عن حقوق مصر ، ونعطى بأيدينا ما يشجع الآخرين ويقويهم على اغتيال حقوقنا؟!

هل تاهت البوصلة حتى لم نعد نعرف ما يقال ومتى ، وما لا يقال؟! .. هل ميزنا بين ما لا يقال إلا في الأروقة فسى الداخل ، وبين ما يُصدّر ليتلقفه الآخرون لمحاكاة مصر في حقوقها بل مصيرها وحياتها؟! .. هل عرفنا القاعدة التي تلقيناها في مدارس العلم أن الكلام ينبغي أن يرافقه مقتضى الحال؟! لنعرف أن هذا الكلام الذى طالعناه بالمجلة القومية (١٤) لا ينبغي ولا يجوز أن يقال الآن ! فى مقال يقدم هدية مجانية لمن ينازعون مصر فى حقوقها وحياتها!!!

من

تراب (٣٠٧)

الطريق

الكبائر

والأغراض الصغيرة! (*)

معظم أعمال البشر ، تحركها وتدفعها وتوجهها أغراض .. هذه الأغراض قد تكون مبصرة وقد تكون عمياء ضريرة .. وقد تكون حكيمة وقد لا تكون .. معقولة أو غير معقولة .. هامة أو هامشية .. مفيدة أو ضارة .. وغالبا ما يقترن السعى إلى هذه الأغراض بوزن ما يقابلها في موازين الحساب ورصيد الأرباح والخسائر ، أو المنافع والمضار .. ولا يغفل هذه الموازنة إلاَّ أحمق أعيته حماقته دون أن يعيها أو يرصدها أو يطلب لها علاجًا !!

وكثيرا ما نرتكب كبائر بلا هدف ، أو ننزلق إليها سعيًا أو طلبا لصغائر لا تبررها ناهيك عن أن تخرجها من دائرة الإثم والتأثيم !! حينذاك تكون الكبيرة مفرد الكبائر بلا أى رصيد يبررها أو يغفر الوقوع فيها إن كان له غفران ، وتتضاعف الحماقة حين تكون «الكبيرة» بالغة الإثم والحماقة غير قابلة للغفران !!

قذف الناس ، آحاد الناس ، وسبهم سلوك مجرم معاقب عليه في القانون ، لا يعفى الجانى أو يقيله من جرمه أن يكون ناقلًا فيما قذف به عن غيره .. فتكرار السب سب ، وتكرار القذف قذف ، لأن التكرار

(*) المال ٦/٨/٢٠٠٩

ينطوى فى كل مرة على جديد ينال من شرف وكرامة واعتبار المجنى عليه فى الدائرة العلنية الجديدة التى لا تطابق سابقتها .. فيتضاعف ويتراكم الضرر ، وتزداد مخاطر الانفلات الذى لا يبالى بكرامات وأقدار الناس ، ناهيك بالأئمة أو عظماء التاريخ أو رموز الأديان !

دهمنى فى الأسبوع المنصرم عنوان صافع مقذع على غلاف إحدى مجلاتنا القومية ، يصم الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأرضاه ، بوصمة هائلة تدخل فى عداد الكبائر غير المغفورة ، تنعته بكلمة فاحشة لا أستطيع أن أكرر لفظها وإلا وقعت فيما وقعت فيه المجلة الأسبوعية القومية ، متصورة أنه يمكن التوارى وراء المنقول عنه الذى وصفته بأنه «شيعى دجال» !!

وهذا الاقتران فى نعت المنقول عنه ، ينطوى على خلط وتحليط .. فالدجال إن كان حسبه أن يكون دجالاً ينعت بالدجل ، ولكن هذا النعت لا يجوز أن يتعداه إلى سواء .. فلا يقال المسلم الدجال ، أو السنى الدجال ، أو العالم الدجال ، أو الشيعى الدجال .. فالدجل نعت لسلوك شخص خرج عن الوقار والجادة ، ولا ينبغى أن ينسحب على الإسلام أو السنة أو العلم أو الشيعية .. لذلك فوصف المنقول عنه «الكبيرة» التى تلصق بالفاروق عمر بن الخطاب نقيصة هائلة بأنه شيعى ، ينطوى على تجاوز يكشف عن «الغرض الصغير» لارتكاب هذه الكبيرة ، وهو فيما ظن العنوان غير المغفور أنه ضرب للمذهب الشيعى !!

وبغض النظر عن السياسة وأغراضها ، فإن المذهب الشيعي فيما لا يعرفه المانثيت المتورط في هذه الكبيرة ، ومثلها كثير في رجم كبار الصحابة بداخل العدد ، مذهب ينتمى إليه قرابة نصف أعداد المسلمين ، منهم المغالون ومنهم المعتدلون .. ولكن المذهب الشيعي بعامة ليس بخارج الإسلام أو عن الإسلام ، ويجرى تدريسه للآن في الأزهر الشريف موئل أهل السنة ، ويدرس أيضا بكلليات الشريعة وضمن مواد الشريعة الإسلامية بكلليات الحقوق .. أما الجنوح فيه ، ناهيك عن الدجل ، فهو قدر على كل المذاهب والديانات والملل والنحل .. فلا يحسب الجانح أو الشارد على الدين أو الملة أو المذهب ، وإنما يحسب عليه هو فقط جنوحه وشروده .. وهذا ما نرده كل يوم لمن يأخذون الإسلام عمداً أو جهلاً بشرود أو جنوح بعض المنتسبين إليه !

الغرض الصغير هو تصور أن الضرب في المذهب الشيعي يرضى السياسة ، وهو غرض لا يبرر على أية حال ارتكاب كبائر القذف ولو بالنقل في الفاروق عمر بن الخطاب وكبار الصحابة .. ثم هو غرض ضريع ، يذكي الخلافات والاحتقانات والثارات ، ويفرق ويشتت ولا يجمع أو يوحد .. إن بين الشيعة وأهل السنة علماء عقلاء حكماء شكلوا معاً منذ منتصف القرن الماضي جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، سعت وتسعى على مدار السنين للتقريب بين السنة والشيعة ، لجمع كلمة المسلمين الذين يعبدون إلهاً واحداً ، ويؤمنون بكتاب واحد ، وبرسول واحد ، ويتجهون إلى قبلة واحدة !

كان بوسع المجلة القومية ، وقد نشرت في السالف مقالات وتحقيقات صحفية عن جماعة التقريب بين السنة والشيعة وأعمالها وعلمائها ، أن تجدد الحديث في هذه الاتجاه ، وأن ترد الجانح من هنا أو هناك إلى الإسلام الواحد ، وإلى اتفاق السنة والشيعة في الأصول والكتليات .. وأن ترد على الدجال دجله دون أن تتورط في الترويج للسب والقذف في حق عمر بن الخطاب وكبار الصحابة بأبشع وأقذع الشتائم التي إن كان قد استمع إليها العشرات على لسان من وصفته المجلة بالدجال ، إلا أنها قد حملتها هي إلى عشرات الألوف ، فضلا عن إطلاع الملايين عليها في قابل الأيام فيما صدرت به المجلة غلافها وضمنته صفحاتها من نعوت هائلة تدخل في باب السب والقذف ، وازدراء الأديان !

كم من الكبائر ترتكب استهدافاً لأغراض صغيرة ضئيلة ؟!!!

من

تراب

الطريق

(٣٠٨)

هل للاجتماع

أم للسياسة؟! (*)

نشرت صحف الأحد ٢٦ / ٧ / ٢٠٠٩ ، مقتطفات من تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات كشف فيه مخالفات بـ «الملايين» في الصندوق الاجتماعي للتنمية !.. والحديث عن مصارف وميزانيات ووظائف ومرتبات ومكافآت وتعيينات وهبات وعطايا الصندوق قديم ومتكرر ، ولا يبدو أن أحداً لأسباب لا تفوت ! يريد أن يتصدى لهذا البذخ المبدول في كثير من الأحيان في غير موضعه !

والجديد في التقرير الأخير ، أن الصندوق (الاجتماعي للتنمية) قدم منحة مليون جنيه بالتمام والكمال لجمعية جيل المستقبل التي كثر الحديث عن المزايا التي تمنح لها حتى داخل حرم جامعة القاهرة .. والسؤال الذي يفرض نفسه : ما هو عدد الجمعيات التي أعطاهما الصندوق منحاً أو هبات في عام ٢٠٠٧ الذي منح فيه جمعية جيل المستقبل مبلغاً وقدره مليون جنيه ؟! وما هو معدل قيمة التبرعات أو المنح أو الهبات لباقي الجمعيات ، وهل يعطيها الصندوق بذات القدر وذات البذخ ، ويمنح كلاً منها مليون جنيه أو حتى أقل قليلاً ، أم أن هذه «العطية» أو «المنحة» الضخمة لم تمنح إلا لجمعية جيل المستقبل ؟!

(*) المال ١٠ / ٨ / ٢٠٠٩

دعنا من أن التقرير لم يورد ملاحظات حول عقد المنحة واستخداماتها ،
ودعنا نتساءل : هل هذه المنحة لأغراض الاجتماع والتنمية الاجتماعية
التي أنشئ من أجلها الصندوق ، أم أنها لأغراض السياسة ؟!.. المقارنة
الواجبة فيما منحه الصندوق أو لم يمنحه لباقي الجمعيات وهى بالآلاف
فى بر مصر ، وبعضها يقوم بنشاط اجتماعى مصنّى وخالص ، ولا شبهة
فيه لنفوذ أو سياسة .. هذه المقارنة الواجبة هى الكفيلة بكشف هل «منحة
المليون» لأغراض التنمية الاجتماعية الخالصة لوجه الاجتماع والتنمية ،
أم أنها لأغراض السياسة وطلب الصيت والنفوذ ؟!

أوردت الصحف أيضا ، نقلا عن تقرير الجهاز المركزى للمحاسبات ،
أن الصندوق تعاقد أيضا مع جمعية «تنمية خدمات مصر الجديدة» على
تمويل الجمعية «بمنحة» قيمتها (٥) ملايين جنيه ، للمساهمة فى نشاط
الجمعية لتدريب وتأهيل عدد ١٣٣٢ من القائمون على العملية التعليمية
بمرحلة التعليم الأساسى فى مدارس بأحياء الزيتون وعين شمس
والمطرية ومدينة السلام بمحافظة القاهرة .

ولكن التقرير لم يكشف شيئا عن أمر هذه الجمعية ومن هم القائمون
عليها فى حى مصر الجديدة والزيتون (؟!) ، ولا عن سبب خص هذه
الجمعية مع جمعية جيل المستقبل بهذه المنح الضخمة الهائلة (؟!) ،
ولا عن مصارفها وأوجه استخدامها وهل تتفق أو لا تتفق مع أهداف
وغايات الصندوق الاجتماعى للتنمية !

لم يتضمن التقرير بيانا حصريًا يفسر لماذا تُخص هاتان الجمعيتان
بالذات بهذه المنحة الهائلة ، ولماذا جرى هذا بغير إعلان (؟!) ، بينما لم

يسمع أحد أن هذه المنح الفلكية أعطيت لغيرهما من الجمعيات ؟!
نعرف ما يسمى بالاقتصاد السياسى ، فهما قسيان متشاركان :
الاقتصاد والسياسة ، ولكننا لم نعرف قرانا بين الاجتماع والسياسة ، ولا
بين السياسة والعدالة .. ذكرنى ما فعله الصندوق الاجتماعى للتنمية
الاجتماعية لا السياسية ، بقالة قديمة للأستاذ مكرم عبيد فى مرافعته عن
حسن النحاس ، محذرا فيها من اختلاط السياسة بالعدالة فقال :

«إن السياسة والعدالة ضدان لا يجتمعان . وإذا اجتمعا لا يمتازجان .
والواقع أنهما مختلفان فى الطبيعة والوسيلة والغرض . فالعدالة من روح الله
والسياسة من صنع الناس . والسياسة توازن بين شتى الاعتبارات ،
والعدالة تزن الأمور بالقسطاس . وكذلك يختلف الغرض منها :
فالعدالة تطلب حقاً والسياسة تبغى مصلحة سواء أكانت تلك
المصلحة حقاً أو باطلا ! غير أن أخطر ما فى السياسة أنها ترى من حسن
السياسة أن تحل على المصلحة رداء الحق تلبسه دوماً وأن تخدع الناس
عن ظلم السياسة فتصوره عدلاً لازماً !! .. هذا شر ما يخشى من السياسة ،
ولذلك فليس أشد خطراً على نظام الدولة وأخلاق الشعب ، من أن
تتخذ المنازعات السياسية شكل الدعاوى القضائية ، فتدخل السياسة
هيكल القضاء متباكية متمسحة بأعتابه وتتجنى على العدل باسم العدل
منتحلة اسمه متشحة بجلبابه ! وقد عودتنا السياسة أن تقب الأوضاع
فتبأكى وهى الجانية وتشكو والناس منها شاكية ! » .

ما ينطبق على صيانة العدالة من تداخلات السياسة ، ينطبق أيضا على
صيانة الأهداف الاجتماعية والإنسانية من أن تحالطها السياسة ، فترك
هدفها وغايتها ، وتيمم شطر السياسة ودنياها ونفوذها وتسهيلاتا ..
وكم فى دنياها من تساهيل !!!

من تراب الطريق

هل صار العدو (٣٠٩)
هو الإسلام؟! (*)

أتابع في اندهاش شديد ، واستغراب ممض ، أقلامًا وكلماتٍ تركت ما نعانیه ، وتجاهلته وصمتت صمت القبور عنه وعن أسبابه ، وطفقت تحت شعار التنوير الذى لا يختلف عليه أحد ، تعادى الإسلام نفسه كدين ، وتشدد عليه النكير ، وتعزو إليه دون غيره ! كل المشاكل والمثالب والرزايا والنكبات التى أحاطتنا من كل جانب ، حتى ليظن القارئ أو السامع أن الإسلام الدين هو سبب الظلام والإظلام ، والرجعية والجمود ، والتراجع والقهر ، وأنه السبب الوحيد لكل مأسينا .. هو سبب كارثة الدويقة ، واختلاط مياه المجارى والصرف الصحى بمياه الشرب ، وجالب التيفود ، وأنقلونزا الطيور والخنازير ، وأنه هو هو هذا الإسلام ! سبب الاحتقانات التى تشجر من وقت لآخر ، فى الصحافة والقضاء والخبراء والنقابات ، وأنه هذا الإسلام ! هو سبب المليارات التى ضاعت فى فوسفات أبو طرطور ، وفى مشروع توشكى ، وفى منح وتوزيع الأراضى على أصحاب الخطوة ، وتسريب الغاز إلى إسرائيل بأقل الأثمان ورفض النجدة التى أتت من القضاء لإقالة الاتفاق الآلا متوازن مما تعثر فيه ، وأنه هو هو هذا الإسلام؟! الذى سرب الأرض إلى شخص ذى حظوة كبيرة وفجر وأضاع مئات الملايين من الجنيهات

(*) المال ١١/٨/٢٠٠٩

وأدى إلى خسران القضايا والتحكيم في قضية سياج ، وأنه هو هو هذا الإسلام ؟! السبب في انحدار التعليم وتآكل وترنح مؤسسته ، وفي تراجع الصحة وانتشار الأوبئة والأمراض ، وفي محاصرة وضرب الحريات ، وأنه هو هو هذا الإسلام ! السبب في القمع والاعتقال وتجاهل الدستور ثم تطويقه ، وفي مصادرة تكوين الأحزاب ، وعدم تنفيذ حكم القضاء بعودة حزب العمل ، وضرب باقى الأحزاب من داخلها ، وأنه هو هو هذا الإسلام دون سواه !! سبب العشوائيات وما يجرى فيها من شيوع الرذيلة والمخدرات حتى زنى المحارم ، وأنه هو هو هذا الإسلام ! سبب تراجع حال الرياضة وانتشار العشوائية في الإدارة والبناء ، وسبب فوضى الشوارع وانتشار الزبالة والقاذورات فى كل مكان ، وأنه هو هو هذا الدين الإسلامى ! تسبب خراب النفوس والذمم وشيوع النفعية والنفساد والجعول والرشاوى والسرقات والاختلاسات !

حرام أن تترك الأقلام الكبيرة هذه الكبائر لتصور للناس أن العدو الحقيقى هو الدين الإسلامى ، ولا تتفضل حتى بالفصل بين الدين كدين قيمته فيه ، وبين جنوح بعض المتسبين إليه ، وهو قدر على كل الديانات ، وتسحب وتشد ما قيل ويقال عن تنكب الصواب فى منح إحدى جوائز الدولة إلى منطقة الإطلام والتنوير ، والتكفير والإيمان ! .. وهذه لعبة خطيرة ، ولكنها لا تنطلى على أحد .. فالتنقد الموضوعى العاقل ينصرف إلى معايير وضوابط منح جائزة الدولة ، ووجوب الابتعاد بها عن تحقيق الأغراض السياسية أو المنافع الشخصية ، وأن هذا النقد يستوجب بالضرورة التعرض للحالة لبحث معايير إعطاء الجائزة ، وهل توافرت أم لم تتوافر ، والبحث من ثم فى المقومات والإنتاج ، ليس تفتيشا

في الضمائر ، ولا في مناطق العقيدة ، فالممنوح له الجائزة من حقه كمواطن أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو ملحداً ، ومن حقه أن يعتقد وأن يكتب ما يشاء إلا أن يدخل قانوننا في دائرة إزدراء الأديان .. وهذه الحرية التي لا ينازع فيها أحد لا تحول بين الباحث في تقويم اعتبارات إعطائه الجائزة ، وبين وزن ما حصل أو لم يحصل عليه من شهادات كانت ولا شك ضمن معايير الإعطاء ، سيما أن الانتحال إن كان له مدلول بالغ الخطورة ، ولا تحول بين الباحث للتقويم وبين وزن أعماله واستشراف مدى الصواب أو الخطأ أو التهافت أو الجنوح فيها ، لا للمصادرة على حقه حتى في أن يجنح ، وإنما لاستطلاع المعايير التي منح على أساسها جائزة الدولة التقديرية ، وهل أصابت هي لا هو ! أم جنحت ، وهل أحسنت هي لا هو ! أم لم تحسن الاختيار والإرساء !

لم يفتنى السعى الخبيث لشد القضية إلى منطقة العقيدة والادعاء بأن نقد تقرير الجائزة يندرج في باب التكفير أو مصادرة حرية البحث والرأى ، وهو سعى مغلوط لإخراج القضية من دائرتها الحقيقية إلى دائرة مصطنعة للخداع والتمويه !!

الأخطر من هذا أن هذا الشد الذي طفقت تباركه أقلام لها انتهاء أو ولاء أو مصالح لدى الجهة المانحة ، قد اقترن للأسف بالهجوم على الدين الإسلامي .. فهل تفضل أصحاب هذا التهجم الضريع على سقف الدين بالنظر والكتابة ولو في موضوع واحد من الموضوعات العديدة التي أشرت إلى بعضها من باب الإشارة ليس إلا ؟! هل من نجاة من هذا الغناء الذي يقلب كل الموازين ويقود البلاد إلى أوحم العواقب ؟!!

من تراب الطريق

(٣١٠) العاجلة والآجلة؟! (*)

تجربى الأفلام والكلمات ، والحكم والمواعظ ، من مئات السنين على المقابلة بين الدنيا والآخرة ، ووصف الدنيا بأنها الغرورة الفانية ، والآخرة بأنها الحقيقة الباقية .. ونظرًا لأن أحبال صبر المتعجلين لا تستطيع انتظار الآخرة ، فتنعجل الدنيا وتقع في حبالها تطور الخطاب ليضع الآجلة مقابل العاجلة ، على اعتبار أن الآجلة أقرب من الآخرة ، ويمكن أن ترد في الدنيا ، فتعوض الصابر الصبور ، المتمسك بالحبل المتين ، عن مكاسب العاجلة التي يمكن أن تكون سرابًا قصاراه أن يذهب بالمدفع إليها إلى فوات الاثنتين : العاجلة والآجلة ، أو إلى زوايا النسيان ، أو إلى مزبلة التاريخ !

في هذا الزمان ، زماننا ، لم يعد أحد يصبر على طلب العاجلة إثارةً للآجلة وإن كانت أكرم وأفضل وأعظم وأبقى .. يتساقط الرجال وأشباه الرجال كأوراق الخريف طمعًا وجريًا وراء منصب أو موقع أو ترشيح أو مغنم أو سبوبة ، مع أن ذات هذا الزمان الذي نعيش فيه ، يرينا كل يوم مآل من تسابقوا وأسرفوا على أنفسهم وكرامتهم وعلى رطنتهم وعلى الناس ، وماذا صار بهم الحال حين غربت النجومية المصنوعة أذ

(*) المال ١٢/٨/٢٠٠٩

المصطنعة ، وانحسرت الأضواء ، وأحاط بهم السكون المطبق بلا مدد يعوضهم بذكريات تبل الخاطر ، إلا سكاكين الندم والخذلان .. تقطع في أحشائهم وتبرهن لهم بعد أن فات الأوان ، أن الآجلة لو فهموا وتفتنوا كانت خيرًا لهم وللوطن .. وأبقى !!

لو تأمل المتعجلون المتدافعون إلى العاجلات ، لعرفوا أن الكون كله في صيرورة دائمة .. الأرض والشمس والقمر والكواكب والأفلاك والمجرات ، جميعًا تدور في حركة دائبة لا تتوقف . وهكذا وقائع وظروف الحياة .. لا يبقى ملك في ملكه ، ولا حاكم في سلطانه ، ولا ناعم في موقعه .. ولعرفوا أن التاريخ وإن بدا في الحاضر أنه لا يكتب ، إلا أنه يخطط خطوطه يومًا بيوم ولحظة بلحظة ، وأن ما استتر أمره أو تحصن بيومه، مآله إلى الانكشاف وفقدان الحصانة باكر .. حين تظهر المخطوطات إلى حيز الوجود بعد تغير الظروف أو زوال الحصانات !

لو تأمل المتعجلون في المحاكمات الجنائية الجارية أو الأمور المستورة التي تكشف كل يوم ، لأدركوا أن المفصوح الجارى المساءلة عليه الآن كان بالأمس في طيّ الكتمان محجوبا عن عيون الناس .. ظن حاجبوه أنه في حرز حصين لن يصل إليه مخلوق ، فإذا هو اليوم متداول «على عينك يا تاجر» كما يقولون !!

ماذا يساوى ما يؤخذ من كرامة الإنسان وشرفه ، وماذا يساوى أصحاب العجلة حين تنحسر عنهم الهالات فيبدون للناس ، وأمام أنفسهم ، بلا شرف ولا كرامة ؟! .. وماذا سوف يجنى من تعجلوا

الكسب الحرام ، أو فرطوا في واجب الشرف والصدق والتزاهة ، أو باعوا ضمائرهم ، أو تاجروا بولائهم ، أو طعنوا أوطانهم وناسهم ، أو تسابقوا في مواكب الزيف والضلال والبهتان ، وأعطوا ظهورهم للحق ولبلدhem وناسهم ، واشتروا العاجلة بالآجلة ، فلا العاجلة بقيت ودامت لهم ، ولا الآجلة أفسحت لهم أو التفتت إليهم !

إيثار العاجلة على الآجلة ، نازع يحدث في الحياة الخاصة كما يحدث في الحياة العامة .. الفارق أن آثاره في الحياة العامة أكثر اتساعاً وأعم ضرراً .. ولكنه في الحالين استسلام لنزاع تتراجع أو تنظم أمامه الرؤية والفطنة والبصيرة ، وتضعف أو تتلاشى إرادة الحق والصواب ، وتحل محلها إرادة النفع وانتهاز الفرص ، والتخلي عن الاتزان والوقار والالتحاف بالمداينة والرياء والوصولية والتفاق ، والاستسلام للربغاب والشهوات ، وضمور داخل الأدمى بإسكات ثم موات ضميره ، فتساوى المرنثيات ، فلا تميز العدسة بين الكمال والنقص ، ولا بين الجمال والقبح ، ولا بين الحق والباطل .. معيار الرؤية الوحيد يختزل في ثقب إبرة لا يمر منه إلا ما يصادف الهوى ويوافق الأغراض مهما كانت صغيرة أو باطلة !!

حين تشيع هذه النزعات في الحياة العامة ، لا يقتصر أثرها المدمر على صاحبها ، وإنما تنخر في المجتمع وقيمه وأدائه وطرحه ، فيتوارى الحق والجمال والصواب ، ويتقدم الباطل والقبح والضلال !

المشاهد الجارية التى أوحى أو استحضرت هذه الكلمات ، مشاهد
تنشق لها الصدور .. ساد منطق المصانع ، وأسلوب العشائر ، وتقدم
النفاق وتأخر الإخلاص ، وفتحت العاجلات أذرعها وأحضانها
للخاملين والبلداء ، وضنت على الأكفاء والمجتهدين ، فاختلت البوصلة
وتاهت حتى لم يعد بمقدور المخلصين إلا أن يمسكوا بجمر النار ! إن
أردت أن تتلقى بعض الإجابات عما ألمحت إليه ، فأرجوك أن تعود إلى
عمود (٧/١٤) : «كيف لانحزن» ؟! ففيه بعض ما أثار هذه الأشجان !!



من تراب (٣١١) فيا غوثاه يا غوثاه! (*) الطريق

في عام المجاعة أو الرمادة (١٧ هـ) ، بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب برسائل استغاثة عاجلة إلى كافة أمراء الأمصار ، يقول لهم في كل منها بعد السلام : «أفترانى هالكا ومن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك ؟ !
فيا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه !!

وقتها لم يكن يصادف الناس إلا الجوع ، ولم يضربهم العطش وهو أشد .. ومع ذلك لم يستطع أمير المؤمنين ، إلا أن يطلق استغاثة الشهيرة : يا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه ! ليحث ويستنفر بها أمراء الأمصار لإنقاذ الرعية من الجوع .. هذا الجوع الذى قال عنه يوما : «لزم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم أى عددهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا فعلت . فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم !

استدعى هذه المعانى من أزمن القديم ، أننا قد بتنا نأكل ونشرب ما نخرجه ، إما مباشرة فى مياه الشرب التى اختلطت بالمجارى ومياه الصرف ، وإما من خلال النباتات التى رويت بهذه المياه الفاسدة ، حتى انفجرت الآثار المدمرة على صحة بل وحيوات الناس ، فلا يكاد يمضى يوم إلا وتحمل الصحف أنباء المصابين بالتيفود الذين تستقبلهم المستشفيات

(*) المال ١٣ / ٨ / ٢٠٠٩

تباعاً .. لم تقتصر المأساة على قرية البرادعة أو محافظة القليوبية ، فطفح
البثور قد طفق يتفجر بالمحافظات ومعه تزايد حالات الفشل الكلوى
التي تتصاعد من سنوات حتى وصلت إلى معدلات كارثية !

لا شأن لنا بالتعللات ولا بالاتهامات المتبادلة بين شبكتى المياه والصرف
الصحى ، ولا بالأسباب والذرائع والتعللات ، أو متاهات المشاكل أو
المقاولين أو المواسير ، فالذى يعرفه القاصى والدانى أن بلد النيل باتت
تعانى من العطش من زمن طويل ، حتى خرج الناس ليقطعوا الطريق
الساحلى الدولى فى شمال كفر الشيخ من عامين ، وضرب العطش أحياء
فى القاهرة وفى شتى العواصم ، ناهيك بالمدن والمراكز والقرى والنجوع ..
ويعرف القاصى والدانى أن اختلاط مياه الصرف والمجارى بمياه الرى
وبمياه الشرب قد تفشى من زمن فى ربوع الوطن .. وهذا الاختلاط لم
يحدث فى لحظة أو فى يوم وليلة ، وإنما هو تراكمات سنين سكنت فيها
الإدارة بأجهزتها عن الالتفات والتفطن واتخاذ اللازم ، ثم غلبها تراكم
المشكلة والأسباب ، حتى استسلمت أو لجأت هنا أو هناك إلى أسلوب
المسكنات ، وخالط هذه المسكنات انحراف الذمم واغتراف الحرام
وشيوع الإهمال وتراخى المراقبة ، فتعثرت الحلول ، وغابت مواصفات
المواسير فى بعض البقاع كما قيل ، ولم يلتفت أحد إلى شئ من هذه
المخاطر المتراكمة وأثرها المدمر على صحة وحيوات الناس ، وبقي أمراء
الأمصار وقادة الأجهزة والإدارات فى سبات عميق حتى انكشف الغطاء عن
إصابات التيفود التي طفقت تلحق وتنافس إصابات الفشل الكلوى !

ترى من المسئول عن هذه التراكمات التى طفحت ، ومن المسئول
عن آثارها التى آلت بنا إلى أن نشرب ونقتات بها نخرجه ، وهو مصير
أسوأ من الجوع الذى استغاث الفاروق عمر لنجدة الرعية منه .. فالجوع
قصاره صبر على نداء البطون ، واقتصاد فى الطعام ، وتصابر على قلته ،
واستعانة ولو بالتسول على مواجهته !! أما أن يشرب الناس ويقتاتوا بها
تخرجه بطونهم ، فكارثة تعافها وتترفع عنها الحيوانات !!

تبدى كل يوم التعلات والمعاذير ، والأسباب والعلاج ، ولكن ذلك
لم ولا يغير شيئاً مما يشربه ويأكله الناس ، ولا يحمى المنكوبين فى طعامهم
وشرابهم مما يصيب أكبادهم وأحشاءهم وكُلّاهم .. وبدلاً من المسألة
والحساب ، ينعم الأمراء بمواقعهم ، لا يتحفون الناس إلا بالكلام ،
وتمضى أنعام الترف يرتع فيها الأثرياء والمنعمون الذين لا يشربون إلا
المياه المعدنية ، ولا يقتاتون إلا بأطيب الطعام النظيف أو المستورد !

ما أحرانا الآن ما دام الأمراء لا يتنادون ، أن نتنادى نحن : يا غوثاه
يا غوثاه يا غوثاه ! ماذا بقى لنا بعد أن صرنا كالخنازير نقتات على زبالة
وإخراجات البطون ، فلا ندرى أقدر علينا أن نقاوم أنفلونزا الخنازير أم
نعيش عيشتهم ونأكل ما يأكلون ؟ ! . إنهم على الأقل أعنى الخنازير لا
يدركون ماذا يقتاتون ، وقد وجدت إدارتنا الهمامة الحل بإعدام الخنازير
لاتقاء الأنفلونزا ، فترى ماذا هى فاعلة بنا بعد أن صرنا نشرب ونقتات
مثلهم !! بها تخرجه البطون ؟ !

من

تراب (٣١٢) تساند العلماء ! (*)

الطريق

في ختام الكتاب الضافي : الفاروق عمر للأستاذ الجليل الدكتور محمد حسين هيكل ، حرص على أن يوجه «شكرًا وتقديرًا» ذكر فيه أنه حق عليه وهو يطالع الناس بالطبعة الأولى للجزئين الأول والثاني من كتاب «الفاروق عمر» وهو من أعظم وأقيم كتبه أن يقدر جهد الذين عاونوه وأن يشكر لهم . فماذا قال الدكتور هيكل ؟ قال :

«في مقدمة هؤلاء صديقي مصطفى باشا عبد الرازق (الأستاذ العلامة الجليل ووزير الأوقاف وشيخ الأزهر) ، إذ أعارني «أصول» محاضراته بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) في الفلسفة الإسلامية ، فيسر لي طريق البحث في الفصل الذي وضعته عن اجتهاد عمر .

«وجمع لي الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (العالم الجليل صاحب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ومفتاح كنوز السنة) ما في كتب السنة من أحاديث رسول الله عن عمر بن الخطاب ، فأعانني في تدوين ما اتصل من حياة عمر بالرسول الكريم .

«وللدكتور سيد نوفل (صاحب الكتابات الإسلامية المعروف) جهد المعاونة على إظهار هذا الكتاب حقيق بأعظم الشكر . فقد بدأت

(*) المال ١٧/٨/٢٠٠٩

فى كتابته فى شهر مارس ١٩٤٣ ، وفرغت منه فى يونيو سنة ١٩٤٤ .
وفى هذه الأثناء كنت أدفع ما أراجعته من فصول الكتاب إلى الدكتور
نوفل ، فيمليه على لبيب أفندى فكرى إبراهيم لكتابته على الآلة الكاتبة ،
ثم يراجعها ويبدى لى ما يعنّ له من ملاحظات . فلما بدأت فى تصحيح
الكتاب شارك فى تصحيح تجاربه فى كل أدوارها أدق المشاركة . وهذا
الجهد فى الإملاء والملاحظة والتصحيح والمراجعة ، جسيم جدبر بأجزال الشاء .

«وللأستاذ عبد الرحيم محمود الفضل فى تحقيق ما فى الكتاب من
نصوص ، وضبط ما فيه من أعلام ، والتدقيق فى مراجعة تجارب الطبع
وتصحيحها ، ما لا يكفى الشاء جزاء عليه .

«وقد وضع الشيخ أحمد عبد العليم البردوسى والشيخ محمد البرهامى
فهارس الكتاب على النحو المحكم الذى يراه القارئ ، فلهما أجزل
الشكر» .



وقعت على هذا الشكر والتقدير وأنا أعود بكتاب الفاروق عمر إلى
بعض ما تضمنه عن أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح الذى أكتب عن
تجسيده لعبقرية الإيثار وإنكار الذات ، فاستلفتنى فيه حرص هذه القامة
العالية : الدكتور هيكل باشا ، على أن يسجل فى متن كتابه عن الفاروق
من كان لهم الفضل عليه فى إنجاز هذا العمل الضافى الكبير .. لم يستكف
الاعتراف بأنه استعان بمحاضرات مصطفى باشا عبد الرازق ، ولا بأن
الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي جمع له الأحاديث بنصها وسندها ، ولا

بالمتابعة الشاملة والعون الكبير الذى رعاه به الدكتور سيد نوفل ، ولم ينس حتى ليبب أفندى فكرى إبراهيم الذى تولى الكتابة على الآلة الكاتبة ، ولا الأستاذ عبد الرحيم محمود الذى حقق النصوص وضبط الأعلام وراجع وصحح تجارب الطبع ، ولا الشيخين البردونى والبرهامى اللذين توليا وضع الفهارس .

واستلفتنى ثانيا غزارة وصدق الرعاية التى كان علماء ذلك الزمان يبذلونها لبعضهم ، وكيف كان هؤلاء الأعلام يتساندون فى إثارة ومجبة لخدمة العلم والأدب والعلماء والأدباء ، لا يضمن أمثال مصطفى باشا عبد الرازق والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي والدكتور سيد نوفل بوقتهم الثمين ويؤثرون عمل الدكتور هيكل على أنفسهم وعلى أعمالهم الكبرى التى أثروا بها المكتبة العربية والإسلامية .

ولا أخفيك أيها القارئ الكريم أننى امتلأت حزنا على ما آلت إليه أحوالنا من غياب هذه الروح وذاك التساند ، وأشفقت على ما ألاقه ويلاقه أمثالى من القيام وحدهم ! بكل العمل ، بلا عون ولا مساعدة ، لا فى جمع المادة وتحقيقها ، وهذا عمل مرهق كبير ، ولا فى تيسير المراجع وهى عزيزة ، ولا فى المراجعة والتصحيح .. إلى هذه الروح التى جمعت بين هؤلاء الأعلام ، فضل ما أنجزوه وقدموه ، وكنا جديرين بأن نحذو جذوهم لو لم تغيب هذه الروح عنا ويحل محلها ما نراه الآن من تباعد وتنافر إن نجا من العداء فلا ينجو من التجاهل أو الإعاقة !!

من

تراب (٣١٣) بين الموضوعية والشخصنة (*)

الطريق

نشرت جريدة الفجر ، السبت الماضي ٨ / ١٥ قائمة بأسماء بعض أعضاء مجلس الدولة من أبناء المستشارين بالمجلس وغير المجلس ، ومن أبناء لواءات بالشرطة ، أو كبراء من ذوى السلطة والنفوذ .. ومن قبلها نشرت صحف أسماء لأبناء ضباط الشرطة الذين انضموا وينضمون إلى كليتها ، ومن أبناء المستشارين ورجال القضاء الذين عينوا بالقضاء ، ومن أبناء أساتذة الجامعات الذين عينوا فيها ، ومن أبناء رجال الإعلام الذين عينوا بالتلفزيون والإذاعة والإعلام ، وأصدقاء ذلك ليست مقصورة على هذه الجهات ، فتراها فى مرافق كثيرة ومصحوبة فى معظم الأحوال بتجاوز معايير التعيين وأسبقيات المتقدمين حسب درجة تحريجهم أو غير ذلك من المعايير الموضوعية التى لا يجوز التعيين إلا على مقتضاها !

فأنت ترى إذن أن المشكلة ليست فى مجلس الدولة بخاصة ، أو فى الجامعات والقضاء والشرطة والإعلام ، وإنما هذه الظاهرة ضاربة للأعماق فى شتى المجالات ، تضرب عدة مبادئ جملة واحدة .. فهى تضرب مبدأ المساواة بين المواطنين الذى لا يجوز إزاءه ترك التقويم الموضوعى إلى أهواء العصبية أو الطائفية أو القربات أو المحبات أو المحسوبيات أو الرجوات أو ما خفى أمره !!

(*) المال ٢٠٠٩ / ٨ / ١٨

وهى أيضا تضرب قيم المجتمع فى الصميم ، فتحل هذه المعايير الفاسدة الحولاء محل قيم العدل والحق والسواء والشفافية ، وتضرب قيمة الكفاءة والاجتهاد ، وتحل محلها هذا الجنوح الذى يجرى خدمة للأغراض من وراء الأستار ، وأحيانا أمامها حين يفتضح الأمر وتفجر مثالبه أو فضائحه .. ومع ذلك لا يبالى أصحاب الشأن بشئ من ذلك ، وقد يتطرق بعضهم فيحيل من تجرباً على كشف المستور ولم يراع محارم الكبار إلى النيابة والقضاء بتهمة السب والقذف أو إهانة الهيئة .. التى لو حافظوا على كرامتها ، لما زجوا إليها بأرتال من المعينين خارج قواعد المنافسة والشفافية والمساواة !!

وهى أيضا تضرب قيمة «الموضوعية» ، وتحل محلها العواطف أو المحبات أو الأغراض «الشخصية» ، وهذه الموضوعية المتجنى عليها سجية تتوارى باعتياد هجرانها .. ويتنادى الجميع بتغييبها حين يرون أنها لا تشفع لمجتهد أو صاحب حق ، وأن سالكها الملتزم بها أقرب إلى العبط والخبال فى مجتمع تراضى على هجران «الموضوعية» والسير وراء الأهواء «الشخصية» ، وقعد جاهلاً أو خائفاً أو مستسلماً أو يائساً عن مقاومة ضرب كل أسس الموضوعية ، ثم لا يجد بعد ذلك بأساً بحكم الاعتياد من مباركة هذه الآفة ومجاعة السائرين فى ممارستها أملاً فى أن يحقق لنفسه أو ذويه أو أبنائه ما قعدت الهمة والكفاءة والجدارة والتفوق عن تحقيقه !!!

الذين يتحدثون عن تداول السلطة أو التوريث ، لا يلتفتون إلى أن ذلك صار سمتاً عاماً نساغم فيه جميعاً .. فى الوظائف وفى المهن والحرف ، يدفعنا إلى ذلك الاحتكار أو التوريث ، غلبة الأثرة على الإيثار ،

والانحصار في الأغراض الشخصية مهما كانت صغيرة والالتفات عن الأهداف العامة مهما كانت كبيرة ، فلم نر حزبا من الأحزاب المصرية جرى فيه تداول السلطة اللهم إلا بتراضى العظيم خالد محيى الدين على الاعتكاف بحكم السن والصحة ، وأيضا بحكم رغبته في أن يصادق عمله ما يقوله ويتنادى به !

يبدو أن «الفرعون» راقد في أعماق كل منا ، لا يختفى إن اختفى إلا مغلوبا على أمره ، فإن أتيحت له الفرصة ، انطلق يباشر «فرعونيته» في ثقة وإصرار وزهو ، لا يدع لأحد ولا لقيمة ولا لمبدأ أى فرصة في زحزحته عما يريد !!

تلحظ هذه «الفرعنة» في الخفير وعسكري الدرك ، وتلاحظها في أى كبير .. خذ مثلا ما بتنا نراه في بعض صحفنا القومية ، ولا أريد التسمية ، فلا أقصد إغضابا أو إهانة .. ما إن يتولى أحد رئاسة التحرير حتى يتضخم بنط اسمه ، وهذا وارد ومفهوم ومقبول ، ولكننا بتنا نرى الصفحة الأولى لجريدة أو مجلة قومية مصدرة بالكامل بمقال لرئيس التحرير .. وملء الصفحة الأولى بمقال واحد عمل يجافى أسس العمل الصحفى ، حيث ينبغي أن تحمل هذه الصفحة عناصر العدد الأساسية الهامة والمتعددة التى تجذب إلى شراء الجريدة أو الصحيفة ، وتجذب للاطلاع على مادتها .. وأيا كانت مهارة وقدرة وتفوق ونبوغ والمعية رئيس التحرير ، فإن ما يكتبه لا يجوز أن يأخذ كل الصفحة الأولى .. لقد كتب في الصحافة رؤساء تحرير

كبار جدا ، وكتاب عظام جدا ، وأعلام تملؤ أسماؤهم صفحات الأفق ،
ومع ذلك لم نر مقال الأساتذة طه حسين وهيكال والصاوى ومصطفى
وعلى أمين وإحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين لم نر مقال أئ من
هؤلاء ومن على وزنهم يملأ الصفحة الأولى للجريدة أو المجلة بكاملها ،
وقصارها أن تحمل جزءاً منه ثم تحيل إلى باقى المقال فى داخل العدد !

فما الذى جرى فى بر مصر ؟!

وما الذى أصاب المصريين ؟!

ولماذا صارت « الفرعة » و« احتكار السلطة » أول ما نفكر فيه حين

نتبأ موقعا فنمسك بتلابيه .. لنا ولن نحب من بعدنا ؟!

ظنى أن هذه العيوب ضاربة الأطناب فى حياتنا .. ينبغى أن نتأملها

ببصيرة ، وأن نعالجها بفطنة وحكمة وإرادة وعزم وإصرار ! فهل

نفعل ؟!!

من

تراب (٣١٤) حمدى السكوت (*)

الطريق وموسوعته الرائعة

(١)

لم تتح لى مقابلة الأستاذ الكبير الدكتور حمدى السكوت إلا مرة واحدة ، كان ذلك فى شهر مارس ١٩٧٦ .. من (٣٣) عاما .. أيامها كنت أكتب سيناريو وحوار قصة قصيرة عربية ، ثم أخرى غربية ، وهكذا دواليك .. لبرنامج «قصة قصيرة» الذى كانت تقدمه للتلفزيون الصديقة العزيزة الراحلة الأستاذة سميحة غالب ، حرم الصديق العزيز الراحل الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور . وقع اختيارنا أيامها على تقديم إحدى القصص القصيرة للأستاذ الكبير يحيى حقى ، فالتقينا به ومعنا الأستاذ الروائى محمد الحديدي بفندق شبرد بإحدى أمسيات أوائل مارس ١٩٧٦ . وقع اختياره يومها على قصة له بعنوان : «امرأة مسكينة» ، ولم تكن مجموعة أعماله الكاملة التى يحسب جمعها ونشرها للأستاذ فؤاد دواره قد اكتمل نشرها ، ولا كانت قصة : «امرأة مسكينة» قد نشرت حتى ذلك الوقت فى أى مجموعة قصصية ، لذلك فقد أعطانى الأستاذ الكبير تفويضا بلا تخصيص لاختيار إحدى قصصه القصيرة لتحويلها إلى تمثيلية وعرضها بالتلفزيون . ولك أن تدهش أن الأستاذ الأديب الفذ لم يشترط مقابلا على التلفزيون إلا (١٥٠) جنيه فقط !

لم أشأ أن أستغل التفويض الواسع دون تحقيق رغبة الأستاذ يحيى

(*) المال ٢٠٠٩/٨/١٩

حقى فى أن يكون السيناريو والحوار لقصته : « امرأة مسكينة » ، والتي لم يكن يتذكر متى وأين نشرت ، فسألته أن يعطينى أى « أمارة » تهدينى فى البحث عنها ، ولم أكن قد قرأتها ، فأحالنى وكان على سفر صباح اليوم التالى لباريس إلى الدكتور حمدى السكوت ، ولم ينس أن يعقب بأننى سأجده فى الجامعة الأمريكية التى كان يعمل بها أستاذا للأدب العربى .

ذهبت إلى الجامعة الأمريكية مترددا ، فلم أكن قد دخلتها قط ، ولم يسبق لى أى تعارف بالأستاذ الدكتور حمدى سكوت حتى أحمله عبء البحث لى عن قصة غير معروف مكان وتاريخ نشرها .. حتى ليحىى حقى نفسه الذى غادر إلى باريس قبل أن تتاح له فرصة تقديمى للدكتور السكوت . كان طبيعيا أن أتردد وأن أذهب إلى الرجل خجلا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، ولكن لفتنى أن الأستاذ المشغول جدا بعمله ، قد استقبلنى بترحيب ألوف ، وانتزع نفسه فورا من أعماله ، وعكف عكوبا لافتنا على البحث عن القصة فى فهارسه وجداوله وأوراقه ، ولم يرفع رأسه عن الأوراق إلا بعد أن أفادنى بأن القصة نشرت بالأهرام بعدد الجمعة ٣١/٣/١٩٦١ .

انصرفت وأنا أكاد لا أصدق ما لقيته من ترحاب لدى هذا العالم الأديب .. الواضح تقديسه لعمله واعتياده على العطاء ، واحترامه أيضا وتقديره الكبير لكاتبنا الفذ الأستاذ يحيى حقى . فى اليوم التالى كنت فى جريدة الأهرام ، ولكن فى مبناها الجديد الذى لم ألفه كما كنت قد ألفت المبنى القديم بشارع مظلوم الذى كنت كثيرا ما أبدأ إلى قسم المعلومات به لأبحث عما أريد فى سهولة ويسر بلا عقبات ولا تعقيدات . لم أجد شيئا كبيرا قد تغير فى قسم المعلومات بالمبنى العملاق الكبير ، ما إن عرف

القائم عليه ببغيتى ، حتى أحضر لى مجلدا ضخما لأعداد الأهرام يتضمن عدد ٣١ / ٣ / ١٩٦١ ، فجلست إلى المنضدة وقد امتشقت قلمى وفردت أوراقى وشرعت فى النسخ ، بينما المختص ينظر إلى مشفقاً من حجم القصة ، ولم تكن آلات التصوير قد تدوولت بعد فى مصر ، فشجعتنى نظرتة المشفقة على أن أسأله : هل من بديل لعذاب وجهه عملية النسخ ، فسارع مبتهجاً بإنبائى بأنه يمكن تصويرها بالزنكوغراف على نفقتى ، وقد كان .. وانصرفت شاكرًا لأمين القسم هذا العون الكبير الذى اتصل بالنجدة التى أغاثنى بها الدكتور حمدى السكوت .

من يومها ظل قلبى معلقا بالدكتور السكوت ، مفعما باحترامه وتقديره ، ما أكاد أسمع عن عمل قدمه أو نهض عليه حتى أسرع بالبحث عنه واقتنائه والعكوف عليه .. لا زلت أدين على البعد لهذا العالم الأديب بفضل ما أطللت عليه من عالم العقاد وطه حسين والمازنى وأحمد أمين وغيرهم ، ضمن مجلدات سلسلة «بيلوجرافية» نقدية لأعلام الأدب المعاصر فى مصر . وظلت الأيام تترى إلى أن سمعت عن «قاموس الأدب العربى الحديث» .. الذى أخرجه وحرره الدكتور حمدى السكوت ومعه مجموعة من العلماء والأدباء والمبدعين ، فسارعت إلى شراء هذه الموسوعة الضخمة القشبية النفيسة التى بلغت (٦٤٠) صفحة بالقطع الكبير ، أما ماذا وجدت فى هذه الموسوعة ، فلذلك حديث آخر أرجو أن ألتقى معك وإياه فى حديث الغد إن شاء الله .

من

تراب (٣١٥) حمدى السكوت (*)

الطريق الموسوعة الرائعة

(٢)

قاموس الأدب العربى الحديث ، إعداد وتحرير الدكتور حمدى السكوت ، هو عمل كبير لفظا ومعنى ومضمونا وحجما .. والدكتور السكوت معروف لكل المهتمين بالأدب العربى ، وهو حاليا أستاذ فخرى مدى الحياة بالجامعة الأمريكية ، وكان على مدار سنوات طويلة شغلت ما يقرب من نصف قرن أستاذ الأدب العربى ومدير مركز الدراسات العربية ووحدة بحوث الأدب العربى بالجامعة الأمريكية ، وهو كما ذكرت لك بأمس صاحب أول «بيوجرافية نقدية ببليو جرافية» لأعلام الأدب المعاصر فى مصر .. والقاموس يكاد يكون غير مسبوق فى مادته وتبويبه وقيمته ، فقد انقطع إخراج دائرة المعارف الإسلامية من سنين ، والموسوعة العربية الميسرة (غربال وآخرون) هى عمل مجيد حقا ، ولكن اتساع مساحة التغطية زمانا ومكانا ألزم باختصار موادها فلا تشفى نهم الباحث للاستزادة ، أما قاموس الأدب العربى الحديث ، فقد قدم مادة مبوبة ومفهرسة بالأبجدية عن المبدعين وكبار رجال الفكر والثقافة بالعالم العربى ، فى العصر الحديث ، فأتاح له هذا التخصيص التوسع الرأسى والأفقى ، وتضمن مادة خصبة حقا وشفافية ووافية عن

(*) المال ٢٠/٨/٢٠٠٩

أعلام الأدب والفكر والثقافة في العالم العربي من أوائل القرن (١٩) حتى عام ٢٠٠٦ ، وتضمن إلى جوار سير الأعلام ، كثيرا من أعمالهم المتميزة مرتبة هي الأخرى حسب الحروف الأبجدية ، مراعى في بيانه لكل مادة منها أن يدون بالبنط الغامق ما يرد فيها من أسماء أشخاص أو أعمال تضمنها القاموس في موضع آخر طبقا للترتيب الأبجدي .

فأنت حين تفتح القاموس على مادة «الدكتور طه حسين» ، ستجد سيرة وافية لعميد الأدب العربي على ستة أعمدة استغرقت ثلاث صفحات ، بيد أن هذا البيان الخصب الدقيق المتميز ، ليس كل ما تضمنه القاموس عن الدكتور طه حسين ، فسوف تجد وأنت تقرأ سيرته أن بعض أعماله مكتوبة بالبنط الغامق ، أى أنها واردة بالقاموس في موضعها الأبجدي ، فلا عليك إلا أن تتابع لترى أن القاموس قد تضمن إلى جوار سيرة طه حسين ، أعماله : «حديث الأربعاء» ، و«في الشعر الجاهلي» ، و«ستقبل الثقافة في مصر» ، و«مجلة الكاتب المصري» التي كان عميد الأدب العربي قد أصدرها ١٩٤٥ ١٩٥٠ ، وستجد أعلاما وردت أسماؤهم وبعض أعمالهم وبذات البنط الغامق الذي يلفتك إلى أن سير هؤلاء وأعمالهم واردة في موضعها بالقاموس حسب ترتيبها الأبجدي ، وهكذا .. لا يقاوم القارئ شغفه وهو يتابع القراءة بالانتقال من دوحة إلى دوحة أخرى ليغطي مساحة من الاطلاع لم تكن في باله حين فتح على مادة طه حسين أو العقاد أو المازني أو يحيى حقى أو غيرهم من الأعلام الذين تضمن القاموس الموسوعى سيرهم وأعمالهم .

لا أتصور أن أدبياً أو كاتباً أو صحفياً أو باحثاً يمكن أن يستغنى عن هذا القاموس المتميز ، بل ولا غناء عنه لطلاب الثقافة بعامة .. بدقة تبويه وشمول وغزارة ما تضمنه من مواد .

القاموس لم يقتصر على سير الأعلام وبعض أعمالهم ومداخل لكتبهم الهامة ، وإنما أورد مادة شاملة مبوبة في موضعها الأبجدي للمجلات الأدبية والثقافية الهامة ، وللجمعيات أو المدارس الأدبية ، ولعدد من المكتبات ذات التاريخ والأهمية في العالم العربي .. يجد القارئ مادة وافية مثلاً عن جماعة أبوللو ، وعن مجلات الكاتب والكاتب المصري والآداب والهلل والمجلة وجاليري والعصور وفصول والفكر المعاصر وعالم الكتاب وعالم الفكر ، ومجلة أبوللو والشعر العربي والمقتطف ، وبنيت النيل وتراث الإنسانية والثقافة وغيرها من أعمال أدبية وفكرية وفنية دخلت التاريخ بقيمتها وأثرها ..

حتم هذا الاتساع المكاني والزمني والموضوعي ، الاستعانة في تحرير مواد الموسوعة أو القاموس بعدد كبير من النقاد الأكاديميين المصريين والعرب ، وبعده من المبدعين وآخر من الباحثين ، غنيت الموسوعة بإيراد قائمة في صدرها بأسماء هؤلاء المساهمين ، وفيهم بدورهم أعلام كبار أمثال وديع فلسطين ويوسف الشاروني ويعقوب الشاروني وخيري شلبي ومحمد الجوادى وعاطف العراقي وفاروق شوشة ومحمد بدوى ومحمد جبريل وغيرهم ..

ليس في وسعي ولا يتسع المقام للتعريف الوافي بهذا العمل الجليل .. حسبى أن أقول لك إننى لأول مرة أطلع موسوعة أو قاموساً مطالعة

موصولة كما أطلع الكتب والروايات ، لأن المادة التى تقع عليها تفتح
لك من داخلها أبوابا وينابيع أخرى للمعرفة ، لن تستطيع إزاءها أن
تقاوم إغراء التنقل بين الصفحات ، لتتابع رُطبًا جنيًا ما كان يمكن أن
تقع عليها وبهذا الشراء فى مجلد واحد يكاد يضم أعظم من أنجبيهم الفكر
والأدب فى بلادنا وأبداع وأروع ما قدموه من أعمال !

من تراب الطريق

(٣١٦) دعاء (*)

باسمك اللهم .. نفتح العيون والقلوب هذا الصباح في هذا الشهر
الكريم .. نستقبل اللهم دنيانا بالبشر ، ونستشيق عير البهجة .. نُقبل
على يومنا بالأمل .. والرجاء .. والحب .. فاملاً اللهم قلوبنا بنورك ..
وسو ضئائنا على صراطك .. وَقَدْ خُطَّانَا إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُنَا .. وخير أحبابنا
.. واجعلنا اللهم سِلْمًا لأحبابنا ، حربًا على أعدائنا .. ولا تذرنا وحدنا ،
وأنت خير مُعين ...

باسمك اللهم .. نغسل قلوبنا برحيق السباحة .. ننسى اللهم ما كان
بالأمس ، ونغفر هنات الأصدقاء .. نذكر اللهم لهم الحسنات ، ونُشد
بيتنا وبينهم الرباط .. فأقم يا ربنا بيتنا وبين أحبابنا جسر المودة .. وافطر
اللهم قلوبنا على العطف لتتراحم .. نرعى بيتنا الضعيف والمريض ،
ونُعِين المحتاج .. وتآخى جميعًا في رحابك ...

باسمك اللهم .. نوقظ العقول هذا الصباح ، ونُسِير السواعد ..
ونُقبل على أعمالنا .. فهبتا اللهممّن لدنك توفيقًا يكلاً جهدنا .. وارزقنا
من خيرات أرضك ، وبارك لنا يا ربنا فيما أعطيتنا لنا .. وأنت خير
الرازقين ..

(*) المال ٢٤/٨/٢٠٠٩

اللهم .. وانزع الطمع من نفوسنا ، واملأها قناعة ورضا ..
ربنا .. حتى نعطى بالسماحة ، ونبذل لرفقاتنا بالكرم .. لتتقارب
اللهم تحت سمائك ، ونتكافل على صراطك ...
باسمك اللهم .. نعقد النية ، ونبارك أفعالنا .. فاجعل اللهم أعمالنا
مصدقاً لنوايانا الطيبة .. وادراً عنا الشيطان وما يوسوس به في الصدور ،
وهيئ لنا من أمرنا رشداً ..

باسمك اللهم .. نستنفر في أنفسنا الهمة والعزم .. فقومِ اللهم إرادتنا
على طريق الخير ، واعصمنا من كل شر .. حبب اللهم قلوبنا في المعروف ،
واصرفنا عن كل سوء .. واجعلنا يا أرحم الراحمين من خير عبادك ..
هؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. وإذا رزقتهم
سبحانك يشكرون ...

باسمك اللهم .. نستقبل بالعرفان كل ما قسمته لنا .. فأوزعنا يا ربنا
شكرك على نعمائك .. وقارب اللهم بعنايتك بيننا وبين ما نبتغى في سعينا
الشريف على أديم أرضك .. واجعل جهد كل منا متمماً لجهد الآخرين ..
حتى تتكامل أعمالنا .

إلهنا .. عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .. فيسر اللهم لنا
أمرنا .. وعَبِّدْ لنا طريقنا .. ووطئ لنا دروب مستقبل مشرق يضيء
علينا بالخير والضياء ... إليك يا ربنا اتجهنا .. ودعونا .. فاهدنا اللهم إلى
نورك .. وبارك بعنايتك مسعانا .. وأجبننا يا ربنا إلى ما دعوناك .. إنك لا
ترُدُّ دعوة الداعي إذا دعاك ...

من

تراب (٣١٧) ويل من الفلسفة (*)

الطريق والمتفلسفين

قرأت في إحدى صحفنا المستقلة ، رأيا عبقريا كشف ما لم يكتشفه أحد من الأوائل والأواخر .. كتب صاحبه يقول إن الدستور المصرى يسمح للقبطى والشيعى والبهاثى واليهودى والملحد والدرزى والكافر بالترشح لمنصب رئيس الجمهورية ! ودعنا من إفراذه الحديث عن الشيعى وكأنه خارج الإسلام ، بيد أن سيادته لم يتفضل ببيان كيف لأحد من هؤلاء أن ينال هذا الترشيح ، وكيف يمكن لأى منهم وللمسلم بالمرّة أن ينال الترشح للرئاسة أمام «متاريس» المادة ٧٦ من الدستور بصياغتها العبقرية قبل وبعد التعديل ؟!

دعونا مما قبل التعديل !. بعد التعديل تشرط المادة ٧٦ من الدستور للترشح أن يؤيد المتقدم للترشح (٢٥٠) عضوا على الأقل من الأعضاء المنتخبين ودعنا من المعينين ! لمجلسى الشعب والشورى والمجالس الشعبية والمحلية بالمحافظات ، ويجب إيجاب لزوم تفريدة خاصة لهذا العدد الذى لا يكفى أن يتوافر جملة ، فيجب ألا يقل عدد المؤيدين من أعضاء مجلس الشعب عن (٦٥) عضوا من المنتخبين ، فإذا كانوا (٦٤) فسد الأمر كله ! ، ويجب ألا يقل عدد المؤيدين من مجلس الشورى عن

(*) المال ٢٥/٨/٢٠٠٩

(٢٥) عضوا من المنتخبين ، وإلا فلا !! ، ويجب أن يتوفر (١٠) أعضاء على الأقل وإلا فلا من كل مجلس شعبي محلي للمحافظة بمجموع (١٤٠) عضوا على الأقل ، وأن يكونوا من (١٤) محافظة على الأقل ، وإلا فلا !! .. حتى ولو بلغ عددهم (١٧٠) ما داموا من محافظات أقل عددا من الرقم (١٤) الميمون !!

ونظرا لأنه قد يزداد باكر أو بعد باكر، عدد الأعضاء في أى مجلس من هذه المجالس ، أوجبت المادة / ٧٦ أن يزداد عدد المؤيدين للترشيح من أعضاء كل من مجلسى الشعب والشورى ولا تنس أن يكونوا من المنتخبين ! ومن أعضاء المجالس الشعبية المحلية للمحافظات يزداد العدد بما يعادل نسبة ما يطرأ من زيادة على عدد أعضاء أى مجلس من هذه المجالس !

ومع أن التزكية هي محض استكمال نصاب للترشيح ، ولا يلتزم المزكى بانتخاب من زكّى ترشيحه لمجرد التقرير بحقه فى الترشيح ، إلا أن الصياغة العبقرية شرطت أنه فى جميع الأحوال لا يجوز أن يكون التأييد لأكثر من مرشح . وهذا الشرط يغلق بالضبة والمفتاح باب التزكية أو التأييد من أى مجلس برلمانى أو شعبى محلى لا يكون متوفرا فيه عدد النصاب اللازم بعد أعضائه من الحزب الوطنى الذى تكاد تصل أغليته فى بعض المجالس إلى ما يجاوز ٩٥ ٪ !!!

فهل تفضل صاحب الفكرة العبقرية ببيان كيف يمكن لأحد أن يترشح بهذه الشروط أن يجد هذا العدد من المؤيدين .. بعد استفاد عدد الأعضاء فى تأييد مرشح الحزب الوطنى !!؟

حتى الأوكازيون المقرر لترشيحات الأحزاب . فإنه ملئ بدوره بالتأريس ، فتشترط الفقرة الثانية للمادة ٧٦ من الدستور ، أن يكون الحزب السياسى قد مضى على تأسيسه خمسة أعوام متصلة على الأقل قبل إعلان فتح باب الترشيح ، وإلا فلا إذا لم تكن متصلة أو نقصت المدة يوما واحدا ، كما تشترط فضلا عن هذين الشرطين تشترط فى الحزب أن يستمر طوال هذه المدة (المتصلة) فى ممارسة نشاطه وبشرط حصول أعضائه فى آخر انتخابات على نسبة (٣٪) على الأقل من مجموع مقاعد المنتخبين فى مجلسى الشعب والشورى ، أو ما يساوى ذلك فى المجلسين ، ثم تشترط أن يكون المتقدم للترشيح أحد أعضاء الهيئة العليا للحزب ومضت على عضويته سنة متصلة على الأقل ، وإلا فلا إذا لم تكن السنة متصلة أو نقصت ولو يوما واحدا !!

وحتى الأوكازيون الثانى الاستثنائى القاصر على انتخابات واحدة [خلال (١٠) سنوات من أول مايو ٢٠٠٧] فإنه شرط أن يكون للحزب مقعد على الأقل فى آخر انتخابات لمجلسى الشعب والشورى !!
أما إذا كان الراغب فى الترشيح مستقلا كحال معظم المصريين ، فعليه أن يرجع إلى أول السطر المذكور أعلاه وينادى فى ربوع البلاد .
«ولد تايه يا أولاد الحلال» !!

ما كان على السياسى المصرى أن يتورط ليقول لإحدى القبطيات فى الولايات المتحدة ، إنه لا يجوز أن يكون رئيس الدولة المصرية مسيحيا ..

فالصياغة العبقريّة للمادة ٧٦ من الدستور قد وضعت متاريس لا يخترقها مسيحي أو مسلم ، لذلك كان عجيباً تفضل الكاتب الذي بشرنا في إحدى الصحف المستقلة بأن الدستور المصري يسمح للقبطى والشيعى والبهائى واليهودى والملحد والدرزى والكافر بالترشح لمنصب رئيس الجمهورية .. دون أن يتفضل سيادته ببيان كيف يمكن أن يتحول هذا «السماح» إلى واقع متاح؟!!

أيها السادة : تنادى أحمد لطفى السيد من أكثر من قرن من الزمان ، بأن مصر للمصريين !
فهل بقيت مصر اليوم للمصريين؟!!

من

تراب

الطريق

التنطع الإسرائيلي (*)

(٣١٨)

من غير ذى صفة !

نعرف في عالم القانون ، وهى قاعدة عالمية ، أن شرط الدعوى أو الادعاء ، أن يكون من ذى صفة فضلا عن المصلحة .. فالصفة هى الشرط الأساسى للادعاء والتشكى .. ولا محل للحديث عن المصلحة فى الدعوى إذا كانت ممن لا صفة له !!

تذكرت هذه القاعدة وأنا أقرأ فى صحف الأربعاء ١٩ / ٨ أن منظمات إسرائيلية ، وأخرى يهودية أمريكية ، تشكو مصر إلى «اليونسكو» بتهمة إهمال «ابن ميمون» والمعبد المسمى باسمه فى حارة اليهود بالقاهرة ، وواكب الشكوى تغطيات لإذاعة «عاروتس شيفع» الإسرائيلية لما أجراه الباحث الإسرائيلى أيضا : رونى كوهين عن حالة المعبد ، زاعما أن الحكومة المصرية لا تقوم برعاية المعابد اليهودية وتتجاهل ترميمها !

ولا صفة لإسرائيل أو منظماتها أو باحثيها أو إذاعتها فى الادعاء أو التشكى بشأن موسى بن ميمون .. فهو ابن الحضارة العربية بغض النظر عن ديانتة اليهودية ، وقد كتبت عنه ، كما كتب غيرى ، عدة مرات .. للإذاعة وفى مقالات وفى كتب .. منها : كتاب الأديان والزمن والناس ، وكتاب عالمية الإسلام .. وأتت وتأتى هذه الكتابات المهمة فى مصر بابن ميمون ، بوصفه ابن الحضارة العربية دون ما نظر إلى ديانتة اليهودية ، فقد

(*) المال ٢٧ / ٨ / ٢٠٠٩

ضمت هذه الحضارة مسلمين ومسيحيين ويهودا وغيرهم من أبناء الملل والنحل والديانات ، دون ما تفرقة لجنس أو عرق أو دين أو نحلة !

فحديث إسرائيل ومنظمتها ، وشكواها إلى اليونسكو أو غيرها ، هو من غير ذى صفة ، ولا تعطيها هذه الصفة مجرد «يهودية» ديانة موسى بن ميمون .. هذه الدعوات الجانحة لإسرائيل ومنظمتها سوف تجر العالم إلى ويلات الانحصار في الديانات والأعراق .. لا توجد دولة في العالم تختص بالصفة في الحديث عن الإسلام ، أو المسيحية ، أو البوذية ، أو الكونفوشية .. صفة الدول مقصورة على مواطنيها وعلى أرضها ومياهها وأجوائها .. ولا صفة لها خارج مواطنيها مهما كانت ديانة الأجنبي متفقة مع ديانة الأغلبية فيها .. ولم نر دولة تقدم شكاوى أو ترفع دعاوى باسم الإسلام أو المسيحية .. هذا والتشكى الإسرائيلي إلى اليونسكو بالذات ، لا يخلو أيضا من الغرض والابتزاز .. وانتهاز فرصة ترشيح وزير مصرى لرئاستها للضغط بهذه الورقة .. غير مبالية بإقحام العرقيات الدينية على عالم صار يتنادى الآن بتقديم المواطنة على ما عداها !

لم يكن موسى بن ميمون عالما ولا طبيا ولا حكيما في إسرائيل بنت الخمسين عامًا في سلب الأوطان والتفريغ والإبادة !. عاش ابن ميمون على الأرض العربية ، ونشأ وترعرع وعاش وتأثر وأثر وأخذ وأعطى في ظل الحضارة العربية التى ضمته واحتوته كما ضمت واحتوت غيره من كل الأديان . فما هى إذن صفة إسرائيل ومنظمتها فى التشكى إلى اليونسكو أو غيرها بشأن عالم عربى ولد ونشأ وعاش عربيا ، وفى شأن معبد مصرى على الأرض الوطنية للدولة المصرية !!؟

الغريب المدهش أن التغطية الصحفية دلت ومن مصادر موثقة ، على أن قطاع المشروعات بالمجلس الأعلى للآثار ، قائم بالفعل ومنذ ثمانية أشهر بتنفيذ مشروع لترميم معبد ابن ميمون بتكلفة (٨,٥) مليون جنيه ، ومن المقرر انتهاءه في يونيو المقبل ، وأن رئيسة الطائفة اليهودية في مصر وهى هنا صاحبة صفة لأنها مصرية عبرت عن شكرها للمجلس على اهتمامه بالآثار والمعابد اليهودية ، ومنها الترميمات الجارية فى (١١) أثرا يهوديا ، تم منها إنجاز ترميمات المعبد الكائن بشارع عدلى يكن بوسط القاهرة ، ومعبد ابن عزرا بمصر القديمة .

الحفاظ على الآثار المصرية ، غاية مصرية لا تنصرف إلى ديانة دون أخرى .. والإسرائيليون الذين يبتزون بهذه الشكاية المغلوطة يتجاهلون أن الآثار الفرعونية وهى غير إسلامية أو مسيحية حظيت وتحظى بجانب كبير من اهتمامات ونفقات الإدارة المصرية ، شأنها شأن الآثار الإسلامية والقبطية ، باعتبار هذه الآثار جميعها لمصر الوطن الذى اتسع لجميع مواطنيه ، مهما كانت ديانتهم ومللهم ونحلهم وطوائفهم !

تأبى إسرائيل إلا أن تدس أنفها فى كل شىء ، وأن تدعى لنفسها وصاية عالمية تفرض على الأوطان ، بذريعة أنها الوصية على الديانة اليهودية وما يتعلق بأعراقها وجماعاتها وآثارها .. والذين يفتحون الصدور والأبواب لليهودية إسرائيل ، لا يدركون أنهم بالوعى وبالللا وعى يكرسون لهذه الوصاية المصطنعة الضريرة التى ستعثر النظام العالمى ، وسوف تضرب أيضا إسرائيل من داخلها وهى تظن أنها بما تفعله تحسن صنعا !!!

من

تراب (٣١٩) هل عرفنا عدونا؟! (*)

الطريق

يتزايد الإلحاح ، هذه الأيام الموصولة مع سابقتها ، على زرع وافترض العداء بين مصر والدول العربية من ناحية ، وبين إيران من ناحية أخرى ، وإدخال العرب بعامة في صراع مع الدولة الإيرانية ، بقالة إنها خطر فارسى نووى يجب التصدى له ، ثم جعلت الإدارة الأمريكية ومعها إسرائيل ، تطلق بالونات اختبار عن أن الخطر النووى الإيرانى ، والأطماع الفارسية في الخليج العربى ، يستوجبان التضامن وتكوين جبهة واحدة مع إسرائيل وأمريكا ضد إيران !

دعنا من تجاهل هذه الدعوة الغربية للترسانة النووية الإسرائيلية . واعتسافها أن مجرد التخصيب الإيرانى يشكل سلاحًا وخصراً نووياً حالاً وقائماً ، فالأغرب هو افتراض أن هذا الخطر موجه إلى الدول العربية على وجه الخصوص واللزوم ، وأن ذلك ينبغى أن ينتفض له العرب ، وأن يشكلوا مع إسرائيل هكذا ! وأمريكا ، مظلة دفاعية ضد إيران !

مقتضيات هذه المظلة الإسرائيركية العربية التى طفق الإعلام الأمريكى يبشر ويدعو لها بإلحاح ، أن تفتح المنطقة العربية أحضانها لإسرائيل ، وأن يتشارك الخليج العربى مع إسرائيل في تخزين أسلحة نووية إسرائيركية ! في دول الخليج ، فضلاً عن القواعد الأمريكية الموجودة فعلاً هناك !!

(*) المال ٢٠٠٩ / ٨ / ٣١

اختارت الدعوة الإسرائيلية زيارة الرئيس المصري لواشنطن ، ليطلق الإعلام وأعضاء الكونجرس تبشير هذه الدعوة التى لا غناء عن الاستجابة لها لحماية العرب من الهجوم الإيراني المنتظر عليهم ! .. وكشف كاتب حكومى مصرى عن أن (٢٠٠) عضو بالكونجرس الأمريكى بعثوا فى ٢٠٠٩ / ٧ / ٣١ برسالة خطية إلى خادم الحرمين الشريفين تعتب على خيبة الآمال فى رد الفعل السعودى على دعوة الرئيس أوباما التى أطلقتها من القاهرة ، فى وقت تزايدت فيه التصريحات الأمريكية الرسمية عن وجوب الإسراع والآن بالتطبيع مع إسرائيل ، وسرب ذات الكاتب الحكومى المصرى أن الرئيس الأمريكى دخل شخصيا حلبة الدعوة للتطبيع ، وأنه أرسل بنفسه خطابات مماثلة لرسالة أعضاء الكونجرس ، إلى قيادات الدول الخليجية .. يحثها على وجوب اتخاذ قرارات وخطوات شجاعة تتوج بمبادرات عملية للتقارب مع إسرائيل وبناء جسور الثقة هكذا ! التى تساعد على دفع عملية السلام !

تقول التحليلات أن الدعوة الإسرائيلية المتخفية وراء أمريكا ظاهرا ، هى حيلة لفرض التطبيع بأسلوب غير مباشر ، فليس هناك تطبيع أقوى وأرسخ من الدخول فى جبهة أى تحالف عسكرى لما يسمى مظلة دفاعية أمريكية تشارك فيها إسرائيل ضد إيران ، فمستلزمات الجبهة ، فضلا عن القواعد الموجودة والتى سوف تستجد ، والتخزين النووى الإسرائيكي بالخليج ، يقتضى ما يسمى فى الإطار العسكرى «تنظيم التعاون» .. وهى مادة تدرس فى كل الكليات والمعاهد العسكرية بالعالم كله .. هذا التنظيم للتعاون يقتضى التلامس المادى والمعنوى ، والاتصالات والتنسيقات ، وتبادل المعلومات ، والتشارك فى وضع وتنفيذ الخطط

العسكرية والسياسية ، ويغرق العالم العربى فيما يجاوز التصبيع إلى تحالف مع إسرائيل التى لا تزال تحتل الأراضى العربية وتعيث فيها نسفا وتدميرا وتجريفا وإبادة ، وتمضى بلا مبالاة فى إقامة المستوطنات ، وتغيير معالم القدس العربية والصفة الغربية ، واستكمال ابتلاع كل فلسطين ، فضلا عن الجولان السورية !

الأغرب أن يكون هذا التحالف الإسرائيكي المراد جزر العرب إليه ، موجها ضد إيران .. قد تكون الإدارة الإيرانية أخطأت الأسلوب والتقدير فى شأن بعض القضايا ، أو فى شأن قضية خلية حزب الله المفتوحة الآن فى مصر ، ولا أحب الخوض فيها مادامت معروضة على القضاء ، إلا أن القدر الواضح المتفق عليه أن الغاية كانت دعم المقاومة الفلسطينية فى مواجهة التغول الإسرائيلى ، وأن كل المستهدف كان أهدافا إسرائيلية ، ولم يكن ضرب مصر أو قلب نظامها .. وهذا وإن تضمن فى سعيه إلى غايته تجاوزا للسيادة المصرية وتداعيات أمنية ، إلا أنه لا يعنى أن مصر وإيران عدوتان .. فالقواسم المشتركة أكبر وأعرض بكثير من هنة هناك أو هنا ، أو من صورة معلقة أو فيلم أو اسم لميدان فى طهران !

نقاط الاختلاف لا تبرر هدم وحرق جميع الجسور مع إيران التى يمكن أن تشكل بعدا استراتيجيا للعرب بعامه ، ومن الحماقة الشديدة أن يستدرج العرب إلى عداء ومواجهة فى حلف إسرائيكي ضد إيران ! ليست إيران هى العدو للعرب ، العدو الحقيقى واضح ومعروف ، وإصلاح العلاقات العربية الإيرانية أقرب وأجدى للعرب وإيران من الوقوع فى برائن المخطط الخبيث الذى يضع العرب فى غير الجانب الصحيح !!

من تراب (٣٢٠) إيش تطلبى يا نفسى؟! (*) الطريق

كلما دهمتني الأحزان ، أو راودتنى الرغبة فى التأمل ، أو تطلعت إلى الأشواق ، تناولت رباعيات شاعرنا الفنان العبقرى الفذ صلاح جاهين. اليوم تناولتها فجرت عيناى عفوا بلا ترتيب مقصود على رباعية فيها يقول :

إيش تطلبى يا نفسى فوق كل ده حظك بيضحك وانتى متنكده
ردت قالت لى النفس : قول للبشر ما يبصوليش بعيون حزينه كده
عجبنى !

تأملت فى دنياى ، جريا وراء صلاح جاهين ، فوجدت أنها أعطتنى حياة حافلة رضية بها كل ما تمنيته وزيادة ، ومع ذلك لا يفارقنى حزن دفين ، الغريب أننى لا أشكو من هم شخصى ، وأتقبل ما يصادفنى من معضلات أو إخفاقات أو مشاكل أو صدود أو خيانات بفهم مدرك لطبيعة الحياة ، وطبيعة الناس .. فالإنسان هلوع يجزع للشر ومنوع للخير ، وفيه قال القرآن المجيد : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ [المعارج: ١٩-٢١] .. وأعرف مما دلنا عليه القرآن أن النفوس مفطورة على الخير والشر : ﴿ وَفَقِيرٌ وَمَا سَوَّاهَا ۝ ٧ فَأَفْهَمَهَا فُجُورَهَا

(*) المال ١/٩/٢٠٠٩

وَتَقْوَنَهَا﴾ [الشمس: ٧] وأعرف أن الخيانة وقلة الوفاء واردة لا غرابة أن يتردى فيها آدمى ، حتى قالوا في الحكم والأمثال : «إن أنت أكرمت الكريم ملكته ، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا» !! .. كل ذلك لا غرابة ولا مفاجأة فيه .. ألم يقل القرآن الحكيم : ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَفْرَهُ ﴾ [عبس: ١٧] !

لعلّى ببصيص من الحكمة أدرك هذا كله ، ولا أتوقع كثيرا من الناس تُحمد عاقبته ولو بعد طول انتظار ، فلا أتوقع الخير لزما . ولا آمن الشر أو الخيانة دواما ، ويملؤنى رضاء محمود عن النفس عملا بحكمة أن قيمتك فى نفسك ، وبواعثك أخرى بالعناية من غاياتك أو مرادك !

فلماذا هذا الحزن الدفين ، ولماذا يقول جاهين لنفسه : «حظك بيضحك وائتى متنكدة» !!

هل صحيح ما يورى به ختام الرباعية ، أن الحزن صدى عام متفاعل من عيون تبادلت النظر والانفعال بالأحزان .. ظنى أن الحزن صار كامنا فى نفوس المصريين .. لست الحزين الوحيد ! . مالك البيت يعتريه هم وحزن مقيم حين يحس بأن داره قد سُلبت منه ، وبأنه بات غريبا فيها ، لا يحس بإحساس صاحب الدار ، ولا بحقه ولا بحريته وإرادته وقدرته على أن يتمتع بكيئوته ويمارس حقوقه فيها !

المشاهد الجارية فى مصر فصلت فصلا يكاد يكون تاما ، بين المتصرفين المهيمنين المسيطرين على زمام الأمور ، وبين جمهور المشاهدين الذى لم يعد له حول ولا قوة فيما يراه يجرى فى بيته أقصد وطنه .. دون أن يكون له وزن أو رأى أو دور فيما يصير ويتراكم ولا يرتضيه الناس !!

لا أدري هل الحل أن أقاطع الصحف ووسائل البث المرئي والمسموع
لأعزل نفسي عن المشاهد الموجهة التي جعلت تتراكم كل يوم دون
حل ، بل دون أن يأبه بها أحد يفكر ويزن ويدرك أن جريان الأمور على
هذا الحال سوف يكون من المُحال ؟!

حتى احتفالاتنا بالشهر الكريم ، جمحت بعيدا عن روحه وعن كل
معانيه ، وصارت سوقًا لكل أنواع اللغو والتفاهة ، ومجالا للتسابق في
سفاهات ما عاد العاقل قادرًا على متابعتها أو السكوت عنها دون أن
ينشق الصدر !

وجدتني أعود إلى جاهين .. لم أعد أستطيع أن أقتلع نفسي من
الأحزان التي صارت إليها الأحوال في بلادى !!

من

تراب (٣٢١)

الطريق

وجيعة

الهجوم على الضبعة (*)

لا بأس أن أعيد هنا النداء الذى أطلقه الصديق مكرم محمد أحمد فى عموده بأهرام ٨ / ٢٦ .. يذكر والحسرة تملؤه أنه كان أول من نبه من أكثر من عامين إلى الأطماع المتزايدة التى اشترأت من بعض رجال الأعمال المصرين الذين حلا فى أعينهم موضع مشروع المحطة النووية بالضبعة ، وهو مشروع تأخر كثيرا حتى اكتملت له كل الدراسات والحسابات بمشاركة خبراء دوليين ، وانتهت إلى أن الضبعة «موقع مثالى بل هى أصلح المواقع فى مصر المحروسة التى صارت غير محروسة !! لبناء أربع محطات نووية متجاورة !

لم يشفع للموقع الذى حلا فى عيون الأغنياء ، غايته العظمى لخدمة المصالح العليا للوطن ، ولا ارعوى أحد بأن رئيس الجمهورية أصدر بالفعل قرارًا بتخصيص المكان لبناء أول محطة نووية (سلمية) فى مصر ، ولم يبال أحد من الذين تفنجلت عيونهم على الموقع بأن المحطات النووية بدأت بالفعل فى تجهيز البنية الأساسية للموقع ، وأنفقت أكثر من ٨٠٠ مليون جنيه تجاوز المليار بسعر اليوم فى إعداد الطرق ومد شبكة الكهرباء إلى الموقع ، وإقامة عدد من محطات الرصد

(*) المال ٢/٩/٢٠٠٩

التي تقيس قوة الرياح وسرعة المد والجزر على ساحل البحر وطبيعة التيارات البحرية وحجم الهزات الأرضية وغير ذلك من لوازم هذا المشروع الكبير الذى تطلعت إليه وإلى خيراتہ المنتظرة عيون المصريين ! حلا الموقع فى عيون السراة والأغنياء ، المالكين للثروة والنفوذ ، وانطلقت أحلامهم إلى مشروع سياحى يضم عددًا من الفنادق والقرى السياحية ، ولم يضيعوا وقتًا فى محاصرة وإجهاض المشروع النووى ، فأجروا بمعرفتهم دراسة جدوى يتساندون إليها فى إحلال مشروعهم السياحى محل المشروع النووى ، مع أن القاعدة القانونية والمنطقية أنه لا يجوز للشخص الطبيعى أو المعنوى أن يتخذ من عمل نفسه لنفسه حجة يحتج به على الغير !!

ومع ذلك هب أن جدوى ومكاسب وأرباح مشروعهم السياحى تفوق العائد الظاهرى للمحطة النووية إلا أن أمور المشروعات القومية لا تقوّم ولا تقام بمعايير الكسب الذى يغرى أو يشبع نهم أصحاب الأعمال . المشروع النووى قومى لا محل لقياس جدواه بحساب الكسب أو الربح ، لأنه يجاوز الكسب بلغة المال إلى تحقيق الأمن القومى والمصالح الوطنية التى تنعكس فى النهاية على البلاد بخيرات لا تحسب بالحسابات الصغيرة التى أجراها ويجريها مجموعة رجال الأعمال أصحاب المال والنفوذ والسلطان !

ما يلوح به رجال الأعمال الذين اجتروا بعض رجالهم من أسبوع على محارم الموقع ، فغزوه تحت أستار الليل ، لا يدركون أن حساباتهم وهى أيا كانت ربحية شخصية ، لا يجوز أن تقارن بالإنجاز الضخم لأمن مصر

القومى ومصالحها العليا بهذا المشروع النووى الذى يحبى آمالا عريضة
فى كافة المجالات الزراعية والصناعية والاقتصادية !

أخطر الخطر يأتى مما يجرى وراء الكواليس والأستار ، سواء بالضغط
على الصغار ، أو بافتعال مخاطر سبق عمل كل حساباتها وانتهت إلى تحقيق
كل معاملات الأمان فى بناء المحطة النووية . الأمان الوحيد الذى لم
تعمل الدراسات حسابه ، هو حماية وتأمين أرض الموقع من أطماع رجال
الأعمال والمال والنفوذ الذين حلا فى أعينهم موقع المشروع ، فوثبوا بكل
إمكانات المال والنفوذ والسلطة سعيا لإجهاض المشروع أو نقله لمكان
آخر ، ليصفو لهم مشروعهم السياحى بفنادقه وقراه السياحية فى الضبعة
التى كانت أمامهم من عشرات السنين قبل أن تتفنج عيونهم الآن على
اقتناصها من مشروع مصر النووى !!

يبدو أن المال فى بر مصر ، لم يعد بمستطاع أحد أن يوقفه ، فإذا حاول
جرفه نيار لا قبل للأسوياء المخلصين المحيين لمصر على مواجهته ناهيك
عن مقاومته ومنعه !!

من

تراب (٣٢٢)

الطريق

دعاء (*)

باسمك اللهم .. نستقبل بالإيمان ، والنقاء ، والعزيمة هذا الصباح ..
وكل صباح .. نستله يا ربنا بوفاء حقك إليك .. نذكرك اللهم بعظمتك
التي تبدو في أركان هذا الكون .. كونك .. وبوحدانيتك التي ينطق بها
هذا النسق الواحد في كل ما خلقت .. وأبدعت .. نُصلي يا ربنا إليك ..
أداءً لحقك .. وَتَبْتَلاَ إِلَيْكَ .. وَتَبَرُّكََا بِكَ .. وَطَلَبًا لِرِضَاكَ .. ثم نبدأ في
يومنا السعي ..

باسمك اللهم .. نتشر في ربوع الأرض .. نطلب الرزق الحلال ..
وأنت سبحانك واهب الأرزاق .. فبارك اللهم انتشارنا .. وسعينا ..
وكدنا .. وَتَوَجَّ بِفَضْلِكَ عَمَلْنَا .. وَطَيَّبْ لَنَا أَرْزَاقَنَا .. يا وهاب .. يا
رزاق .. يا فتاح .. أنت سبحانك القابض .. وأنت الباسط .. أنت
سبحانك الخافض .. وأنت الرافع .. أنت سبحانك المذل .. وأنت
المُعز .. فهبنا اللهم من فضلك وارزقنا من خيرك .. يا فتاح .. وابسط لنا
يارب العالمين في كسبنا ، وارفعنا يا مُعز .. يا سميع .. يا بصير ...

(*) المال ٣/٩/٢٠٠٩

يقول إمام العاملين عليه الصلاة والسلام : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَخْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا ،
فَيَسْأَلَهُ ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ » !

باسمك اللهم .. نصنع الحياة .. حياتنا .. بكдна .. نطلب الرزق ..
رزقنا .. بعرقنا .. نستنفر فينا الهمم .. ونقتل السواعد .. ونبدأ رحلة
يومنا بعزم الرجال ، وصدق الشرفاء ..

باسمك اللهم .. نطلب بسعينا معاشنا .. ونحفظ بكдна وعملنا
كرامتنا .. لا نسأل أحدًا أعطانا أو منعنا .. بل نجتمع بأيدينا كَسْبَنَا ..
فأنت سبحانه قد جعلت لنا النهار معاشًا .. وجعلت لنا في الأرض
رزقًا وفضلًا .. وأمرتنا يا ربنا أن نمشي في مناكبها .. ونسعى ...

اللهم امنحنا صبرًا في الشدة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمع به الحمية ..
صبرًا نحتمل به الصعاب ، ونغفر الهنات والإساءات ، ونصفح عَمَنَ
إلينا أساء .. نكون كما أمرتنا : من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض
هونا ، وإذا خاطبنا الجاهلون قلنا سلاما !

اللهم .. امنحنا العزيمة ل نكون في عملنا كما أمرتنا .. واجعل كسبنا
ثمرة سواعدنا ، فأفضل الكسب كما أخبرنا المصطفى عليه الصلاة
والسلام كسب الرجل بيده .. كان عليه السلام يقول .. من أمسى كالأ
من عمل يده ، أمسى مغفورًا له .. وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل
يده .. اللهم فسدد خطواتنا ووقفنا في أعمالنا ، وطيب لنا أرزاقنا ..
وبارك اللهم لنا في معاشنا .. ولا تُزِلْ عنا رضاك ونعمتك .. يا وهاب ..
يا رزاق .. يا فتاح .. يا سميع .. يا بصير ...

من

تسراب (٣٢٣) الإقطاع المصري الجديد ! (*)

الطريق

قد يبدو هذا العنوان عجيبا مدهشا ، ألم تقم ثورة يوليو للقضاء وقد قضت على الإقطاع ؟! ألم تصدر قانون تحديد الملكية الزراعية واستولت على كل ما يجاوز مائتي فدان من ممتلكات المصريين ، إقطاعيين فعلا أو ملحقين اسما بالإقطاع ما دامت ملكية الواحد منهم تتجاوز هذه المساحة ؟ لو عدنا إلى تعريف الإقطاع ، وتجاوزنا فقط عن ضرورة ارتباطه بالأرض التي صار يمكن أن يكون لها بدائل موازية ، لتذكرنا أن جوهر الإقطاع قائم على تقسيم الأرض (ويمكن أن نضع في مقابلها . بلغة اليوم تقسيم الثروة) ، الداخلة في وحدات اقتصادية كبيرة إلى أجزاء صغيرة يقوم الفلاحون (ويمكن أن نضع في مقابلهم بلغة العصر : العمال والأجراء وأشباههم) .. يقومون بزراعتها (أو العمل فيها أو فيما يوازيها) لحساب مالك الوحدة الكبرى ، في مقابل أن يحصلوا هؤلاء الزراع أو العمال أو الأجراء على حد الكفاف ، بينما ينقسم الإقطاعيون ، وَصَّعَ في مقابلهم بلغة اليوم : «أصحاب الثروات» ينقسمون تقسيما هرميا تبعا لمقدار الملكية التي هي في النهاية مقدار الثروة تبعا لقيمتها بحساب المال ، وهو تقسيم جوهره «الميراث» الذي يحل فيه الخلف محل السلف

(*) المال ٧/٩/٢٠٠٩

فى الثروة ، وهو ذاته ما ىجرى فى الحكم الذى تسلل إرث السلطة فیه إلى الجمهوریات الجديدة التى صارت موازية فى العالم الثالث للملكیات القديمة التى استبدلت مع استبدال الإقطاع ، لتحل إقطاعیات الثروات بعمامة محل الإقطاع الزراعى بخاصة ، وتحل الجمهوریات الوراثة الجديدة ، محل الملكیات الوراثة القديمة !!

لو تأملنا فى الحال المصرى الآن ، لوُجدنا أن المجتمع طفق يفرض إقطاعیات اقتصادية ضخمة جدا يملكها آحاد ، وأن هذه الإقطاعیات لم تعد مقصورة على الثروات بأنواعها الموازية للأرض ، بل هى قد عادت فامتدت إلى الأرض ذاتها ، فهى وإن لم تأخذ شكل الإقطاع التقليدى القديم ، إلا أنها أقطعت أفرادًا وخلافًا لقانون تحديد ملكية الأرضى الذى عاد فهجر هجرًا غير جميل ! مساحات شاسعة تحت تعلقة الاستزراع أو الاستصلاح الزراعى تارة ، وتحت عنوان المشروعات والقرى السياحية تارة ، وفى القليل تحت عنوان المناطق الصناعية !

الجديد فى الإقطاع الجديد الذى عاد فدخل من النافذة بعد أن كانت الثورة قد أخرجته من الباب ، أن المالك فى الإقطاع الجديد أى صاحب «أبعادية» الثروة بعمامة ، لم يعد مسئولًا عن العمال والأجراء بعمامة ، مثلما كان الإقطاعى القديم مسئولًا عن حماية رقيق الأرض فى إقطاعيته !! مع تمحور وتركز الثروات الجارى الآن على قدم وساق فى بر مصر ، تحول عامة المصرين إلى ما يشبه رقيق الأرض ، والفارق الوحيد هو فى المسمیات ، فالرق معنى قابل للحدوث فى حال المعدمين والمهمشين ،

وأيضاً في حال العمال والأجراء العاملين في الإقطاعيات الاقتصادية الجديدة التي لا يُلْقَى إليهم منها .. إلى الرقيق المصرى الجديد إلا ما يقابل أو يزيد قليلاً حسب الأحوال ! عن حد الكفاف ، دون أن يتمتع أحد منهم بالحماية التي كان يسبغها الإقطاعى القديم على رقيق أرضه !!

الغريب هنا الهجران الصارخ لقانون تحديد ملكية الأراضي .. فالإقطاعيات الجديدة التي تمنحها الدولة ، لم تعد تبالي بهذا القانون ، وصارت تعطى مساحات بآلاف الأفدنة ، في توشكى وشرق التفريعة والمناطق المتميزة حول الطرق الصحراوية وغيرها ، بتعلة الاستزراع أو الاستصلاح الزراعى ، دون أن يسأل أحد نفسه ثم ماذا بعد إذا زرعت الأرض وأنبتت من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، هل يلتزم ملاك هذه الإقطاعيات المؤلفة من آلاف الأفدنة بتوزيع ما امتلكوه احتراماً أو نزولاً على حكم قانون تحديد ملكية الأراضي الذى كان من أسباب قيام الثورة !

عدوى التوريث انتقلت من الإقطاع القديم إلى الإقطاع المصرى الجديد ، ومن الملكية البائدة إلى الجمهورية الجديدة ، ودعنا من المسميات ، لأن التهيئة المترسة بالسلطة ، والتي لا قبل بمقاومتها ، هى فرض موازٍ للتوريث أيا كانت سيناريوهات الإخراج !

أيها السادة .. إن الإقطاع المصرى الجديد ، فى المال وفى السلطة ، جارٍ على قدم وساق ، حيث يتمحور ويتمركز المال والسلطة ، ويتحول المصريون إلى أرتال من الأجراء والمعدمين والمهمشين !!!

فلماذا إذن كانت الثورة ؟!!

من تراب (٣٢٤) من الجاني؟!!! (*) الطريق

فَجَرَ الصديق العزيز الأستاذ الكبير محسن محمد .. فَجَرَ بمقاله بالجمهورية الخميس ٣/٩/٢٠٠٩ قضية المسئولية عن رى المزروعات : الفواكه والخضروات ، بمياه المجارى ، وما تسبب فيه ذلك من أمراض لا تقتصر على السرطان الذى أشار إليه ، وإنما تمتد إلى التيفود والفشل الكلوى ، غير ما سوف يستجد اكتشافه من تعاطينا هذه السموم !

والأستاذ الصديق الكبير يتساءل من فرط الوجيعه ، لماذا لا تتم محاكمة المزارعين الذين ربوا مزروعات أراضيههم بهذه المياه ، ومحاكمة الذين قاموا بتسويق هذه المحاصيل ، والذين باعوها !

وهذا رد فعل طبيعى لحجم المصيبة ، ولكنى مضطر على مضض لتخيب أمل صديقى الكاتب الكبير .. فالقاعدة الدستورية ، ونسُميها نحن رجال القانون : مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات ، تقضى بأنه لا جريمة ولا عقوبة إلاَّ بنص سابق على وقوعها ، يحدد الجريمة وأركانها وعناصرها ويضع لها عقوبتها !

والأزمة إذن أن الحكومة لم تستصدر سلفا وحتى الآن قانونا يجرم ويعاقب على الرى بمياه المجارى ، وهى لو شمرت عن ساعدها

(*) المال ٨/٩/٢٠٠٩

وأصدرته اليوم ، فلا سبيل لمحاكمة المزارعين والمسوقين والبائعين الذين
زرعوا أو سوقوا أو باعوا قبل صدور القانون .. هذا إن صدر !
وقد مضيت باحثاً عن نصوص قانونية يمكن أن تجرم تجريباً رادعاً
هذا الري بمياه الصرف أو المجارى ، فلم أجد إلا المادة ٤٨ من قانون
الري والصرف ١٢ / ١٩٨٤ ، فوجدتها لا تحظر وإنما توجب فقط
الحصول على ترخيص من وزارة الري طبقاً للشروط التى تحددها
لاستخدام مياه المصارف لأغراض الري ، وعقوبة المخالفة هى فقط
الغرامة بين ٥٠ و ٢٠٠ جنيه !!

وواضح أن هذا النص الأعرج الكسيح ، لم يجرم الري بمياه المجارى ،
بينما الشائع لدى الفلاح أن الروث وما شابه يعطى مزيداً من الخصوبة
للأرض ، ولم يرشده أحد أن الري بمياه المجارى ضار بالصحة ، ولا
صدر قانون بمنعه أو العقاب عليه !!

وحاصل ذلك أن الحكومة لم تواجه الأمر ، ولم تصدر قانوناً يجرم
ويعاقب ويعقوبة رادعة على الري بمياه المجارى ، ولم تدبر للفلاح مصادر
الري التى يستطيع بها أن يستغنى عن مياه الصرف والمجارى ، والمساءلة
الآن تصطدم بأنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص سابق على وقوعها !!

فلماذا لم تصدر الحكومة هذا القانون ، الذى لا أظن أنه يمكنها أن
تصدره عما قريب . الجواب هو أنها هى التى أباحت الري بهذه المياه ،
ولعل لها ذريعة أو تعلقة من نضوب أو عدم كفاية المياه النظيفة فى بلد
النيل ؟!!! المهم أنها هى الفاعل .. هى التى دفعت رى المزروعات إلى
هذا الطريق ، دون أن تلتفت أو لعلها التفتت وطنشت إلى خطر ذلك

على الصحة العامة .. وهذه مسئولية تشارك في تحملها وزارات الزراعة والرى والصحة .. ومسئولية هذه الوزارات تضامنية مع الحكومة برمتها أخذًا بمبدأ المسئولية التضامنية للحكومة !!!

فأنت ترى إذن أن الجانى لم يكن الزراع أو الذين سوقوا وباعوا ، وإنما هى الحكومة التى أباحت وأتاحت وأمدت بدلا من أن تجرم ، فحرضت على ما كان يجب عليها منعه وتوفير بدائله ، وسكتت عن التجريم ، لأنه يرتد إليها ويعرى تقصيرها ، ولكن المفارقة الأضخم أن رجالها مؤمنون هم الآخرون من المساءلة الجنائية .. التزاما بذات مبدأ أنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص سابق على وقوعها !

يؤسفنى إذن أن أخيب أمل صديقى العزيز الكاتب الكبير الأستاذ محسن محمد .. فلا سبيل لمحاكمة الزراع أو المسوقين أو البائعين ، لأن أفعالهم غير مجرمة وحتى الآن ! فى نظر القانون ، وظنى كما قلت إنه ليس بمستطاع الحكومة ، رغم فداحة الكارثة ، أن تصدر فورًا الآن قانونا يجرم ويعاقب على الرى بهذه المياه ، لأن ذلك يوجب عليها ابتداء أن تدبر وصول مياه رى نظيفة إلى الحقول والمزارع ، وهو ما يبدو أن وزارتى الزراعة والرى لم تدبرا بعد ما يكفله !!

المفارقة أن مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات ، لا يحول فقط دون محاكمة وعقاب الزراع والمسوقين والبائعين ، وإنما يحول أيضا دون مساءلة موظفى هذه الوزارات جنائيا ، وأقصى ما يمكن المساءلة عنه هو المسئولية الوزارية ، وهى مسئولية سياسية ، توجب استقالة أو إقالة

الوزير أو الوزراء الذين أخطأوا إدارة سياسة وزاراتهم ، فأباحوا أو
أتاحوا ، بدلاً من أن يجرموا ، رى مزروعات طعام البطون بمياه الصرف
والمجارى ، فتسببوا فى هذه الكوارث المتراكمة !

يقول الحاضر إن المسئولية الوزارية السياسية معطلة حتى إشعار
آخر، فلا استقالة الوزير من المألوفات أو المسموحات ، ولا إقالته من
السنن الجارية .. ليس أمامنا من أسف إلا أن نبتلع هذه المصائب غير
المجرمة للآن !!! كما ابتلعنا الخضروات والفواكه التى أصابتنا وتصيبنا
بالأمراض العضال التى عرفنا بعضها ، ولم نعرف بعد باقيها ! .. ولكننا
نعرف أننا مثّل فريد فى تواريخ وحاضر الأمم .. إننا نكاد نكون الأمة
الوحيدة التى تأكل ما تخرجه بطونها !!

فهل عرفنا لماذا ؟ إذن ؛ سوف تستمر لدينا وتتصاعد أنفلونزا
الخنزير ؟!!!

من تراب (٣٢٥) دعاء (*) الطريق

باسمك اللهم .. يا سلام يا قدوس نستنشق مع عير هذا الصبح
الوليد أنفاسنا .. نفص الخمول والكسل ، والغل والحسد ، ونفتح بالود
والصفاء صفحة قلوبنا .. ومهجتنا .. فعافنا اللهم في نفوسنا وأبداننا ،
وعافنا في أجسامنا ، وتوج بصحة النفس والبدن حياتنا ..

اللهم وهبنا راحة البال وسكينة الفؤاد .. واملاً بطمأنينة اليقين
حنايانا وجوانحننا .. ورغرف بسلام المحبة علينا وعلى إخواننا ، وقونا في
الحق على أعدائنا .. يارب ..

باسمك اللهم .. تَبَدَّلْ في يومنا لضعيفنا ومريضنا .. لضائقنا
ومكروبنا .. فهبنا اللهم القدرة لِنُسَرِّى عن الحَزَانِى ، ونعيد بسمة السعد
والإشراق إلى وجوه المهمومين والحزانى والمكروبين .. وساعدنا اللهم
على أن نكون عوناً للضعيف والمحتاج ، وتخفيفاً لألم المريض وأوجاع
النفوس التى أثقلتها الهموم والمتاعب والضائقات ..

اللهم واجعل رضا نفوسنا مدخلنا إلى كل خير نظرقه فى أى باب ..
واشدِّد اللهم أنظارنا وبصائرنا إلى مسالك البر والخير والمعروف ..
وارض يا كريم عنا ، وعما نتوخى به وجهك الكريم .. يا قدوس
يا سلام يا مهيمن .. تباركت يا ذا الجلال والإكرام ...

(*) المال ٩/٩/٢٠٠٩

باسمك اللهم .. نتحلى بفضيلة الوفاء .. نوفى بعهدك يا الله وبكل عهد، ونفى بكل حق وضعته سبحانه، أو وضعناه على كاهلنا .. فأعنا اللهم على الوفاء بما ألزمتنا أو التزمنا نحن به .. نحوك يا الله يا عزيز ونحو كل ما يجب علينا .. نحو بلدنا وتراب أرضنا .. نحو أهلنا وأحبابنا .. نحو واجباتنا ونحو أعمالنا .. واشدّد اللهم أزرننا في سعيينا، وتوج بالفلاح والنجاح جهودنا ..

سبحانك اللهم .. أنت المعز المذل .. تُعز من تشاء، وتُذل من تشاء .. بيدك الخير والملك، وأنت يا الله على كل شيء قادر وقدير ...

سبحانك اللهم أنت القائل في كتابك العزيز : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

باسمك اللهم نستعين .. فاهدنا الصراط المستقيم ، صراط المؤمنين والأبرار الصادقين .. اللهم وأقمنا بقدرتك على ما نحبه وترضاه سبحانه لنا وتقبله منا .. واشملنا يا ربنا بعينك التي لا تغفل ولا تنام ، وألحقنا في مثوبتك ورضوانك بالسابقين الأبرار الأولين .. وأغننا اللهم بقوتك من ضعفنا ، وبعزتك من هواننا ، وبهداك من ضلالة نفوسنا ووسوسة شياطيننا ، وأجرنا يا كريم برضاك من سخطك ، وبرحمتك من عذابك .. أنت سبحانه الهادي ، وأنت النور ، ولا هدى إلا بك ، وأنت يا الله نعم الهادي ونعم المولى والنصير ونعم الرحمن ونعم الرحيم ...

من

تراب (٣٢٦) المقبول وغير المقبول (*)

الطريق

كثيراً ما نستخدم تعبير المقبول وغير المقبول ، دون أن نعى معنى محدداً لأى من التعبيرين ، وهل هما فى إطار المطلق دائماً ، أم أنها يتصرفان فى بعض الأحوال إلى محيط مخصوص ؟

فإذا تساءلنا ما هو المقبول وما هو غير المقبول فى بيئة بعينها فى عصر بعينه ؟ فإننا لا يمكن أن نستقر على إجابة واحدة ، لأنه لا توجد بالفعل إجابة واحدة .. والسبب أن الجنس يختلف والعمر يختلف والتربية تختلف وكذلك المزاج والتكوين والذوق !

• وإذا كانت هذه العوامل تؤدى بعامة إلى اختلافات ، فإن بعضها يُعزى إلى أسباب خاصة بالمتعاملين أو المتلقين .. فالمقبول من الإناث عند الكافة ، ليس مقبولاً من الذكور عند الكافة ، فلا تقبل كل نفس طريقة الكلام والحركات والملبس والزينة ، أو تقبل نفس أسلوب المخاصمة والمصالحة أو المصادقة ، أو نفس الانفعالات من رضا وغضب وفرح وحزن ولذة وألم !

والمقبول عند الإناث من الإناث قد لا يُقبل من الذكور ، والمقبول بعامة عند الإناث قد لا يكون مقبولاً دائماً عند الذكور .. لأن الجنس

(*) المال ١٠/٩/٢٠٠٩

فارق طبيعى فى نظر الكافة يحدوهم إلى الموافقة فى مواضع وإلى المخالفة فى مواضع أخرى .

كذلك المقبول من الصغير أو المراهق .. ليس دائماً مقبولاً بمن هو أكبر فى السن أو أعرض فى التجربة والخبرة والفهم . والمقبول من ابن القرية أو البادية ، ليس مقبولاً دائماً من ابن الحضر الذى عاش وتعلم فيه أو تعاطى الحضارة فى المدن والعواصم .

والمقبول من حاد الطبع الضيق الصدر أو السطحى الذى لم يهذب ذوقه الاجتماعى أو الأدبى أو الفنى ، ليس مقبولاً دائماً من أصحاب الاعتدال وسعة العقل والأفق أو من ذوى الأذواق وأصحاب الإحساس الراقى والدمائة فى الخلق والسلوك .

ونحن نستعمل كلمة مقبول وعبرة غير مقبول بافتراض وجود «وحدة» أو معيار واحد لهذا الاختلاف بين كل منهما .. هذه الوحدة التى تضيق أو توسع دائرة المقبول وغير المقبول .. ونحن نفترض فى نفس الوقت أن من حقنا فى تعاملنا بعضنا مع بعض ، أن نصدر الحكم الصحيح بالمقبول والمرفوض .. وكثيراً ما نخطئ التقدير والحكم .. فتزيد بالخطأ فيه أسباب الاختلاف على ما هو مقبول أو غير مقبول فنضيف سبباً ذا طابع فردى شخصى يتأثر حتماً بعواطفنا ورغباتنا أو ادعاءاتنا أو نقص معلوماتنا !

هذا وإذا كانت الأسباب الأخرى تركز أصلاً على أساس من الأعراف والعادات المتوارثة معترف بها من البيئة والعصر اللذين نعيش

فيهما ، فإن ذلك لأنها غير مدونة أصلاً أو غير مدونة تدويناً ملزماً للناس ..
لذلك تتعرض للنزاع في حدودها وأحياناً للنزاع في وجودها نفسه ، وقد
يتخذ هذا النزاع شكل حركة من متعددين يشتركون في نفس الاتجاه أو
نفس الرأي .

من أجل ذلك كان «الاتفاق» مطلباً قد يكون صعباً أو بعيد المنال
في بعض الأحوال ، لأن تكوين الناس وأحوالهم وأهوائهم ومشاربهم
ورغابهم مختلفة أشد الاختلاف ، وتختلف تبعاً لذلك نظرتهم وحكمهم
على الأمور والمقبول وغير المقبول ، فإذا كان العرف المعتاد يقدم قاعدة
مقبولة في الأحوال العادية ، إلا أن اختلاف الدوافع والنوازع كثيراً ما
يؤدي إلى منازعات تتنوع شكلاً ومقداراً بحسب القدرة على صواب
الرؤية وتحكيم العقل !

من

تراب (٣٢٧) فويا أنفلونزا الخنازير! (*)

الطريق

أخطر ما استشرى الآن في بلادنا ، فويا أنفلونزا الخنازير .. فبعد أن ألقت بظلالها على الحج والعمرة ، وعلى الموالد وموائد الرحمن ، طفقت تلك معازل المدارس العامة والخاصة ، المصرية والأجنبية ، وتشيع تخبّطاً امتد إلى إرجاء الدراسة ذاتها ، وإلى أسلوب التعامل مع أتفه العوارض بمنطق هذه الفويا الذى أثار الذعر بين أولادنا وبناتنا ، وطفق يعكس آثاره على المجتمع بأسره !

العجيب أنه مع هذه الفويا التى جعلت تعطل كل شىء ، وتشر الاضطراب والبلبله فى كل مجال ، أن قنواتنا الإعلامية المقروءة والمرئية والمسموعة - تكاد تخلو تماما من تعريف علمى مبسط بأعراض الحالة ، والخطوات الصحيحة الواجب اتخاذها لمواجهة المرض إلى أن يتم تحديده والتعامل معه ، إمّا بالعلاج الواجب إن صح التشخيص ، أو باستبعاد الظن الذى سارع إلى الناس بفعل الفويا التى هزت وأصابت حياتنا !

تورى هذه الحالة ، بوجود «فصام» لم يتأمله أو يلتفت إليه أحد ، بين وزاراتنا وأجهزتنا ومراكزنا ومستشفياتنا المهتمة بالصحة العامة ، وبين أدوات الإنباء والإخبار التى انصرفت هى الأخرى عما يجب إلى ما يثير ..

(*) المال ١٤/٩/٢٠٠٩

ظنى أن الإثارة قد صارت في مقدمة اهتمامات الإلقاء والاستقبال !!
من الغريب أننا فقدنا الوعي الذى كان منذ أكثر من ستين عاما ..
لا زلت أذكر ، وكنا أيامها أطفالاً ، كيف تعاملت مصر وكافة أجهزتها
وإداراتها ومرافقها مع الكوليرا التى اجتاحت البلاد فى النصف الثانى
من أربعينيات القرن الماضى !

يبدو أننا جميعاً شخنا .. وأسوأ ما فى هذه الشيخوخة أنها وقعت
أسيرة لنحر الزمن من قوة وأداء أعضاء الجسد ، وفقدت - وهذا أسوأ -
ما تضيفه الشيخوخة من تجارب وخبرات وحكمة السنين والأعمار !
ماذا حدث لنا حتى بات التراجع هو السمт الغالب فى كل شىء ..
أليست أنفلونزا الخنازير مرضاً ، وأليس لهذا المرض أعراض ، وأليست
لهذه الأعراض علامات تشبه أحياناً بأعراض أمراض أخرى ، مما
يوجب التنبيه ولفت الأنظار إلى العرض الحقيقى - لا الخادع - الدال
على مقدمات المرض ؟! وأليس التعامل مع المقدمات ، يستوجب
التسلح بالمعرفة مع الفهم والاتزان وحسن التصرف ، وإعداد المراكز
والمستشفيات للاستقبال وفرز العرض الحقيقى من التشابهات التى قد
تنجم وتفاقم من ذات حالة الفوييا التى صورها لنا إعلام الإثارة أنها
كالطاعون - الذى أخافونا به قبل أن نكتشف أنه محض مخاوف سبق فيها
الظن وحل محل الفعل وامتزج برغبات الإثارة التى بدا وكأنها مستهدفة
لذاتها أو لما رب أخرى كما قال موسى عليه السلام عن عصاه التى كان
يهش بها على غنمه ، وله فيها مآرب أخرى !

لم تتعامل مصر الدولة تعاملًا حضاريًا ، لا مع أنفلونزا الطيور ، ولا مع أنفلونزا الخنازير ، وبدأ لى أحيانا أنها صارا للبعض كطوق النجاة الذى يصرف عن أشياء يرون أنه يلزم صرف الأنظار وتلهيتها عنها !
قالوا سلفا إن أم كلثوم ، وحمى كرة القدم ، كانا السبيل لتلهية الشعب عن الأزمات والبلايا .. وقد رحلت كوكب الشرق ، وحلت فرجة شاشات التليفزيون محمل ارتياد الملاعب ، فتغيرت حمى التجمعات التى صار تفاديا أحد ثوابت السياسة الأمنية فى بر مصر !

ألا تستدعى أنفلونزا الخنازير ، تعاملًا عاقلًا عارفًا ، يزن الأمور ، وي طرح سبل المواجهة من خلال سياسة صحية إدارية تكفل سلامة التشخيص بلا فوييا أو دعر أو فزع ، وتمهى أسباب العلاج فى ثقة وكفاءة ترد للمواطنين ولفلذاتنا بالمدارس الطمأنينة وتعيد الأمان الذى فقده مع شيوع المخاوف وتراجع العقل والاتزان ؟!

من

تراب (٣٢٨) الزبالة وقلة الحيلة ! (*)

الطريق

لم يعد في وسع أحد أن يسكت على الزبالة التي علت أكوامها فصارت جبلاً ملأت البلاد ولم تنج منها العاصمة ، بل صارت شاهداً فيها على خيبة مطبقة وإخفاق ذريع وعجز طفق يتزايد حتى تفجرت البثور وتقيحت ، وأمسّت عنواناً للقيح والدمامة ، ومرتعاً للقنطار والكلام الضالة ، وللزواحف والجراثيم ، وللأمراض التي باتت متوطنة متفشية في بر مصر !!

سمعت كلاماً كثيراً لم يقنعني ولا أظن أنه يقنع أحداً ، عن الشركات الأجنبية التي تعاقدت معها الإدارة المصرية هنا أو هناك .. ومن المسئول عن هذه الكارثة : الإدارة المتهمه بعدم الوفاء بالمستحقات في مواعيدها ، أم شركات النظافة الأجنبية التي أعطتها ظهرها بعد أن نالت بغيتها !! .. لا محل للدخول في هذه المناهات ، البيضة أم الدجاجة ، فالحكومة هي المسئولة في جميع الأحوال ، لأنها هي التي رأت وأبرمت وتعاقدت وتابعت !!

كان الظن أن تطهير الزبالة في بر مصر ، آخر ما يمكن أن تلجأ فيه الحكومة إلى الخبراء الأجانب ! .. قد نحتاج خبراء أجانب في الذرة ،

(*) المال ١٥/٩/٢٠٠٩

أو العلوم ، أو الهندسة ، أو الطب ، أو الصناعة ، أو الاقتصاد .. ولكن رفع القمامة ، والتصرف فيها بعد تصنيفها وتوزيعها تبعاً لأنواعها ، مهمة يتولاها ويحيدها الزبالون من قديم الأزل .. قد يحتاج عملهم إلى تنظيم وتطوير ، وهذا ضروري ، وقد يلزم الاستعانة وهذا ضروري أيضاً بإمكانيات أكبر وأكثر تقنية وكفاءة ومقدرة ، بيد أن هذا كله متاح وميسور في بر مصر !

لا أدري ، ولا يدري عاقل ، لماذا قعدت وتعدت الحكومة المصرية عن ضرب عصפורين بحجر واحد (!؟) .. أقصد حل مشكلتين أزليتين بتصرف واحد رشيد .. نحن نعاني من مشكلة «بطالة» مزمنة ، وتزايد هائل في أعداد العاطلين .. هؤلاء العاطلون يحتاجون إلى عمل ، وتدريب هذا العمل غاية اجتماعية واجبة لذاتها .. يقال في الأمثال : «اليد البطالة نجسة» !.. هذه البطالة هي التي تدفع إلى أحضان الإرهاب ، أو مباءات الرذيلة ، في الغُرْز والمواخير وترويج المخدرات ، وفي العشوائيات والحواري والأزقة ، وفي مقالب الزبالة ذاتها .. وتجنّب شبابنا هذه الجنوحات ، بتوفير فرص عمل لهم ولقمة حلال - غاية حميدة في ذاتها لأي حكومة رشيدة تدرك واجباتها إزاء مواطنيها !

هذا هو العصفور الأول ، أما العصفور الثاني ، بذات الحجر ، أو بذات القرار والتصرف ، فهو تخصيص فرص العمل في مجال النظافة وتطهير البلاد من القمامة والقاذورات .. وظنى أنه ليس عويصاً ، ولا هو من المستحيلات ، أن تنشئ الحكومة هيئة قومية للنظافة ، فعلاً لا اسماً ،

وأن تضع لها الهياكل التنظيمية ، والآليات الإدارية ، وتوفير لها المركبات والمعدات والآلات ، وتوظف فيها أرتال العاطلين الباحثين عن عمل ولقمة عيش شريفة .. هذه الهيئة إذا أرادت خبراء لرفع كفاءة الأداء ، فإن أمامها الخبراء المصريين لا الأجانب .. هؤلاء الذين رفعوا عنا الزبالة لعشرات بل لمئات السنين ، وصارت لديهم خبرة عريضة - رغم تواضع الإمكانيات - فى التعامل مع الزبالة جمعًا وتصنيفًا وتوزيعًا .. وليس على الإدارة المأمولة ، إلا أن تزواج بين هذه الخبرة التى دانت لهؤلاء على مدى السنين ، وبين الإمكانيات التى ستوفرها الدولة - مع فرص العمل - فى الهيئة المصرية لا الأجنبية للنظافة .. يومها ستظهر مصر من أكوام وجبال الزبالة ، بأيدى أبنائها ، ويتجمل وجهها بجهود إدارتها التى ليس عليها إلا أن تخرج بعقلها وفكرها من القمقم أو الزقاق وقلة الحيلة ، إلى باحة العقل والنضج وحسن تصريف الأمور !!

من

تراب (٣٢٩) إلام تقودنا الأطماع ؟! (*)

الطريق

لا مفرّ للعاقل من الإقرار بأن أطماعنا تقودنا أكثر من أى دافع آخر ،
والأطماع تعنى ما نشتهيه ونسعى إليه مما نتصور أنه يرضينا فى الحال أو فى
المآل . أما ما نشتهيه فقط دون أن نسعى إليه أى سعى فهو أمنية فقط !

و«الأطماع» فى عمومها - أعم بكثير - من كلمات الرضا والقربى
والذرية والإرث ، وكلمات الخير والعدل والحلال والحرام والصدق
والحق والرزق والنعم ، ومن كلمات العطايا والمواهب ، والاصطفاء
والاختيار ، والأمان والسلام ، والفوز والانتصار والتوفيق ، والذكر
والجاء والسلطة والقوة ، والولاء والأحباب والأتباع .

ولم يخل قلب لآدمى - حتى ولو كان قديسًا أو وليًا أو مقربًا - من
الأطماع فى عمومها .. لأنها فى عمومها لا تتعارض مع إخلاص المخلصين
ووفاء الأوفياء وصفاء قلوب سليمى القلب والسريرة .. فكل منا يطمع
فى صحة البدن والعقل .. وكل مؤمن يطمع فى الجنة ومرضاة الله التى
تؤهله للمغفرة والثبوة والإكرام .

والأطماع فيها عنصر الاحتمال والاستقبال .. حتى ولو كان موضوعها
قد تحقق ، ما دام العلم بحصوله لم يصل إلى من ينتظره .. كشأن الناجح

(*) المال ٢٠٠٩/٩/١٦

أو الفائز الذى لم تصله بعد نتيجة الامتحان التى تقرر وتعلن بعد أو تصل إلى علمه .. إذ لا ينقطع الاحتمال والشك إلا بيقين علمه بنتيجة الامتحان أو المسابقة . أما إن كان الموضوع مقطوعاً بتحقيقه أو باستحالته فإن الطمع فيه إما تحصيل حاصل أو حماقة وعيب !

وغلبة الأطماع على حياة آدمى ضرورة فرضتها كثرة الاحتمالات والمجاهيل والغيبات فى حياته الفردية والاجتماعية .. فهو من لحظة الإخصاب إلى أن يغادر الدنيا يتحسس طريقه الذى لا يعرفه بيقين .. ويحس ويخمن ويتأول ويخاطر ويغامر ويقامر ويخضع ويخضع ويسلم ويستسلم ، ثم ينتهى وهو صفر اليدين أو يكاد .. لا يترك إلا آثاراً ومأثورات لا تقطع باتجاه واحد ثابت .. ولا تلقن الآخرين سلوكاً بعينه يلتفتون إليه ويتفتعون به ولا يخالفونه .

أطماع آدمى لا تعرف منها نهاية بأطماع غيره من الحيوان والنبات .. وربما كان هذا وراء وحدة الاتجاه فى كل جنس ووحدة السلوك فى كل نوع .. ولعله وراء كثرة الأجناس وكثرة الأنواع كثرة هائلة لا يتصور معها إمكان وحدة أو توحيد كما قد يتصور مع الآدميين !!

ويبدو أن كثرة الاحتمالات والغيبات فى حياة آدمى ، قد حُسِبَ حساب مواجهتها والتعايش معها - ضمن تكوين المخ آدمى والوعى والفهم والذاكرة والمخيلة والعواطف المركبة والمعقدة .

وهذا المخ هو الوحدة الحقيقية للجنس البشرى التى تجمعهم لتفرقه وتفرقه لتجمعه هكذا دواليك .. ولا يشاركه فى تلك الخاصية الفذة

الهائلة أى مخلوق آخر .. فأطعم الإنسان أيًا كان وأيًا كان موقعه وعصره - ثمار نخه وفهمه .. قابلة لأن يقومها أو يفسدها ويضلها نخه وفهمه .. أيًا كان زمانه ومكانه وجنسه ولونه ودينه ولغته .

وربما اختصر ترقى الوعى والفهم الكثير من أطعم الآدمى البدائى .. خاصة ما اعتمد منها على فورة الغضب والشبق والجشع .. أو ما اعتمد على فرط الثقة فى جدوى العنف والتهيه بالقوة البدنية واستخدامها فى إذلال النساء والأطفال والضعاف وأصحاب العاهات والأغراب .. لكن الترقى زاد رغم هذا فى أطعمنا المتحضرة التى جعلت سلامنا حربا مستورة ، وأمننا خوفا وتأمينا ، وصحتنا علاجًا متواصلًا ومكلفًا للفرد والدولة ، وجعلت الأمومة والأبوة والقربى - أو هاما ، وجعلت المحبة والصداقة والوفاء - أحلامًا قصيرة الأجل جدًا !

ولم يعد لأطعم المتحضر أو الجماعات المتحضرة .. لم يعد لهذه الأطعم حدٌ أو بعدٌ تقف عنده ولو لوقت يسمح بالتقاط الأنفاس والاستعداد .. لم يعد فرض هذا الحد على الناس أو إقناع الناس بالتزامه - فى مقدور أى سلطة أو قوة سياسية أو عسكرية أو اجتماعية أو دينية ، ولا هو فى مقدور أى مذهب أو مجموعة أو معارف أيًا كان حظها من الإصابة أو بعد النظر .. وربما احتاج ذلك إلى تضافر جميع هذه القوى والرؤى والمعارف .. وهو ما يكاد يكون مستحيلًا - ولو تحقق زمنا أخفق أزمانا .. لأن حياة الآدميين نهر جارٍ عديد الروافد والمنعطفات والمنحدرات .. تتوالى عليه بغير انقطاع رياح التغيير والتطوير والإعاقة .. تارة هادئة ،

وتارات هادرة عاصفة - بلا توقع يسمح بالاستعداد والمسيرة المحسوبة المتبصرة .. ولذلك كان الآدميون من جميع الأجناس والملل والنحل ولا يزالون - يؤمنون بسلطان القضاء والقدر وبأسرار الغيب التى لا يعلمها إلا الخالق .. وذلك وتلك بداياتها دائماً أطماع بشرية اختيارية تتجاوز نهاياتها الحسابات والمشئآت التى كانت فى البدايات !

والصلة بين الأطماع وبين الحظ وثيقة للغاية .. إذ لا يخلو طمع طامع من افتراض شىء من حسن الظن بالأيام والأحداث ، أو على الأقل من افتراض أنه لن يصادف هو بالذات سوء طالع مفاجئ ليس فى استطاعته إبعاده .. لأن من يطمع يفترض دائماً أنه قد أقام مطعمه على أسس متينة محكمة ، وزودها بما يكفيها من عوامل يرجح معها الفوز .. وهو غالباً ما يبالغ فى التفاؤل قليلاً أو كثيراً - لشدة شوقه وقوة رغبته فى نيل ما يطمع فيه .. وهو حين يفشل يعزو فى الغالب هذا الفشل للحظ العاثر والمقادير المكتوبة ومعها تدخل الخصوم والحاسدين الذين لا يغفر لهم قط تدخلهم ذلك الذى يزعمه أو يفترض حصوله بدلالة فشله الذى صدمه !!



من تراب (٣٣٠) الخاتم (*) الطريق

مع الحديث الثاني من قصيدة الخاتم بديوان العارف ، لأبي الروحي وأستاذي الأديب الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد المحامي ، طفت أسبح مع هذا العبقري الفذ الذي طفق يتساءل .. هل غادره الطفل الذي بداخله ؟! .. فقد ساء خطو العمر ، وأمسى محروماً من لعب يهون رحلته ، أو ضحك يمازج دموعه .. فكيف تطاير حماس بدايات الحياة ، وانفرد به العقل الوقور يملئ ما يريده وينشده ؟!

يقول المفكر الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

أَعَادَرَنِي الطُّفْلُ الَّذِي كَانَ دَاخِلِي	لَقَدْ سَاءَ خَطُوءُ الْعُمُرِ فِي دَاخِلِي صُنْعًا
أُمْسَى بِلَا لَعِبٍ يَهْوُنُ رِحْلَتِي	وَلَا ضَحِكٍ يَتْلُو مَبَاشِرَةَ دَمْعَا
كَمَاسِي بَدَايَاتِ الْحَيَاةِ تَطَايَرَتْ	خَوَافِيهِ بَلْ نَزَعَتْ قَوَادِمَهُ نَزْعًا
لِيَنْفَرِدَ الْعَقْلُ الْوَقُورُ بِفِرْقَتِي	يُلَحْنُ مَا يُمَلِّي وَنُنْشِدُهُ جَمْعًا

وَصَعْبٌ عَلَى عَقْلِي تَصَوُّرُ رِقَّةٍ	لَدَى غَيْرِ ذِي قَلْبٍ يَرِقُّ وَيَأْلَمُ
وَيَسْهَرُ لَا يَأْلُو التِّفَاتَ مَوَدَّةٍ	إِلَيْنَا □ وَلَا لَحْمٍ هُنَاكَ وَلَا دَمٌ
حَنَانِكَ إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسِ كُلِّهَا	إِلَهِيَّةٌ فِيهَا الْغَرِيزَةُ تَفْهَمُ
هَلْ الْوَرْدُ إِلَّا الرُّوضُ عَبَّرَ عِطْرُهُ	عَنِ الرُّوضِ إِذْ يَشْكُو وَإِذْ تَبَسَّمُ ؟

(*) المال ١٧/٩/٢٠٠٩

وَتَبَّتْ عَلَى الْأَمْوَاجِ وَالرَّيْحِ وَالشَّرَى
شَرَارَةُ غَيْبِ ذِي دَهَاءٍ يَقُودُهَا
لِيُطْفِئَهَا طُولُ الطَّرِيقِ وَرَمَلُهَا
نَفَذَتْ إِذَا مَاتَ الشَّرَارُ وَأَقْفَرَتْ
وَمَا زِلْتُ مَنْ وَثْبٍ يَفِرُّ إِلَى وَثْبٍ
يُحِيطُ بِهَا فِي الْقَفْرِ وَاللَّبْثِ وَالْكَسْبِ
وَشِدَّةُ بَرْدِ اللَّيْلِ فِي الْمُنْعَنِ الصَّعْبِ
مَنْ الْقَفْرِ أَحْلَامٌ وَصِرَتْ بِلَا قَلْبٍ

أُغْنَى بِالْفَاطِ مَوَاتٍ تَحْجَرَتْ
وَمَا ضَحِكَتْ فِيهَا الْحُرُوفُ وَلَا بَكَتْ
يُجَفِّفُ إِحْسَاسَ الْقُلُوبِ جَفَافُهَا
بِهَا قَلَقُ الْخَرَسَاءِ أَرْعَجَ أَمْنُهَا
فَأَعْوَى كَمَا تَعْوَى الرِّيحُ عَلَى الْقَفْرِ
وَلَا ارْتَعَدَتْ خَوْفًا وَلَا انْفَلَتَتْ تَجْرِي
وَتَمْتَنِعُ تَوْصِيلَ الْعَوَاطِفِ كَالصَّخْرِ
عَلَى كَثْرَةِ الْمَحْزُونِ خَوْفٌ مِنَ الْفَقْرِ

هُنَا فِي وُرُودِ الرُّوضِ دِيوَانُ شَاعِرٍ
فَهَلْ تَزْدَرِي الشُّعْرَ الْمَجِيدَ لِأَنَّهُ
أَتَقِنُ هَذَا مِثْلَهُ دُونَ لُطْفِهِ
وَالْأَفْهَامِ وَجْهَ الْإِشَاحَةِ عِنْدَمَا
عَيُونُكَ آذَانٌ لَهُ وَسَمَاعٌ
كَثِيرٌ وَقَدْ يُشْرَى هُنَا وَيُبَاعُ
إِذَنْ أَنْتَ يَدُ اللَّهِ أَنْتَ صَنَاعُ
تَمُرُّ بِهَذَا الشُّعْرِ وَهُوَ يُذَاعُ

من تراب (٣٣١) النقاب من تانى ! (*) الطريق

مرارًا كتبت عن النقاب ، وكيف أنه ليس من الدين ، وبهذا أفتى مجمع البحوث الإسلامية ، ويخالف النظام العام في دولة لا بد فيها - وفي مواضع عديدة - من الإفصاح عن الهوية ، هل هي لذكر أم لأنثى ، ولمن تحديدا إن كان ذكرا أو كانت الأنثى .. فالنقاب يخفى معالم الوجه ، ولوازمه تخفى معالم الشخصية هل هي لأنثى - كالمفترض !! - أم هي لذكر يتخفى عن السلطات أو لغرض في نفس ابن يعقوب !

يتجدد الحديث ، ويلزم ، لأنه لا يكاد يمضي شهر إلا وتحمل الأنباء خبر ضبط رجل يتخفى في نقاب في مكان مخصص للحريم ، أو هروبا من المطاردة عن جريمة ارتكبتها أو عقوبة محكوم عليه بها يهرب من تنفيذها ، أو لمخادعة السلطات عن جريمة يقارفها ويريد لفت الأنظار عن مراقبته بالنقاب الذي يتستر وراءه ويخادع الناس به !

بالأمس ٩/١٥ نشرت الصحف نبأ ضبط شاب مسيحي يتخفى في النقاب لمقابلة صديقه ، وآخر تخفى وراء نقاب ليخطف ابنه من مطلقة .. وهذه الحوادث المتتالية تجدد أحزان «اللاعقل» الذي بات مخيمًا وسمّة عامة في بر مصر !

(*) المال ٢٨/٩/٢٠٠٩

لم يعترض أحد على الحجاب ، حتى الذين يرون أنه مجرد شعيرة دينية لا تصل إلى مرتبة الفرض . ذلك أن الحجاب فضلا عن كونه حرية شخصية لدى من لا يرون إلزاما فيه ، فإنه لا يصطدم بالنظام العام للمجتمع .. لأنه لا يخفى معالم وأسارير وسمات الوجه ، ويتيح معرفة هوية المتحجبة ، هل هى هى أنثى فعلا كالمفترض ، أم أنه رجل يتخفى لغرض فى نفسه .. أما النقاب فهو يخفى تماما معالم الوجه ، فيستحيل التعرف على شخصية المتخفى وراء النقاب الذى يحجب كامل الوجه . وذات هذه الخاصية هى التى جَرَّأت رجالا عديدين يضبطون كل يوم ، غير من يفلتون بغير ضبط - جَرَّأتهم على اتخاذ النقاب شعارا لإخفاء الذكورة ، فضلا عن التخفى - للذكور والإناث - عن أعين السلطات والناس ، وخداع الجميع عن حقيقة الوجه المستتر بالنقاب !

نحن فى مجتمع يفرض بحكم نظامه العام ، الإفصاح عن الهوية عموما فى الأماكن العامة ، للذكور والإناث ، ويفرض الإفصاح الضرورى عنها فى الهيئات العامة وعند اجتياز أو عبور حدود المطارات والموانئ والجمارك ، والمناطق العسكرية وغيرها من المناطق غير المباح ارتيادها إلا بعد معرفة الهوية ، وفى قيادة السيارات والدراجات البخارية ، وفى دخول وأداء الامتحانات ، وفى ارتياد الحدائق والمسارح ودور السينما والملاهى ، بل وحتى فى دخول الأماكن الخاصة التى من حق أصحابها بداهة أن يعرفوا هوية الداخل أو المرتاد . وهذا الإفصاح يصبح فرضا واجبا لا يجوز الترخص فيه عند ارتياد الأماكن أو الحجرات أو دورات

المياه أو الشواطئ أو حمامات السباحة المخصصة والمقصود ارتيادها على الإناث دون الذكور .. وكذلك في المستشفيات حيث تتصرف لمريضات ، وكذلك الأطباء ، على أن القائمة بالتمريض أنثى ، فإن كان ذكرا صار من حق المريضة أن تعرف لتتصرف بما تحب على ضوء ذلك . والنقاب الذى يخفى الهوية إخفاء تاما ، ويتيح للرجل أن يستتر وراءه عن الأعين كما يحدث كل يوم ، بل لم تنج من المخادعة بعض الأماكن المقدسة التى يجتال الشباب للقاء الحبيبات فيها متسترين بالنقاب .. هذا النقاب يصطدم اصطداما تاما بالنظام العام ، ويؤدى أحيانا إلى انتهاك الحرمات والآداب .. فإذا كانت المرجعية الدينية العليا قد أفصحت وشددت على أنه ليس من الدين ، صار واجبا على الدولة أن تصدر فورا وبغير إبطاء قانونا بمنع وتجريم النقاب ، وتفرض عقوبة على وضعه .. حماية للآداب والفضيلة وغلقا لأبواب التذرع بهما لإخفاء الجرائم وانتهاك الحرمات من وراء نقاب !!



من

تراب (٣٣٢) التقاط الطعم الإسرائيلي! (*)

الطريق

درجت إسرائيل على قاموس للمفردات ملء بالمغالطات وقلب الأوضاع .. كأن تقول : «لا تنازل» عن الأرضي، أو «لا تنازل» عن المستوطنات . الطريف أننا نلتقط الطعم الإسرائيلي ، فيتحدث خطابنا السياسي أو الإعلامي عن «اللاتنازلات» الإسرائيلية ، بينما المسألة إعادة حقوق «لا تنازل» .. أذكر من سنوات أن إسرائيل أوكلت مهمة التفاوض بشأن قطاع غزة والضفة الغربية إلى وزير الداخلية الإسرائيلي لا إلى وزير الخارجية . وهذا الاختيار مقصود يريد أن يوحى للعالم ضمناً - بأن القطاع والضفة شأن داخلي لإسرائيل .. ومن يتابع مفردات إسرائيل سوف يجد أشباهاً لهذه الطعوم التي يلتقطها الخطاب العربي فيردها بلا التفات أو تفطن لمغزاها !

آخر ما وقع فيه خطابنا الإعلامي ، مانشيت بالصفحة الأولى ٢٠٠٩/٩/٢١ لإحدى صحفنا المصرية الخاصة ، التقط الطعم فردد ذات المفردات الإسرائيلية المغلوطة التي تستخدمها إسرائيل لمواراة تدبيرها للهجوم على إيران ! .. فيقول المانشيت : «إسرائيل استكملت مظللتها (الدفاعية) ضد إيران» ! .. وكلمة «دفاعية» مغالطة هائلة تحرق عين المتابع ، ومع ذلك يستدرج إليها المانشيت الصحفي المصري ، ويتابع

(*) المال ٢٠٠٩/٩/٢٩

ما استدرج إليه فيورد في التفاصيل نقلاً عن الواشنطن بوست الأمريكية :
«وحسب التقرير الذى كشفت عنه الصحيفة ، فإن المنظومة (الدفاعية)
الإسرائيلية تتكون من مراحل رئيسية ثلاث» ... فما تكاد تتابع هذه
المراحل (الدفاعية ؟!!) حتى يتبين لك مزالق النقل بلا تفتن عن الخطاب
الإسرائيلي .. فمراحل المنظومة الإسرائيلية هجومية عدوانية لا دفاعية !!
وحكاية استخدام لفظ «الدفاع» حكاية قديمة في المفردات الإسرائيلية
المغلوطة التى لا نتفطن إليها.. فبينما كنا من قديم الأزل نطلق لفظ
«الحربية» على الوزارات العربية التى تتولى شئون القوات المسلحة، نجد
إسرائيل ، ومنذ أقامت كيائها العدوانى الاستيطانى الإحلالي تطلق على
آلة «الحرب» الإسرائيلية مسمى «وزارة الدفاع» .. لتوحى بأن آلة الحرب
والعدوان الإسرائيلية آلية دفاعية .. للدفاع لا للعدوان !!

الغريب أن من انتصروا للسلام بتعلة وجود نفع من الاحتكاك أو
التعامل مع إسرائيل ، قد دخلوا إلى المضمار بسلامة نية تبلغ حد السذاجة ،
إزاء عدوان عدائى يدبر لكل شىء عدته ، حتى فيما يبدو أنه بعيد عن أن
يكون محلاً لإعداد !!

هل تتذكرون يوم أوقف مناحم بيجن مفاوضات كامب ديفيد ليرجع
إلى الكنيست الإسرائيلى ليأخذ موافقته أولاً على رد «المستوطنات» المقامة
على الأراضي المصرية المحتلة إلى مصر .. ويرهن العالم بما فيه أمريكا بكل
سؤدها ٣٦ ساعة ظل فيها العالم ينتظر وظل فيها الكنيست الإسرائيلى
منعقداً يتناقش ويتشاحن ويتحاور ويقدم ويحجم هل «تتنازل» إسرائيل
- ولاحظ لفظ «تتنازل» - عن المستوطنات وتردها إلى مصر .. وكأن
إسرائيل صاحبة حق تنازل عنه ؟!!

فى الوقت الذى يتخابث فىه الخطاب الإسرائيلى ويغالط الدنيا ، يتساذج الخطاب العربى ويقع فى أخطاء فادحة .. لازلت أذكر كيف كتبت فى الثمانينيات إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين قبل أن يدخل فى غيبوبته المريرة ، أن كتبه ومُعَدَي أبواب الكلمات المتقاطعة فى الصحف المصرية والعربية يقعون فى أخطاء فادحة تهب حقًا لإسرائيل ، وتهدم التاريخ وتطمسه فى عيون الأجيال العربية الجديدة .. حين تورء مثلاً أن «الكلمة» المطلوب الاهتداء إليها هى 'المدينة الإسرائيلية' ، فإذا بها ياف أو عكا أو حيفا الفلسطينية منذ الزمان الأول ، أو أنها لبحيرة إسرائيلية ، فإذا بها بحيرة طبرية العربية ! .. ربما لو لم يتبن الأستاذ بهاء هذه الصرخة وينشرها فى يومياته المقروءة مع ما له من وزن وقامة ، لمضت هذه الغفلة الإعلامية العربية تصف المدن والبحيرات والأنهار والأراضى العربية بأنها إسرائيلية !!!

حتى الخطاب العربى الصائب ، الذى يصادف موضعه ، ويعرى الإسرائيليات ، خطاب صادر بالعربية إلى الداخل العربى الذى ليس بحاجة إلى تبصير بأفاعيل إسرائيل .. بينما الخطاب العربى إلى الخارج يعطل تعطيلًا تامًا ، مع أن الأصوات تتنادى من زمن بإنشاء آلية إعلامية عربية ، ولتكن تحت جناح الجامعة العربية المراد تفويضها ، تجمع من يتقنون اللغات الأجنبية مع خبراء الإعلام ، ليصوغوا خطابًا عربيًا إلى الخارج بلغاته ، يوضح للعالم حقيقة ما ترتكبه وتفعله إسرائيل خلافًا لكل مبادئ القانون الدولى وحقوق الشعوب والأوطان !!

من تراب (٣٣٣) مرض الظهور ! (*) الطريق

يبدو أن حب الظهور وآفة عرض الذات ، قد صارت داءً وبيلاً لم ينج منه أصحاب العلوم والمعارف والثقافات ، ففي الوقت الذي أثر البعض الالتزام بتقاليد المحاماة ، والعزوف عن الظهور والاستعراض الإعلامي ، والالتزام بقنوات الحديث في القضايا إلى المحكمة المختصة أو القاضي المختص .. شاهدنا طلاباً للاستعراض لا علاقة لأى منهم بقضية منظورة ، يتطوعون - رغبة في الظهور - في «الدش واللت والعجن» فيما يعرفون وما لا يعرفون !

المفارقة العجيبة أن أحد طلاب الاستعراض ، وخبراته كلها في المجال الإداري الذي كان قد تخصص فيه قبل أن يترك القضاء إلى المحاماة ، تطوع للتجديف فيما لا يعرف ، فادعى بغير بيان ولا دليل أن مستشاري إحدى المتهمات قد نصحوها بالمجيء إلى مصر لأن الدعوى الجنائية تقادمت في حقها بمضى المدة ، وأن هذه المشورة ضالة خاطئة لأن الدعوى لم تقادم فيما تفضل سيادته وقال ! .. والسيد المستعرض المتقول جدف فيما لا يعرف ، وادعى في حق آخر أو آخرين بلا أصل ولا سند .. لأن المشورة التي ادعى صدورها لم تحدث على الإطلاق ، فلم يشر عليها أحد بالقدوم

(*) المال ٣٠/٩/٢٠٠٩

إلى مصر ، لا تحت شعار التقادم أو سواء ، وإنما حضرت المذكورة من تلقاء نفسها ودون أن تخطر أحداً سلفاً بعزمها القدوم ، حتى أن أهلها فوجئوا بها محتجزة في مطار القاهرة الدولي ترقب وصول !

والسيد المتفضل بالحديث طلباً للاستعراض .. انزلق إلى ما لا يخصه ولا يجيده ، وجعل يجدف في حق آخرين بفرية مختلقة لم تحدث على الإطلاق .. هذه واحدة .. والثانية أنه أخذ يخلط بين تقادم الدعوى وهو تقادم لا يقطع مدته أى شىء عملاً بنص المادة ١٦ إجراءات جنائية التى لا توقف سريان المدة التى تسقط بها الدعوى الجنائية لأى سبب كان ، أخذ يخلط بين ذلك وبين سقوط العقوبة . وأى طالب بليسانس الحقوق يعرف ما يتباهى المستعرض المتطفل بمعرفته .. ولا يجهره أى خريج حقوق ناهيك عن أن يكون عاملاً بالمجال الجنائى الذى لا يعمل به المستعرض ومع ذلك يتطفل عليه ويدعى العلم به .. فنص المادة ٥٣٢ إجراءات جنائية التى استبدلت فى وزارة الدكتور الجزورى فى ١٩٩٧/٥/٢٥ - يعتبر وجود المحكوم عليه فى الخارج - مانعاً يوقف سريان مدة سقوط العقوبة لا تقادم الدعوى !

ويبدو أن السيد المستعرض يظن أنه أتى بما لم يأت به الأوائل ، وغلبته الرغبة فى عرض الذات وادعاء الشطارة فتورط فى التجديف بغير علم فى حق الآخرين ، وفى ادعاء اختصاصه بعلم ما لا يعلمه سواء !!

لقد تناولت هذه الظاهرة ليس فقط لكونها خروجاً صارخاً على قواعد ومبادئ وتقاليد المحاماة ، التى احترامها صاحب الحق فى الحديث

وتطفل عليها من لا علاقة لهم بالأمر مع انزلاق إلى تجاديف غير لائقة بقيم المحاماة وتقاليدها العريقة . وإنما تناولتها أيضا لأن ظاهرة الاستعراض تفشت واستشرت ، وأصبح كل من يشاء يتحدث فيما يشاء ، وفيما قد لا يعرف أو يجيد ، فصار اللغو هو لغة الحديث ، وعرض الذات مرضا بلغ لدى البعض حد الإدمان ، حتى يتصور أنه لا وجود له إذا احترم وقار الاحتجاب فيما يجب فيه الاحتجاب ، وصرف نفسه لما يعنيه عما لا يعنيه !! ثم .. قد يُعفى لغير المتخصصين أن يتحدثوا في قضايا منظورة ، ولكن هذا خطأ فادح لا يغتفر إذا وقع من رجال القانون .. جدير بهؤلاء وبقنوات الإعلام ، أن تراجع المادة ١٨٧ عقوبات ، التى تعاقب بالحبس حتى ستة أشهر وبالغرامة التى يمكن أن تصل إلى عشرة آلاف جنيه أو بإحداهما ، كل من نشر أمورا من شأنها التأثير على القضاة أو الشهود فى دعوى منظورة !

فهلا احترمنا القانون ، والتزم كل منا بحدوده لا يتعداها !!؟

من

تراب (٣٣٤) الخاتم والحديث الثالث (*)

الطريق

طفنا معا رفق ومضات شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد ، في الحديث الثاني من قصيدته الخاتم بديوانه العارف .. ومحمد عبدالله محمد مفكر عميق شديد الإبحار في الأعماق .. لم تعقه أوزان الشعر وبحوره وقوافيه وموسيقاه ، عن أن يستخرج الدر من أعماق الأعماق .. وهاهو يبدأ الحديث الثالث من قصيدته الخاتم بالعودة إلى البحر ، الذي منا من يكتفى بالعموم والطفو فيه ، ويأبى البعض إلا أن يغوص ليفهم باحثا ومنقبا عن الحقيقة التي ينشدها أو ينشد الإيماء إليها وتجليتها ..

يقول أبو الروحي وأستاذي الشاعر الحكيم صاحب الأفضال محمد عبدالله محمد :

أَعُوذُ إِلَى الْبَحْرِ الَّذِي فِيهِ كُلُّنَا	يَعُومُ فَيُطْفَوُ أَوْ يَغُوصُ فَيَفْهَمُ
حَيَاتُكَ فِيهِ تَسْتَقِلُّ بِعَظَرِهَا	وَذَا جَسَدٌ يَذْوِي عَلَيْكَ وَيَهْرَمُ
إِذَا تَقَلَّتْ كَفُّ الْوَرَاثَةِ بَعْضُهُ	إِلَى سِحْنَةِ الْأَحْفَادِ يَخْفَى وَيَبْهَمُ
فَأَيُّ مَجِيدٍ فِي خِلَافَةِ مَا جَدِ	يَمُتُّ إِلَيْهِ وَالطَّرِيقُ لَهُ الدَّمُ

(*) المال ١٠/١٠/٢٠٠٩

وَأَخْفَادُ عَقْلِي فِي عُقُولٍ دَخَلَتْهَا
وَأَمْشَى بِهَا عَبْرَ الدُّهُورِ كَمَا مَشَى
لَأَنَّ سَمَاءَ الْعَقْلِ يَحْفَظُ خَسْوَءَهَا
حَيَاتِكَ فِيهَا لَا يَكْفُ نَشَاطُهَا
بِفِكْرِي وَغَاصَ الْفِكْرُ فِيهَا فَاتَمَرَا
ضِيَاءَ النَّجْمِ قَدْ يَخْفَى ضِيَاءُهُ لِيُظْهَرَا
كَوَائِبُهَا مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا الثَّرَى
وَعَيْنُكَ فِيهَا كَمْ تَجُوبُ وَكَمْ تَرَى

أَخَى التَّقَطُّ أَيْدِي الْحَيَاةِ عُقُولَنَا
وَتَرَفَّى عَلَيْهَا أَوْ لَبَسَ نَوَلُهَا
فَتَنَفَّذَ فِي الثَّلَجِ الْحَيَاةَ فِي اللَّطَى
وَيُضْبِحُ كُلُّ الْخَلْقِ فِكْرًا لَأَنَّهَا
بَذُورًا فَنَمَتْهَا لِتَسْكُنَ غَابَهَا
حَبَائِلُ الدُّنْيَا وَيَفْتَحَ بَابَهَا
وَتَمَلَأُ أَشْوَاقَ الْحَيَاةِ رِحَابَهَا
تَقْمَصُّهَا عَقْلٌ ذَكِيٌّ وَجَابَهَا

تَرَى الْعَيْنُ ظِلَّ الْوَرْدِ بَعْضَ وُجُودِهِ
وَمَا كُلُّ مَا فِي الْعَيْنِ مُقْلَتُهَا الَّتِي
وَذَاكَ امْتِدَادٌ فِي الْوُجُودِ بِهِ بَنَى
وَمِنْهُ يَشِعُّ الْحَيُّ أَعْجَبَ ضَوْئِهِ
وَتَعْجَبُ مَنْ وَرَدَ وَلَيْسَ لَهُ ظِلُّ
تَرَى فَهْناكَ الْوُدَّ وَالْغَمَزُ وَالْكُحْلُ
مَعَانِيهِ وَالْمَبْنَى أَغْلَبَهُ شَكْلُ
وَيَخْلُو بِهِ وَجْهُ الْحَيَاةِ إِذَا يَخْلُو

أَرَاكَ خَيَالًا ذَا اشْتِيَاقٍ وَمَهْجَةٍ
لَدَيْهَا لِمَنْ يَخْطُو عَلَيْهِ عَجَائِبُ
وَلَا بَدَّ مِنْ هَذَا لَذَاكَ لِأَنَّهَا
عَلَيْهَا أَقَامَ الْجُحْرَ مِنْ كَرِهِ الْقَضَا
تُحِبُّ وَتَبْنِي مِنْ مَحَبَّتِهَا جِسْرًا
وَلِلرَّافِضِ الْمَرْفُوضِ مَا أَشْبَهَ الْجُحْرَا
وُجُوهُ بِنَفْسِ الشَّيْءِ يَلْتَمَسُ لِلْعُذْرَا
وَيَعْتَشِقُ سُكْنَى الْجَوِّ مَنْ صَنَعَ الْوَكْرَا

مَهْزُكَ لِلْأَعْمَاقِ لَيْلَى بِقُوَّتِهَا وَقَدْ هَزَّ أَعْمَاقَ الْجِيَاعِ رَغِيفُ
 وَلَيْسَ يَرَى لَيْلَى مِنَ الْبَطْنِ جَائِعُ وَلَكِنْ يَرَى الْأَطْبَاقَ وَهِيَ تَطُوفُ
 حَنَانُكَ مَا عَفَّ الْجِيَاعُ وَمَا هَفَّتْ قُلُوبُهُمْ لِلْحُبِّ وَهُوَ عَفِيفُ
 وَلَكِنْ هَفَّتْ لِلْأَخْذِيزِ حَفْ مُوجُهُ وَيَغْزُو وَيَقْسُو يَشْتَهَى وَيُحِيفُ

يقول محمد عبدالله محمد فى ختام الحديث الثالث :

تَعِيشُ كَلَامًا كُلَّمَا عِشْتَ حِقْبَةً بِهَا الْقِيَمُ الْكُبْرَى تَقْلَصُ ظِلُّهَا
 كَأَنَّكَ شَخْصٌ دُسَّ ضِمْنِ رَوَايَةٍ وَمُحْرِجُهَا يَخْتَانُهَا وَيَمْلُهَا
 يُمَثِّلُ مَاذَا أَوْ لِمَاذَا فَدَوْرُهُ تَقُومُ بِهِ الْأَحْيَاءُ فِي الْكُونِ كُلُّهَا
 تَقَارِبَتْ الْقِيَعَانُ حَتَّى تَشَابَهَتْ تُتْلَقَى حَصَاهَا أَوْ يُتْلَقُ بِكَ رَمْلُهَا

من

تراب (٣٣٥) قوة الداخل أغنى

الطريق

من أى بريق !! (*)

تختلف قدرات الناس على احتمال الفشل والإحباطات .. منهم من يتماسك ويصمد ، ومنهم من يتجاوزها ويمضى ، ومنهم من يسقط ويتهاوى ، أو يقع فريسة لعقد نفسية ومركبات نقص تنضح في سلوكه ومعاملاته .. ما ظهر منها أو ما استطاع إخفاءه أو مواراته .. وأكثر العقد النفسية نضوحا على الناشئة فيه - العقد التى لا يتنبه إليها أو يعرف جذورها وأسبابها .. والوقوع في وهدة العقد أو مركبات النقص فرع على ضعف داخلى يقترن غالبا بقلّة الثقة بالنفس مع الاهتمام بادعاء العكس !! وكما تتعدد أسباب العاهات الجسدية أو العضوية ، تتعدد أيضا أسباب العاهات أو العقد النفسية أو مركبات النقص .. الفارق بينهما أن العاهات العضوية تتلقى مواجهة جسدية تلقائية تعويضية ، وقد تستعين بأجهزة صناعية تعويضية كالأطراف الصناعية والنظارات الطبية والسماعات وأجهزة تنظيم أو تقوية نبضات القلب أو دعائم توسيع الشرايين .. إلخ . أما العاهات النفسية والعقد ومركبات النقص فقد تكون مخففة عزيزة الاكتشاف إلّا على الخبراء ، وإلى حد الاستحالة على الواقعين في وهدتها ، ثم إن علاجها يحتاج إلى جوار الخبرة التحليلية

(*) المال ٢٠٠٩ / ١٠ / ٥

والعلاجية النفسية ، يحتاج إلى تيقظ وتعاون إرادى وواع ومتفطن من المصاب بعقلها وأسقامها .. وأول مقومات العلاج الذى لا يجرى إلا بالتعاون بين الأخصائى والمريض ، أنه لابد أساسًا من معرفة جذورها ومركباتها وتراكمتها .. ودور الأخصائى النفسى هنا لازم وبلا بديل .. هناك مثلاً من لديهم عقدة أو خوف من الارتفاعات ، وهناك من لديهم عقدة أو خوف من المياه ، ومنهم من يعانون من رهاب مواجهة الحياة أو ضعف الثقة بالنفس !

وصاحب العاهة الجسدية ، يعوضها تلقائياً بنمو الأعضاء التعويضية ، كاشتداد قوة إبصار إحدى العينين أو قوة سمع إحدى الإذنين إذا أصيبت أو وهنت الأخرى ، أو بقوة أحد الساعدين لتعويض الآخر .. وهكذا .. أما العاهة أو العقدة النفسية أو مركبات النقص ، فلا تواجه إلا بعمل إرادى متفطن إلى مكنى العلة أو الداء .. وهذه المواجهة الإرادية ليست ميسورة المنال لدى ضعاف النفوس أو الذين تمكنتم منهم العقد النفسية .. بل قد يكونون غافلين عنها ناهيك عن أن يتفطنوا لمقاومتها أو علاجها وذلك على خلاف العلل البدنية !

لقد أدرك العقاد بذكائه وقوة إرادته أن برئتيه ضعفاً فكان حريصاً على جفاف المحيط ، سواء فى سكنه الذى اختاره على مشارف الصحراء ، أو فى رحلاته إلى أسوان ، أو فى الصبر على حمائم الدفن فى الرمال .. وكانت ثقته فى نفسه أقوى من كل ما واجهه من صعاب .. باع مكتبته أكثر من مرة ، وحاصرته الحاجة أحياناً ، فلم يتزعزع إيمانه

بقامته وقدراته .. لم يهتز حين خسر انتخابات مجلس النواب ، وكذلك الزعيم الكبير مصطفى النحاس الذى خسر الانتخابات البرلمانية فى دائرته سمود .. فلا نَقَصَ العقاد أو اهتز ، ولا نَقَصَ النحاس أو أحس بالعار ! وواجه العقاد الأمر بثقة ماضية وحكمة بالغة حين قال : « قيمتك فى نفسك ، وبواعثك أخرى بالعناية من غاياتك .. أو حين قال : « إذا أحببك الناس مخدوعين فلا تفرح ، وإذا كرهك الناس مخدوعين فلا تحزن .. بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات » !

قيمة الإنسان فيه ، لا فى مرايا الآخرين .. مستوية كانت أو محدبة أو مقعرة ، ولكن تنشب الأزمة حين تتغلغل التفاهة وقلة القيمة وهوان الشأن إلى الداخل .. وكثيرا ما يكون لهذا الهوان مقدمات قد لا يمسك بها الواقع فى وهبتها ، ولكنها تتحكم فى مسارات حياته .. أحيانا بالوعى وأحيانا باللاوعى .. كشأن الجازع من العمل الحر الهارب منه إلى حماية وأمان الوظيفة العامة على نظام : « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ! .. فإن فاته الميرى طلب الأمان فى الوظيفة الخاصة ، حتى وإن دفع فيها من كرامته !!

والخوف من مواجهة الحياة خوف من المجهول يزيده ضعف الثقة بالنفس أو الإحساس بقلة الحيلة ، وقد يغذيه استسهال الحلول الموصلة للثراء أو اليسار أو مراقى السلطة أو المجتمع ، باللجوء أحيانا إلى الوساطات ، أو الإقدام على الزيجات الأكثر حسبا أو الأكثر مالا ! وأمثال هذه الحلول تتضافر مع العقد النفسية ومركبات النقص فتزيد

كُمُونها وتمكنها من الشخصية التى لا تشعر بحكم العادة - بحقيقة ما
يعتمل ويتراكم فى داخلها من عقد نفسية ومركبات نقص تنضح فى
سلوكيات وتصرفات لا يستطيع الواقع فى وهبتها أن يلتفت إليها ناهيك
عن أن يتفطن إلى علتها !

أمثال هؤلاء لا يصمدون للفشل وهو قدر على جميع الناس ، ويسرع
إليهم الإحباط فلا يتماسكون كما يتماسك الأقوياء ، وقد يعتريهم
الاكتئاب والمزید من مركبات النقص لمجرد التقدم فى السن أو الإحالة
إلى المعاش .. وتسيطر عليهم العقد الكامنة التى تؤدى إلى المزید من
فقدان الثقة بالنفس مقترنة بالرغبة فى التعويض بالمظاهر ظنا أنها سوف
تستر خواء الداخل !

أقوياء الداخل هم الأقوى على الإخلاص والوفاء والمحافظة على
الصدقات .. لا يصمد الضعيف للإخلاص ولا يقوى على الوفاء ..
ولا تجد له صديقا تدوم صداقته وإياه .. أخطر ما يصيب الآدمى خواء
وضعف الداخل ، قوة الداخل هى الصمام الواقى من تداعيات انعقد
النفسية ومركبات النقص ، وهى الواقى أيضا من الخوف أو الجزع أو
الإحباط أو فقدان الثقة بالنفس لدى من لا يتحملون ما قد يصادفهم
من ملهمات أو إخفاقات ! .. قوة النفس متانة داخلية ومضمون خصب ،
وتربيتها غاية كبيرة تحتاج إلى عزيمة ماضية وهمة صادقة !

من تراب (٣٣٦) هل سقطت نظرية الطريق دارون؟! (*)

نشرت بعض صحف السبت ٣ / ١٠ - أن فريقاً من العلماء الأمريكيين في أصول الجنس البشرى ، توصلوا إلى هيكل عظمى بشرى لأثيوبية مضى عليه حوالى ٤ , ٤ مليون سنة ، فيما يعد أقدم هيكل بشرى أمكن الوصول إليه ، وأطلق عليه فريق البحث - اسم «أردى» .

وأعلن الفريق البحثى ، وهو من جامعتى كين ستيت وكاليفورنيا ، فى تقرير نشرته مجلة «Science» ، أن الكشف يسقط نظرية دارون التى أثارت ضجة هائلة منذ ظهورها فى أخريات القرن قبل الماضى ، فالهيكل البشرى المكتشف واحد من أسلاف البشر القدامى يرجع إلى أكثر من أربعة ملايين سنة ، وأقدم بنحو مليون سنة من هيكل «لوسى» التى كانت أحد أهم الأصول البشرية المعروفة . أما هيكل «أردى» المكتشف حديثاً ، فهو لأنثى قيل إنها بطول ١٢٠ سم ، وأنه وإن كان الرأس يشبه رأس القرد ، إلا أن تجويف الحوض لديها يظهر أنها كانت تسير منتصبه كالإنسان لا منحنية على مفاصل الأصابع كالشمبانزى والغوريلا !

فهل أسقط هذا الكشف نظرية دارون فى النشوء والتطور والارتقاء وأصل الأنواع ؟!

(*) المال ٧ / ١٠ / ٢٠٠٩

هذه النظرية وضعها دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) ، هو عالم طبيعى إنجليزى ، درس الطب فى أدنبره نزولاً على رغبة أبيه ، ولكنه لم يجد ميلاً للعمل بالطب وبدأ يدرس العلوم فى كيمبردج ، وشغف بالتاريخ الطبيعى ، وقام برحلة بحرية على الباخرة «بيجل» استغرقت خمس سنوات ، وكانت بداية لأبحاثه فى النشوء والتطور والارتقاء ، ووضع كتابه : «أصل الأنواع» .

كان لمذهب دارون أثر كبير فى الميدان البيولوجى ، وفى الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى ، وأدت دراساته إلى التساؤل عن الاعتقاد فى الخلق الخاص بكل نوع من الأنواع ، وهى نظرية كانت موضع اعتقاد علماء عصره ، فتقدم بالبيانات التى جمعها عن تطور الأشكال الحية جميعها من أصل واحد مشترك . وخلص إلى أن هناك كفاً من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد ، وأكد وجود تغير فردى فى داخل النوع ، وأن الأفراد ذوى التغير الأكثر ملاءمة يكون لهم حظ أوفر للبقاء . وأن بعض هذه التغيرات ينتقل للخلف ويحتفظ بها فى الأجيال التالية .. وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعى الذى تأثر فيه بآراء «مالتوس» .. وهذا الانتخاب الطبيعى هو أساس نظرية دارون فى عملية التطور العضوى .. فنظراً للعوامل بيئية مختلفة - ككمية الغذاء والماء المتوافرة ، ودرجة الحرارة والضغط ، وزيادة أو قلة الناتج الحيوانى والنباتى - نشأ ونشأ الكفاح من أجل البقاء ، ويسفر هذا الكفاح دائماً عن انتصار وبقاء الأقوى والأصلح للتكيف تكييفاً أفضل مع البيئة .. فيتكاثر الأفضل ، وينقرض العاجز عن

مواجهة ظروف البيئة .. وانتهى دارون إلى أن الفرد في تاريخه يعيد تاريخ تكوين الجماعات التي ينتمى إليها !

ومع الضجة التي أثارها الداروينية ، وتصاعد الإعجاب بها ، إلا أنها تعرضت لنقد بعض علماء القرن الماضي ، فأخذوا عليها عدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذي لا يورث ، والصفات الجينية التي تورث .. لذلك أدخلت على النظرية تحويرات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة ! من الاختصار المخل اختزال الداروينية في أن الإنسان أصله قرد . المسألة الأهم من نفى أن الإنسان كان قردا ، هو ما تكشف عنه البحوث تباعا عن هياكل عظمية بشرية ترجع إلى ملايين السنين ، وتصطدم بقصة الخلق ومدته في بعض كتب الأديان التي يستفاد منها أن عمر البشرية بين سبعة وعشرة آلاف عام !

الاكتشاف الجديد يعيد فتح قضية قديمة ، اجتهد فيها الدكتور عبد الصبور شاهين برأى عرضه في كتابه : «أبى آدم» .. توقف فيه عند استعمال القرآن المجيد لكلمة «بشر» وحالات ودلالات ومعانى استخدام الكلمة ، ثم عرض لاستعمال القرآن لكلمة «الإنسان» .. والمواضع التي فيها ورد لفظ «البشر» والأخرى التي ورد فيها لفظ «الإنسان» .. ليتنهى باجتهاد يعرضه إلى أن «البشر» لفظ عام لكل مخلوق على الأرض يمشى منتصب القامة على قدمين ، بينما «الإنسان» لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته .. فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنسانا . وإنه لأمر ما نرى القرآن لا يخاطب البشر وإنما يخاطب الإنسان ، ونجد

التكليف الدينى منوطاً بصفته «الإنسانية» .. وأن الإنسان هو وحده المقصود بالتكليف الدينى ، وأنه إذا كان البشر بعامة هم طلائع الخليقة ، ثم نادوا ودرست آثارهم ، فإن آدم هو أبو الإنسان المكلف المجدول حوله قصة الخلق فى كتب الأديان ..

وكما أثارت نظرية دارون ضجة كبرى ، أثار كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين ضجة أكبر حتى تطرف البعض فعدوه من باب الكفر أو الإلحاد .. واعتدل البعض فطلبوا مراجعة بعض الصياغات ، وليبقى الحوار دائماً بين العلم والدين حول قصة الخليقة !

من

تراب (٣٣٧) ماذا فعلنا لإنقاذ الأقصى؟! (*)

الطريق

تناقلت وكالات الأنباء ، أخبار «حصار» قوات الاحتلال الإسرائيلي للمسجد الأقصى ، وإغلاق مداخل المدينة المقدسة تهيئة لتمكين المتطرفين اليهود ، المحتشدين عند باب المغاربة لاقتحام الحرم لأداء طقوس فيما يسمى بعيد «العرش اليهودي» !

واستمرارا للصلف والغطرسة الإسرائيلية ، وتواصلًا مع جرائم الحرب ضد الإنسانية التي ترتكبها إسرائيل كل يوم في قطاع غزة ، وفي الضفة ، وفي القدس .. دخلت قوات الاحتلال الإسرائيلي بكل ترسانتها وآلياتها وأسلحتها لفرض الحصار من ناحية ، وإجبار المعتكفين المسلمين على مغادرة المسجد توطئة للاقتحام اليهودي ، في وسط مدينة الأديان المقدسة ، شنت القوات العسكرية الإسرائيلية هجمات على الشباب والرجال الفلسطينيين المحتشدين بالقرب وأمام باب الأسباط وفي أحياء الصوانة ووادي الجوز، لتفريقهم وإجبارهم على إخلاء المسجد .. مطالبة إياهم بالاستسلام .. وأصيب في هذه المواجهات الدامية عشرات من الفلسطينيين العزل ، بينما أطلقت سلطات الاحتلال الإسرائيلية يدها على الواسع في حملة اعتقالات واسعة في صفوف الشباب الفلسطيني ،

(*) المال ٨/١٠/٢٠٠٩

تهيئة للاقتحام اليهودى الذى يدبر لإتمامه تحت حماية ورعاية القوات العسكرية الإسرائيلية ، فيما شبهه مفتى القدس المحتلة والديار الفلسطينية بالأوضاع التى سبقت انفجار انتفاضة الأقصى منذ ٩ سنوات عندما قام السفاح الصهيونى شارون - باقتحام المسجد الأقصى فى حماية قوات الاحتلال الإسرائيلية !

وبينما تتصاعد نداءات الاستغاثة من داخل المدينة المقدسة لحماية أولى القبلتين ، لا تدع القوات الإسرائيلية جريمة من الجرائم ضد الإنسانية إلا وأرتكبتها ، ونقلت وكالات الأنباء صور جنود الاحتلال وهم يلقون القنابل المسيلة للدموع لإجبار الفلسطينيين على مغادرة المسجد والحرم القدسى ، وتعقبهم بكل أنواع الأسلحة ، فيما تؤكد الأنباء الصادرة عن الأرض المحتلة أن حشود المستوطنين الصهاينة المتطرفين تتم برعاية ودعم حكومة نيتانياهو المتطرفة ، مما يعكس إمعانها فى تهويد القدس ، والمساس بالمقدسات الإسلامية والمسيحية ، الأمر الذى يكشف سذاجة توقع السلام ويجعل من الاطمئنان إلى أى مفاوضات مع هذه الحكومة المتطرفة - محض أوهام وأضغاث أحلام ورهان على سراب !

لقد أكدت الأنباء أن شرطة الاحتلال حاولت الأحد الماضى إدخال مجموعات يهودية متطرفة إلى باحات المسجد الأقصى ، الأمر الذى أدى إلى مواجهات مع الفلسطينيين الذين اعتصموا بمسجدهم للدفاع عنه ، فطاردهم النيران الإسرائيلية حيث أصيب أكثر من ٤٠ فلسطينيا فضلا عن اعتقال العشرات !

وبرغم البطش والاحتشاد العسكرى الإسرائيلى، واحتشاد المستوطنين الصهاينة المتطرفين عند سور القدس القديمة .. خرجت مسيرات نسائية فلسطينية فى «قبة الصخرة» تطالب بإيقاف الهجوم الدامى وفك الحصار عن المعتكفين بالمسجد .. وتعرض الفلسطينيون شبابًا ورجالًا ، ونساءً وأطفالًا ، إلى القمع اليهودى الذى لا يرفعوى بأى شريعة أو قانون ، ويمضى مع مخطط تهويد القدس ، فى التدبير لاقتحام المتطرفين اليهود للمسجد الأقصى بقالة إنهم يؤدون - فى المسجد الإسلامى ! - طقوس عيد «العرش اليهودى» !!

فماذا فعل العرب ؟!

أصدرت جامعة الدول العربية بيانًا يحذر (!؟) من مخاطر الجرائم الإسرائيلية بحق المسجد الأقصى ومدينة القدس المحتلة .. مشيرًا - أى بيان الشجب والتحذير !! - إلى أن المسجد الأقصى بات فى خطر حقيقى .. مع أنه فى هذا الخطر الحقيقى منذ (٤٢) عامًا !!! .. وأن المسؤولية - هكذا يقول بيان الشجب والتحذير !! - تتطلب من كل الأطراف العربية والدولية (لازلنا نأمل فى الأطراف الدولية !) التحرك فورًا - لاحظ فورًا !! - دون إبطاء !

وبينما تحرك المجلس المصرى للشئون الخارجية ، مع أنه كيان خاص ، فأصدر بيانًا انتقد الاعتداءات الإسرائيلية على المسجد الأقصى ، وما تزامن معها من تأجيل مجلس حقوق الإنسان الدولى - تأجيل البت فى تقرير جولدستون ، ودعا البيان إلى ضرورة القيام بعمل عربى فعال -

غير الشجب !! - لدعم مقاومة الفلسطينيين في القدس للاعتداءات الإسرائيلية على المدينة المقدسة وعلى الحقوق الفلسطينية فيها ، إلا أننا لم نسمع إلا بيانات الشجب ، ولم نسمع شيئاً من معظم الأنظمة العربية . أو أى تحرك رسمى فاعل من هنا أو هناك ، حتى انشقت الصدور الشعبية ، فطفق الأزهريون فيما نشرت بعض الصحف - يتتقدون «لا مبالاة» و«تخاذل» الشعوب أو بالأحرى الحكومات الإسلامية تجاه حماية «الأقصى» والمدينة المقدسة ، مما يجرى على مرأى ومسمع العالم كله !! ويبدو للمتأمل ، أننا لا زلنا أسرى للكلمات ، نعارض بالكلمات ، ونشجب بالكلمات ، وندين بالكلمات ، ونصرخ بالكلمات ، ونهدد بالكلمات ، ونهتف بالكلمات ، ونقاوم بالكلمات ، ونحمى ترابنا ومقدساتنا بالكلمات !! ولا شئ غير الكلمات .. فلا علاقة لنا بالأفعال والأعمال ، بعد أن انفصمت العلاقة تماماً بين الكلمة والفعل ، وحلت الكلمات الجوفاء محل الأعمال ، فكان جزاؤنا ما صارت أحوالنا إليه ، وأخشى أننا ننحدر - بنشاط وهمة !!! - من سيئ إلى أسوأ حتى نرتمى منهكين في «القاع» بلا حول ولا قوة ، ولا أمل أو نجاة !!!

من تراب (٣٣٨) المسجد الأقصى من تانى؟! (*) الطريق

كتببت بعمود الخميس الماضى (١٠ / ٨) عن حصار قوات الاحتلال الإسرائيلى للمسجد الأقصى ، ومحاولات إخلائه من المعتكفين والمصلين ، لتمكين المتطرفين اليهود المحتشدين عند باب المغاربة من اقتحام الحرم لأداء طقوس يهودية فيما يسمى بعيد «العرش اليهودى» فى المسجد الإسلامى ! فى إطار مخطط أوسع لتهويد القدس بما فيها من مقدسات غير يهودية ، فضلا عن تهويد الضفة الغربية .. وقطاع غزة إذا أمكن !

كان التساؤل ولا يزال ، ماهو الفعل العربى ؟! ، فأمثال هذه الكوارث لا تواجه بالكلمات .. ولا ببيانات الشجب والتحذير .. لقد طال كلامنا وقل أو توارى فعلنا ، فلم يعد أحد يبالى بكلامنا !

بل فى الوقت الذى تدور فيه رحى هذا الحصار الغاشم ومهاجمة المعتكفين والمصلين واعتقال العشرات من الشباب الفلسطينى ، يتسرب أن لرئيس السلطة الفلسطينية يدًا فى تأجيل بت مجلس حقوق الإنسان الدولى فى تقرير لجنة جولدستون . الذى أدان إسرائيل بالعديد من جرائم ضد الإنسانية فى حربها الغشوم على قطاع غزة !

ولأن هذا هو حالنا ، ولم يعد أحد يبالى بنا ، حملت أنباء الست ١٠ / ١٠ أن مجلس الأمن قد رفض مجددًا أمس عقد جلسة طارئة لمناقشة

(*) المال ٢٠٠٩ / ١٠ / ١٢

تقرير بعثة تقصى الحقائق الخاصة بالحرب التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة ، والذي حمل إدانتها بالعديد من الجرائم ضد الإنسانية ، بينما تواصل إسرائيل تحت بصر العرب والعالم انتهاكاتها للمقدسات الإسلامية واعتداءاتها على الفلسطينيين في القدس المحتلة وسط حالة من الصمت على المستويين العربى والدولى !

طردت سلطات الاحتلال الإسرائيلى المصلّين من المسجد الأقصى المبارك .. وأغلقت أبوابه .. ومنعت دخول حراسه واحتجزتهم عند باب السلسلة .. وشددت قوات الاحتلال حصارها على مدينة القدس المحتلة ، وأعلنت استمرار منع الفلسطينيين القاطنين بالمدينة وعرب إسرائيل من دخول البلدة القديمة والصلاة بالمسجد الأقصى باستثناء الذين تزيد أعمارهم على ٥٠ عاما ، ونشرت المزيد من أفراد القوات الخاصة وعناصر الشرطة وحرس الحدود وسط المدينة وفي محيط البلدة القديمة وعززت الحواجز على بوابات المسجد الأقصى ، وأغلقت المنطقة الممتدة من حى الشيخ جراح ووادى الجوز وبلدة سلوان ورأس العامود ومحيط أسوار البلدة القديمة بالقدس المحتلة ، ونصبت حولها الحواجز والمتاريس العسكرية .. كما أغلقت وسط المدينة المقدسة المحتلة أمام السيارات التى تنقل المصلّين إلى المسجد الأقصى .. فضلا عن حملات اعتقال الشباب التى لا تتوقف !

وتناقلت وكالات أخبار مواجهات عنيفة بين المصلّين بالأقصى وقوات الاحتلال الإسرائيلى وسط إضراب عام فى الضفة الغربية !

والسؤال : أين تقف السلطة الفلسطينية نفسها من هذه المأساة ؟!

لقد صرح لين باسكو مساعد الأمين العام للأمم المتحدة للشئون

السياسية، بأن الجلسة الشهرية لمجلس الأمن حول الأوضاع في الشرق الأوسط المزمع عقدها الأربعاء القادم- ليست مخصصة لتقرير جولدستون!

بينما يترك رياض المالكي وزير الخارجية الفلسطيني هذا كله ، ليشن حملة في مؤتمر صحفي نقلته وكالات الأنباء ، لا على ما تركبه إسرائيل بالقدس والمسجد الأقصى ، وإنما على حركة حماس متهمها إياها في هجوم لاذع بأنها تستغل التقرير المؤجل نظره والبت فيه !

ولم أفهم ما هو خطأ حماس أو غير حماس في استغلال تقرير لجنة أذان إسرائيل بجرائم ضد الإنسانية ارتكبتها إسرائيل في حربها الشعواء التي شنتها على قطاع غزة وأعملت فيها القتل والتدمير ولم ينج من ويلاتها الشيوخ والنساء والأطفال؟! وهل يمكن لأى وطنى عاقل يقدر الحق والعدل أن يتجاهل ولا يستغل تقرير لجنة جولد ستون؟! فإذا كان رياض المالكي يشن هجوما لاذعاً على حماس لاستغلالها تقرير اللجنة ، فما هى إذن الحجج والمبررات والأسباب التى دعت السلطة الفلسطينية للموافقة على تأجيل بحث تقرير جولد ستون فيما وصفه باسم خورى وزير الاقتصاد الفلسطينى المستقيل - بأنه خطأ فادح !

لقد صرح رياض المالكي في حملة هجومه اللاذعة على حماس ، بأن الرئيس الفلسطينى محمود عباس سيحضر جلسة مجلس الأمن المقبلة ليقدم وجهة نظر السلطة الفلسطينية بشأن توصيات التقرير !

ترى ماذا سوف يقول؟! لقد كثر الحديث عن أدوار وراء الكواليس ، وتسربت أنباء وتسجيلات من داخل إسرائيل ، ودارت كتابات وجهت اتهامات ثقيلة خطيرة حول استمرار الضرب في غزة .. ولكن دعونا ننتظر ولا نسبق الأحداث ، لنرى ماذا سوف يقول رئيس السلطة الفلسطينية بمجلس الأمن الأربعاء القادم !!

من تراب (٣٣٩) يارب !؟ (*) الطريق

يارب .. إليك نتجه بقلوبنا ومهجنا وأرواحنا وقد تجمعت سحب
الأحزان ، وتوالى رحيل الإخوة والأحباب وأعز الأصدقاء .. ندعوك
أن تلهمنا الصبر والعزاء ، وأن تثبت قلوبنا وتخفف آلام مصابنا فيمن
رحلوا عنا إلى رحابك النورانية .. وأن تتقبل ضراعتنا وابتهالنا إليك أن
تقبلهم بفيض رحمتك ، وأن تشملهم بكريم غفرانك ومثوبتك ، وأن
تسكنهم فسيح جناتك ، وأن تملأ حنايانا بنور الإيمان وقوة اليقين ، وأن
تحسن ختامنا حتى نلتقى وإياهم في رحابك ..

ربنا .. إنا نعلم مما علمتنا أنه مهما طالت أعمارنا ، فإننا إليك يا الله
راجعون .. ونعلم أن كل من عليها فان ولا يبقى سوى وجهك يا ذا
الجلال والإكرام ، ونعلم مما علمتنا بكتبك ورسلك وأنبياك أن الساعة
آتية لا ريب فيها .. فيها ينعم المهتدى بهداه ، حيث جناتك مشوى
الصالحين والأبرار .

قد أودعناك يا إلهي آمالنا ، وأوكلنا إليك كفكفة أحزاننا ، وثبتت
قلوبنا ومهجنا .. ندعو إليك مع كل داعٍ تحت سمائك ، ذاكر مسبح متجه
إلى رحابك .. ندعوك أن تلهمنا مع الصبر حسن عبادتك والتقرب

(*) المال ١٣/١٠/٢٠٠٩

إليك .. أن تملأ وجداننا معرفة بك ، وخشوعا لك ، وأداء لحقك ..
أن تحسن نسكنا وصلواتنا ، وتحفظنا بالتقوى من الأباطيل والمضلات ،
وتعصمنا من الشرور ووساوس الشيطان ، وأن تهدينا بعبادتنا لك إلى
آفاق النور والضياء ..

ربنا .. قد علمنا مما علمتنا أنه ما تقرب إليك عبد بمثل الزهد في
الدنيا ، ولا تعبدك بمثل أداء ما افترضته عليه .. اللهم فاجعل هذه الدنيا
في يقيننا دار مرور لا دار قرار ، وعملنا فيها عمل الأخيار والأبرار ..
الذين يرومون على الدوام مثوبتك ورضاك ، ويعيشون أيامهم على
نهجك وهداك ..

نعلم يا إلهي مما علمتنا أنك قد جعلت الموت والحياة لتبلونا أينما
أحسن عملا .. وقد رجونا مع من رحلوا عنا أن نكون وإياهم قد مضينا
في الحياة الدنبا على ما تحب وترضى .. فتقبل اللهم دعاءنا للأحباب
الراجلين بالرحمة والمغفرة ، واقبلهم يا إلهي لديك قبولاً حسناً ، وطيب
ثراهم ، وأكرم مثواهم ، واجعل اللهم منازلهم في نعيم جناتك ..

إلهي .. هانحن نتجه إليك في باكورة صباحنا وآيات خلقك ملـ
أبصارنا وأسماعنا .. تطالعنا أينما جال البصر منا .. فخضع اللهم بآياتك
العظمى قلوبنا ، وأتر بصائرنا وأنباينا .. وألهمنا الصبر على ما به قضيت ..
وحمداً وشكرك على ما به أنعمت وتفضلت ..

إلهى .. إنك أعلم بنا منا .. أعلم بما تحيى به صدورنا ، وبالإجلال
الذى تفيض به أرواحنا .. أنت سبحانه قبلتنا ، وبك استعانتنا ، وعليك
يا قوى يا متين توكلنا ..

اللهم فسد بهداك أعمالنا ، ونم بفضلك أعواد الخصرة فى قلوبنا ،
وبارك فى ثمارها ، وعمر أفئدتنا بنور الإيمان وهداية اليقين ..

ربنا .. رب هذا العرش العظيم ، ومبدع هذا الكون المعجز .. إلى
رحاب رحمتك جئنا نلوذ من لواجع قلوبنا وآلامنا فى مصابنا .. نعلم
أن الموت حق ، ولكن الفراق صعب .. ألم يقل نبيك المصطفى إن العين
لتدمع ، وأنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون !

اللهم فامسح بفيض رحمتك دموعنا ، وكفكف أحزاننا ، واغمر بنور
الإيمان واليقين قلوبنا ، واستقبل بكرمك ورحمتك وغفرانك أحببنا الذين
تركوا الفانية إلى الباقية .. وأسكنهم لديك مساكن الصديقين والأبرار ..

يارب .. لقد أسلمنا وجوهنا وقلوبنا إليك .. وامتألت مهجنا
وأرواحنا ونبضات قلوبنا بذكرك والتسبيح لك .. جئناك راضين
خاشعين ضارعين .. نسألك النور والهداية ، والصبر والعزاء ، وأنت
سبحانك النور ولا نور إلا منك ، وأنت الهادى .. فاهدنا اللهم بك إليك ..

اللهم فتقبل ضراعتنا لأنفسنا ولأحببنا الذين ارتحلوا إليك ، فنحن
وإياهم ملك يمينك .. أنت سبحانه إذا الجلال والإكرام المالك لنواصينا
وأقدارنا ، وإليك يا وارث انتهاؤنا ومآلنا وأنت يا إلهى قبلتنا فى كل درب
وعلى كل طريق .. ورضاك ومثوبتك يا منان وجهتنا ، ووجهك الكريم

مرامنا وغايتنا .. فاحشرنا اللهم وإياهم فى زمرة المحبين إليك من عبادك ..
الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .. وألحقنا وإياهم بالصالحين والأبرار .
ربنا .. نضرع إليك أن تهبنا التقى والورع والصلاح ، وأن تقوى
بالإيمان إخلاصنا وعزائمننا .. وأن تحقق رجاءنا فى أن نحيا ونموت
مسبحين ومقدسین لك .. نلقاك وقلوبنا وألستنا تلهج بذكرك وحمدك ..
فأنت سبحانك ربنا وخالقنا وولينا ، وإليك سبحانك ما كنا ، والإخلاص
لك مهجتنا ولبّ إيماننا .. يا رحمن يا رحيم ..

نسألك يا الله بكل اسم هو لك ، علمناه أو احتفظت به فى علم
الغيب عندك ، أن تنير قلوبنا وتوسع مداركنا لنرى حكيم آياتك ونتقبل
بالرضا والتسليم قضاءك .. فأنت سبحانك الولی الحمید ، وأنت الوارث
الباقى .. نسألك يا إلهى أن تشملنا برعايتك ، وتكلاًنا بعنايتك .. وتهدينا
إلى سبيل مرضاتك .. يا أرحم الراحمين .. يا رب .

من تراب (٣٤٠) التنطع الإسرائيلي! (*) الطريق

تأبى إسرائيل إلا أن تدس أنفها في كل شيء ، فمرة تتحدث عن موسى بن ميمون الطبيب الفيلسوف العربى وكأنه من إسرائيل ، ومرة تتحدث عن المعابد المصرية اليهودية في بر مصر ، وكأنها حامية حى الدنيا والوصية على الآثار المصرية .. ثم ها هي تلاحق بدس أنفها الفنانة المصرية الراحلة ليلى مراد .. وبدلاً من أن تحمى كيف عاش اليهود عيشة راضية في مصر عبر العصور ، منهم من أسلم بإرادته ، كليلى مراد ، ومنهم من ظل على يهوديته دون أن يضيق عليه أحد .

بدلاً من أن تحمى إسرائيل هذا الواقع المصرى ، واحتفال مصر بليلى مراد في صورة المسلسل الذى صُنف وأنتج وعرض عن قصة حياتها ، أبت إسرائيل - إلا أن تستأنف التنطع ، فيتصدى ناقد سينمائى إسرائيلى لانتقاد المسلسل ، ولكنه لا يقتصر على النواحي الفنية ، ولا حتى على ما أقرب به من إبراز المسلسل للحياة الرغدة التى عاشتها الجالية اليهودية في مصر ، وإنما يفتعل الأسباب للدعاء بأن اليهود كانوا جزءاً مهماً من تاريخ مصر والدول العربية !

تأبى إسرائيل إلا أن تشد الأمور على دائرة التعصب الدينى .. لأنها

(*) المال ١٤/١٠/٢٠٠٩

كائن قائم على هذه العنصرية الدينية .. وتتجاهل أهم ما فى قصة ليلى مراد وغيرها ممن ولدوا على تراب مصر ، وعاشوا تحت سمائها ، وشربوا من نيلها ، واستظلوا بظلها .. هذه هى القضية .. ليس يهتم ما هى ديانة أو ماذا كانت ثم أصبحت ديانة ليلى مراد .. المهم أنها قطعة من مصر ، عاشت فى هناء وبحبوحه على ضفتى نيلها ، وانطلقت وأبدعت وتألقت فى باحة مناخها .. فى واحة تُساوى بين الناس ، ولا تتوقف عند الأعراق والعصبيات .. لم تلفظ هذه الواحة أحداً من باحتها لدين أو لعرق .. فى موروثها التاريخى مئات من الأمثلة التى صبت فى المساواة والإسماح .. يتسامعون قصة الفاروق عمر حين صادف شيخاً يهودياً ضريراً يتكفف الناس ، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه : « انظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذه عند الهرم » !

فى هذه الواحة الوارفة ، وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يجب الوقوف عنده ، تألقت نجوم فى الحكمة والطب والفلسفة والأدب والفن .. منهم المسلم ومنهم النصرانى ومنهم اليهودى .. لم تغلق باحة المساواة بابها فى وجه أحد لعرقه أو لدينه .. نبغ فى هذا المناخ اليهود والنصارى كما نبغ المسلمون ، وامتألت مصر والأقطار العربية بالأطباء النصارى الذين نبغوا فيها ومنهم من شق طريقه إلى العالمية .. لم يقل الدكتور العبقرى مجدى يعقوب إنه قبطى أو نصرانى ، وإنما هو الطبيب المصرى ابن مصر البار الذى شف عن حنين جارف إلى الوطن يدفعه كل يوم لتقديم حصاد عبقرته لمصر والمصريين .

هذه هى القيمة التى يجب استخلاصها من حياة وسيرة ومسيرة لىلى مراد ، وزكى مراد ، ومنير مراد .. وهى هى التى يجب استخلاصها من تعيين موسى قطاوى باشا - المصرى اليهودى وزيرا للمالية فى القرن الماضى ! ومن عشرات الأمثلة لما نعم به اليهود فى بر مصر .

المشكلة أن إسرائيل تأبى إلا أن ترد الأمور إلى العنصرية البغيضة ، فتنادى بيهودية الدولة التى أقامتها على الوطن الفلسطينى المغتصب .. هذه العنصرية التى تتمسك بها إسرائيل هى باب جهنم للعالم كله .. لو حذت دول العالم حذوها ، لانشطرت البلدان إلى إسلامية ومسيحية ويهودية .. فلكل فعل رد فعل مضاد له فى الاتجاه .. ولن يدوم مشهد التمسك بيهودية الدولة طويلا دون أن يحرك الحساسيات ويثير الاحتقانات ويحىى العصبيات ويشد إلى التطرف .. ويقيم حربا ضروسا بين الأديان !

هذه هى حقيقة الحصاد المر للعرقية والعنصرية الصهيونية الإسرائيلية !

من

تراب (٣٤١)

مباراة رياضية

الطريق

لا معركة حربية !! (*)

لا يمكن لعاقل يتابع الآن ما يكتب في الصحف وما يقال في قنوات الإعلام ، إلا أن يشعر بأننا مقدمون على معركة قتالية مع الجزائر ستدور رحاها هنا في مصر بين القوات المصرية والقوات الجزائرية ، وأن ساعة الصفر من يوم «ى» سوف تكون يوم (١٤) نوفمبر ، وأنا يجب أن نعد العدة ونحشد الحشود منذ اليوم ، أى يوم «ى - ٣٠ » ، يوماً بيوم بل ساعة بساعة حتى نصل إلى يوم «ى - » ثم إلى موعد نشوب القتال ساعة الصفر من يوم «ى» بالقاهرة ، أو ربما أديرنا المعركة عن طريق الإنزال أو الإبرار في الإسكندرية ، أو برج العرب أو غيرهما طبقاً لما سينتهى إليه قرار غرفة العمليات القائمة بالتجهيز للمعركة من يوم «ى - ٣٠» حتى يوم «ى» .. تساعدنا كافة الأجهزة والإدارات النوعية ، واضعة في الاعتبار أن «الحرب خدعة» ، وأن مبادئ الحشد القتالية المتعارف عليها في الحروب تستدعى توحيد الصفوف ، فلا محل لاستمرار تأديب لاعب - أقصد مقاتل - لم يمض سوى أسابيع على تقرير عقابه على تهربه من جندية الجيش المصرى ثلاث مرات ، فكانت الثالثة هى «الثابتة» ، مما لا يجوز معه أن ينال شرف الانضمام إلى القوات القتالية الجارى تدريبها وإعدادها على قدم وساق لخوض المهمة القتالية ، وأن ذلك يستوجب

(*) المال ١٥/١٠/٢٠٠٩

التعبئة العامة وتكريس كل الإمكانيات والجهود للمجهود الرئيسى فى
الخطه القتاليه للمعركه المرتقبه فى ساعه الصفر من يوم «ى» - أقصد يوم
(١٤) نوفمبر ٢٠٠٩ !

ما هذا الهراء المجنون الذى اعترى الخطاب الإعلامى توطئة لمباراة
رياضية ، تجرى فى ملعب رياضى ، بين فريقين لدولتين عربيتين شقيقتين :
مصر والجزائر ، فى مسابقة عالمية رياضية ، هى كأس العالم أو مونديال
كرة القدم التى ستقام نهائياتها عام ٢٠١٠ بجنوب أفريقيا ! بهدف الإخاء
والتقارب ونبذ الحروب والعصبيات والصراعات بين الشعوب والدول
عن طريق الرياضة التى بات قانوناً مقدساً لها ألا تحزن عند الهزيمة ولا
تفرح عند النصر ، فالروح الرياضية هى الهدف والغاية ، ومقتضاها أن
تتعامل مع مبارياتها بروح الرياضة لا باندفاع وحمى القتال !
كان من ضمن المطبوع على غلاف الكراسات التى تُسلّمنا إياها
المدارس الحكومية منذ الأربعينيات عبارة تقول : «لا تفرح عند النصر
ولا تحزن عند الهزيمة» .

هذه الروح الرياضية هى التى دعت وتدعو إلى تصافح اللاعبين
بعد نهاية المباريات ، كما نرى كل يوم فى الملاعب وعلى شاشات التلفاز
فى مباريات التنس مثلاً ، وهى التى دعت وتدعو إلى تصافح اللاعبين
المتبارين قبل بدء الجولة فى الملاكمة والمصارعة ، وهى التى انتقلت
تباعاً إلى مباريات الألعاب الجماعية ، فرى اللاعبين المتنافسين يتصافحون
فى نهاية المباريات ويتبادلون «الفانلات» على سبيل التذكار .. تذكار
المحبة .. لا نُصّب الجندى المجهول أو المعلوم الذى يقام عقب معارك
القتال بعد أن تضع الحرب أوزارها !!

شيء مؤسف حقيقة ، هذه الخُمى التى أحاطت بنا من كل جانب ، فى حماس مجنون ، وعبارات حامية ، وعقيدة راسخة أنه إما النصر المؤزر .. وإلاَّ فإنه الموت الزؤام إذا خسرنا .. أو إذا لم نكسب المباراة بفارق هدفين طبقا لما سوف تقرره الفيفا عن نظام فارق الأهداف واحتساب هدف مصر فى الجزائر بهدفين !

معنى هذا أننا نعبئ قبلة موقوتة جاهزة للانفجار لا للتشجيع الرياضى يوم المباراة ، ومعناه أن هذا الحشد المعنوى المحموم غير المتعقل أو المتمثل بالمثل الرياضية ، سوف يصيب الحياة العامة بالشلل أو ما يشبهه حتى يوم المباراة ، وأنه فى مقابل الفرح المجنون إذا ما تحقق الفوز بالمباراة بالفارق الواجب والصعود إلى نهائيات المونديال - فإن الشعب برمته سوف يصاب بالنكسة وربما معها الإحساس بالعار إذا لم يتحقق الفوز أو تحقق بأقل من الفارق الذى يضمن الصعود إلى النهائيات !

الأدهى والأمر من هذه المخاطر والمحاذير ، أننا بهذا الأسلوب الهمجى نضرب المبادئ بعامة والمثل الرياضية فى الصميم ، ونسئ تربية وتنشئة أجيالنا ، ونصرفهم صرفاً إلى ما يخرج تماماً من مبادئ وغايات ومثل الرياضة ، ونزرع فيهم واعين أو جاهلين أن الغاية تبرر الوسيلة ، فلا مُثل ولا مبادئ ، ولا احترام لقرار صدر صحيحاً من أسابيع فى حق لاعب ، فليذهب القرار إلى الشيطان أو إلى حيث أُلقت ، ولتفتح الأبواب ومعها الأحضان للاعب وكأنه كلمة القدر ولا أمل فى الفوز إلاَّ بمشاركته فى المباراة !

هَبْ أنه اشترك وفزنا ، فما معنى هذا وما أثره ؟!.. هل معناه أن الفوز مربوط بقدمه ؟ .. ثم ما أثر هذا التمحور الفارغ حول لاعبٍ واحد على بقية اللاعبين ؟! ، وماذا لو خسرنا المباراة أو فزنا بغير فارق الأهداف المطلوب ؟! . هل معناه أن ذلك بسبب عدم إشراكه في المباراة ؟!

وأين اعتبارات الإخاء بين الشعين المصرى والجزائرى من هذا كله ؟!!
أيها السادة .. إن المبادئ لا تتجزأ .. فى الرياضة وفى غيرها .. وأمامنا المثل الذى ضربه ويضربه النادى الأهلى فى رفض عودة حارس مرمى هرب بليلٍ هروبا مخزيا أدانته الفيفا ، بينما توجد أزمة أو شبه أزمة فى حراسة مرمى النادى !.. ولكنه مع شدة الحاجة إليه رفض عودته ، وهو هو ما سبق أن اتبعه مع غيره ، فكسب النادى على عكس غيره ، ولا يزال يكسب بمبادئه ، بل ونراه الآن على قمة جدول الدورى بدون حارس مرماه الهارب الذى استقبله جهاز المنتخب القومى بالأحضان ، ولتذهب المبادئ والمثل إلى الجحيم !

بالله عليكم .. هذّثوا من روعكم ! .. إنها مباراة رياضية فيها فوز وخسارة ، وليست معركة حربية لا سبيل فيها إلاّ النصر أو الهزيمة .. الاستعداد والترتيب والتجهيز لتحقيق الفوز واجب .. وذلك يستوجب العقل والهدوء واتخاذ الأسباب فى جد والتزام ، ولكنه لا يبرر هذا الاندفاع المحموم الذى حول مباراة رياضية إلى معركة حربية ، ولم يتحسب لردود الأفعال غير المحسوبة نتيجة هذا الخطاب الذى خلط بين المباريات الرياضية والمعارك الحربية ، ولم يدرك الفارق بين الفوز والخسارة فى لغة الرياضة ، والنصر والهزيمة فى لغة الحرب والقتال !!!!

من تراب (٣٤٢) الخاتم والحديث الرابع (*) الطريق

طفنا مع شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد، مع مقتطفات من قصيدته «الخاتم» بديوانه «العارف» .. بدا لي وأنا أعيد قراءة القصيدة مرة فأخرى ، أن الشاعر الفيلسوف يستخدم لغة الرمز في مخاطبة الدنيا وما تموج به من أسرار ، وتتأرجح فيه بين الإقبال والإدبار .. في كل حديث من الأحاديث الأربعة للقصيدة يتناول الدنيا من زوايا مختلفة ، وحيرة عقله أمامها منذ غادره الطفل الذي كان بداخله فجعل يتمعن ويغرق في التأمل في رحلة العمر التي ترد عليها الأيام .. وتتناوب وتتناوب نفسه وعقله صنوف الأحوال .. ما بين طفولة غادرت ، وحماس في بدايات الحياة تطاير ، وعقل عجز عن استبعاد ما لا قلب له يرق ويألم ، وغيب ذى دهاء تصعب الإحاطة به ، وحنجرة تحجر غناؤها فصار شدوها يعوى كما تعوى الرياح ، وقلب جفت ينابيعه وعواطفه ، وثمار لم يعد لها طالب يقطفها ، ونفس تحادع نفسها فتوارى قلة نصيبها من الدنيا بنقص غيرها .. في دنيا لا يغرها ولا يدينها المديح ، ولا تنفع في صيدها شباك ، غرورة لا طعم للعيش بدونها .. لا يجد لحيرته مرفأ ولا شاطئاً ، فيعود إلى البحر ولججه كما رأينا في الحديث الثالث ، يغوص ليفهم .. فلا فهم في الطفو

(*) المال ٢٠٠٩/١٠/١٩

على سطحه ، يضرب بعقله باحثاً عن إجابات لأسئلة شتى .. حتى يقف في نهاية الحديث الثالث وقد ازدادت حيرته فيكتشف أنه يعيش كلاماً في كل حقبة ، بينما القيم يتقلص ظلها ، وهو كالظل على مسرح الحياة مدسوس ضمن رواية ، ليدخل من بعد ذلك إلى الحديث الرابع والأخير في القصيدة .. فيصور نفسه كأصبع كفّ دار حولها وغطاها خاتم .. فكيف يستطيع أن يرى شيئاً بخارج المحيط الكثيف ، وكيف بعينه تصور له أنه المضيف في هذه الدنيا ، بينما هو ضيف تملؤه الأطماع وتزيف عليه الرؤية ، حتى يرضى الذى مِنْ ظَلَمْنَا إِيَّاهُ بات ظالماً يصول بدعوى العدل ممتشقا سيفه .. وكيف جعل يملأ روضته التى أجذبت وجفت بأقزام العواطف التى لا تصنع دوحة ، ولا ثمرة لها إلا الشكل الذى يغر قلبه ويعزیه ساخراً من شكواه أن حديقته خالية من الخصب ، وقريحته قد أجذبت .. بينما هذا الجذب قديم لا يطيب له عقل ! فهل يقوى على الاستجابة لقلبه ، ويسلم بعناده وجرأته بينما هو مرتع للجبناء والفضلاء .. يطمع فيه الخاملون ، حتى ليصادفه قبح دعاوى الجهلاء !. ليس أمامه إذن إلا أن يتجه إلى نور الله ليصون في ضيائه نقاءه .. يشهد له أن تعمقه في ملكوته هو آية ولائه ، كما يشهد له أنه يعوض نقصه بكماله سبحانه وتعالى . يقول شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد ...

وإِصْبُعُ كَفِّ حَوْلَهَا دَارَ خَاتَمٍ وكيف تَرَى شَيْئًا بِخَارِجِهَا كَيْفًا؟
وَعَيْنِي كَعَيْنِ الْخَاتِمِ الْحَرِّ دَاخِلِي تَرَاكَ مُضِيفًا صَاحِبَ الدَّارِ لَا صَيفًا

وإِنِّي لَأَنْسَى ذَاكَ سَاعَةً عَوْدَتِي
إِلَى النَّاسِ وَالْأَطْمَاعِ تَمَلُّونِي زَيْفًا
لِيَرْضَى الَّذِي مِنْ ظُلْمِنَا بَاتَ ظَالِمًا
يَصُولُ بَدْعَوِي الْعَدْلَ مُتَشَقًّا سَيْفًا

مَلَأْتُ بِأَقْزَامِ الْعَوَاطِفِ رَوْضَتِي
عَلَى أَنْ فِيهَا الشَّكْلَ مَا زَالَ بَاقِيًا
فَكَيْفَ إِذَنْ أَشْكُو خُلُوعَ حَدِيقَتِي
وَجَدَيْ قَدِيمٍ لَا يَطْبُ لَهُ عَقْلُ
تَأَمَّلْتُ وَاسْتَفَدْتُ كُلَّ قَرِيبَتِي
فَلَيْسَ بِهَا دَفُوحٌ يَطُولُ وَلَا نَخْلُ
عِزَاءَ لِقَلْبِي لَمْ يَضَعْ مِنْ يَدِي الشَّكْلُ
مِنْ الْخِصْبِ وَالْقَرْمُ الَّذِي دَاخِلِي نَعْلُ؟
وَجَدَيْ قَدِيمٍ لَا يَطْبُ لَهُ عَقْلُ

أَتَقْوَى عَلَى أَنْ تَسْتَجِيبَ حَقِيقَةً
فَأَنْتَ عِنْدَ لَا إِخَالُكَ سَالِمًا
يَتَوَرَّعُ عَلَيْكَ الْخَامِلُونَ سِيَاسَةً
وَأَقْبَحُ مَنْ كُلِّ الْقَبَائِحِ صَادِقُ
لِقَلْبِكَ لَا كَالنَّاسِ لِلْعُلُوءِ
وَأَنْتَ جَرِيءٌ مَرْتَعُ الْجَبْنَاءِ
وَيَا وَيْلَ مَا تَلْقَى مَنْ الْفُضْلَاءِ
نَحْدَى دَعَاوَى الْعَقْلِ وَالْعُقْلَاءِ!!

أَصُونُ نَقَائِي فِي ضِيَائِكَ عَامِدًا
وَأُحْسِبَ عُمَقِي فِي عِلَائِكَ
وَأُلْصِقُ نَفْصِي فِي كَمَالِكَ شَاهِدًا
أَذَاكَ صَحِيحٌ مَا وَصَفْتُ أُمَ الَّذِي
لَكَيْلَا تَرَى عَيْنِي مِكَانَ نَقَائِي
شَاهِدًا عَلَى أَنِّي مَاضِلٌ عَنْكَ وَلَائِي
وَقَدْ صَحَّ فِي جَهْدِي إِلَيْكَ بِلَائِي
وَصَفْتُ خَيَالِي قُلْتُهُ وَرِبَائِي؟!

من

تراب (٣٤٣) وفاء ولاد البلد ! (*)

الطريق

كنت قد استقلت من عدة شهور من القضاء العسكرى لأعود إلى المحاماة .. بيتى الأصل والرسالة التى خلقت لها .. فى أوائل سنة ١٩٧٧ جاءنى بمكتبى الذى خصصت له غرفة الجلوس أو المسافرين بتعبيرات زمان ، من شقتى الصغيرة بالدقى المكونة من ثلاث غرف وصالة فى (١٠) شارع عكاشة الذى ولد ونشأ ومارس الخطوات الأولى لكرة القدم فيه - الثلاثى الحبيب الكباتن صالح وعبد الوهاب وطارق سليم .. جاءنى المعلم ح . ب من أهالى شبرا .. يشكو إلى ظلم الحكومة التى حققت معه وأحالاته إلى محكمة عسكرية عليا بتهمة إخفاء أشياء مسروقة من القوات المسلحة - طبنجة ٩ مم - وإحرازها بدون ترخيص !

سألته ما الذى أوصل طبنجة للقوات المسلحة إليه حتى يعتب على الحكومة أنها أحالته عنها إلى المحاكمة العسكرية ، فحكى أنه اشتراها بمنتهى حسن النية من السوق بحر ماله ، حين أعلنت الحكومة فى أعقاب نصر ١٩٧٣ أنها تعطى فترة سماح للتبليغ عن حيازة الأسلحة غير الآلية لترخيصها .. وأنه إذ صدق الحكومة وأخذ الطبنجة مشتراً وذهب إلى قسم شرطة روض الفرج للتبليغ عنها وترخيصها .. إلا أنه فوجئ هناك

(*) المال ٢٠/١٠/٢٠٠٩

بأن الإجراءات المقررة تستوجب عرض رقم قطعة السلاح على القوات المسلحة للاستيثاق من أنها ليست لها ، ثم شاء نكد طالعه أن استبان من رقم الطبنجة أنها للقوات المسلحة سرقت أو تسربت فيما تسرب إبان نكسة ١٩٦٧ .. فأحالة الشرطة إلى النيابة العسكرية التى بدأت التحقيق معه ، حيث روى روايته وطفق يرسل المراسيل لإحضار من باع الطبنجة إليه ، فاستبان له مصيبة أخرى أن البائع نصاب استخدم اسما مزيفا وفص ملح وداب بعد أن قبض منه الثمن !

كان الصدق واضحا فى لهجته ، وقد علمتنا الممارسة الطويلة وبعض ما عركناه فى علم النفس ، أن نزن ما نسمع ، وأن نفرز الصدق من الكذب ، والصادق من المحتال .. فقررت قبول القضية ، ولكنى فوجئت أن مرام الرجل الطيب ليس النجاة من العقوبة الجنائية ، فهى ليست فى تقديره ولا يتصورها ، وإنما هو يريد أن يسترد الطبنجة لأنه دفع ثمنها من ماله ، واشتراها يجسن نية ، ولم يكن بمستطاعه أن يعرف حين اشتراها أنها تخص أصلا القوات المسلحة أو مسروقة منها ، لأن الطبنجة - وكانت ماركة حلوان ٩ مم - من منتجات المصانع الحربية ، ولها مثل وتباع بالأسواق ، وأنه ضحية حسن النية ، هكذا قال له البعض ، فكيف يأخذون منه الطبنجة بعد أن دفع ثمنها من ماله الذى جمعه من كده وعرقه !

طلق الرجل الطيب يطالبنى ببذل ما أستطيع لاسترداد طبنجته ، مادام الأمر العسكرى الذى استجاب له يعفيه صراحة من عقوبة الإحراز أو الحيازة بدون ترخيص .. فما المشكلة إذن فى أن يردوا إليه الطبنجة أو

ثمنها المدفوع . أما السرقة فلا شأن له بها ، والإخفاء فلا محل له لثبوت حسن نيته وعدم علمه بأن الطبنجة مسروقة من الجيش مادام لها مثل بيع في الأسواق !!

بذلت مجهوداً مضنياً في إقناعه بأن الحكم ببراءته هو غاية المراد .. إيراؤه من تهمة الإخفاء إذا اقتنعت المحكمة بانتفاء العلم والقصد الجنائي ، وإعفاؤه من عقوبة جريمة الإحراز بمقتضى الإعفاء الذى تضمنه الأمر العسكرى لمن يبادر فى خلال المهلة بتقديم ما لديه من سلاح !

ترافعت فى القضية أمام المحكمة العسكرية العليا ، وكانت آنذاك بمعسكرات العباسية بالمنطقة العسكرية المركزية ، فقررت المحكمة بعد سماع المرافعة حجز الدعوى أسبوعين للحكم .. وتصادف يوم الحكم الذى صدر بالبراءة ، أن كنت جالساً مع بعض الزملاء تحت شجرة وارفة أمام غرفة المحامين ، لأفاجأ بالمعلم ح . ب وقد جاءنى فرحاً مهللاً وشاكراً .. وبادر والفرحة تغمره ، بأن أخرج حافظته ليدفع لى ٣٠٠ جنيه مؤخر الأتعاب المستحقة عن الحكم بالبراءة .. وكان غريباً جداً أن يبادر الرجل هذه المبادرة مع أنه لفت نظرى أنه كان قد أحضر مقدم الأتعاب بفئة الجنيه وشرع يومها فى عده جنيهاً جنيهاً ، لولا أن كفيته ذلك مؤكداً له ثقته فى أمانة عده .. ولكنى لم أملك أن أمد يدي لأخذ مؤخر الأتعاب .. وكان المبلغ آنذاك قيمة لى على الأقل .. وأشارت عليه بإحضاره إلى المكتب فى المساء .. ولم أحمأ أعود إلى الزملاء حتى بادرنى القدأمى بالنقد والضحك لفرط سذأجتى واعتقادى أن الرجل

سيأتى إلى المكتب .. وقال قائلهم : ألم تسمع مقالة مكرم عبيد إن أعداء المحامى هم موكلوه ، فهم أعداؤه إذا خسر القضية ، وأعداؤه أيضا إذا كسبها ليهربوا من سداد مؤخر الأتعاب !

أجل سمعت . ولكنى سمعت من أبى رحمه الله رحمة وإسعة ، وكان من جيل المحامين العظام فى الزمن الأول - سمعت منه تحذيرا .. قال يوم بدأت معه المحاماة فى أغسطس ١٩٥٩ : إياك من ثلاثة أخطاء .. إياك والسماسة ، وإياك أن تخادع المحكمة فى بيان مرجع أو حكم تستشهد به ، ثم إياك أن تتقاضى مليا خارج مكتبك .. لم أتصور ولا كان فى وسعى أن أقبض المؤخر وإن كان حقى - بخارج مكتبى ، حتى وإن كلفنى ذلك ضياعه !

من الزملاء من قدّر وجهة نظرى ، ومنهم من افتعل ذلك ، ومنهم من لم يستطع أن يخفى ابتسامة إشفاق .. ولكن المدهش أن المعلم ح . ب الذى قطعوا بأئنى سوف أرى أنه فص ملح وداب ، ولن يأتى إلى مكتبى أبداً ، لا هذا المساء ولا فى أى مساء .. كان المدهش العجيب ، أن هذا الرجل البسيط جاءنى ليلا ليدفع ما عليه مشمولاً بشكره وعرفانه .. وفاءً بواجب علمتنى الحياة أن أتوقعه من البسطاء وأولاد البلد قبل أن أنتظره من أولى الثراء والأحساب والأنساب !

من

تراب (٣٤٤) نعمة الصبر (*)

الطريق

كلمة «الصبر» تكاد تكون أكثر الكلمات العربية استخدامًا في حياة الناس .. تجرى على ألسنتهم بالسليقة والفطرة ، وقلما يتأملون معناها .. أو يدركون غايتها .. مع أن الكلمة تسلفت إلى وجدان الناس من كتب الأديان .. والقارئ للعهدين القديم والجديد ، يصادفه التنويه بالصبر في الأناجيل وفي المزامير .. فالذي يثبت ويصبر إلى المنتهى هو الذي يخلص (متى ١٠ : ٢٢ ، ٢٤ : ١٣ ومرقس ١٣ : ١٣) .. والدعوة إلى الصبر والاصطبار هي الطريق إلى الرب : «فاصطبر للرب اسائر» (أشعيا ١٧ : ٨) .. «انتظر الرب واصبر له» (المزامير ٧ : ٣٧) .. فالثمرة تأتي بالصبر .. «بصبركم اقتنوا أنفسكم» .. «وليعطكم الله الصبر والتعزية» .. «يحسب قدرة مجده لكل صبر» .. «امتحان إيمانكم ينشئ صبرا»

والصبر في القرآن المجيد من «عزم الأمور» .. ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .. ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] .. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .. ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] .. التواصى بالصبر واجب : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

(*) المال ٢١/١٠/٢٠٠٩

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿ [البلد: ١٧] .. وهو عدة الإنسان في الشدائد والملمات : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ﴿ أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] .. والصابرون أحباب الله الذين يحبهم سبحانه وتعالى ويحبونه ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] .

على أن الناس درجوا على إحلال ألسنتهم محل عقولهم وقلوبهم .. تدوالت الكلمة وكثر ترديدها دون تمثل معناها .. ساهم في ذلك كثرة الكلام والتفاسح وقلة العقل والتأمل .. تتردد كلمة الصبر في الأسواق ، وفي المشاحنات .. وفي الأمثال : «الصبر طيب» .. «الصبر مفتاح الفرج» .. «إن الله مع الصابرين» .. وتسلفت الكلمة المتكررة التريد بغير تفقه - تسلفت إلى أسماء الإناث والذكور .. فدرج الناس على أسماء : صابر ، وصبرى وصابرين ، وصابرة ، وصبيرة ، وعبد الصبور .. وانتقلت من لغة التخاطب والأمثال إلى منظومات الشعراء وأبيات الأغاني .. ما بين عدة الصبر للمغبونين والمظلومين والمحرومين ، على نحو أغنية : الصبر والإيمان ، دول جنة المحروم .. وأحيانا في لغة المحبين والعاشقين .. فهذه تنادى العطارين أن يدلوها على منبع الصبر .. وآخر يتشكى من لومه على صبر قلبه على محبوبته التى هان الود عليها .. وهذه تشكو سراب الصبر : «وصفوا لى الصبر لقيته خيال وكلام فى الحب يادوب يتقال» .. حتى إذا لم يعد فى قوس الصبر منزع ، تفجر اللواعج : «للصبر حدود»! .. وهذا من كثرة صبره اشتكى الصبر منه .. وهذا صابر وعمره أيامه تجرى ، أو تائه يخاف أغوار بحوره وبُعد شطآنه .. وهذا يتغنى

بموال : «أنا بعلم الصبر يصبر على صبر حبيب جارنا ، ويقول يا صبر صبرك عليه حتى يحى يوم جارنا» !.. ومن لبنان يصدق صناجة الجبل :
«يا عيني على الصبر» !!

قد لا تجد في أى لغة من اللغات كلمة كالصبر قادرة هذه القدرة على الإيحاء بمعانى الحب والعشق والغرام ، قدرتها على الدعوة إلى الجد والالتزام وعزم الأمور .. تجدها في الكتب السماوية في معرض حث الإنسان على «قيمة» ترتد إليها كل الأمور ، و «عدة» يستعين بها في الشدائد والملمات .. وتجدها في الأشعار والأغاني مصورة للصبر على الحب والعواطف وعلى الصد والهجران .. وتجدها في لغة العامة أداة جاهزة لتطبيب الخواطر وكفكفة الغضب أو العجلة والاندفاع !

ظنى أن هذه الصلاحية المتعددة الاستعمال ، مردها إلى أن الصبر قوة وعزيمة .. هذه القوة تترجم إلى قدرة مانحة لقدرات أخرى تصاحب الصبر وتدفع الممسك به إلى المضي في جده إن كان جادًا ، وعلى تحمل النوائب إن أحاط به مكروه .. وتحصنه من فقدان خيط الأمل أو خبو وانطفاء الروح .. ولا بأس بعد ذلك من تعدد أنواع وأحوال الاستخدام .. كشأن عصا موسى الذى قال لربه إنه يهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى !

والصبر ملكة داخلية .. واستعداد ومران .. فيهما اعتياد وترويض على عدم مفارقة الهدوء ، ومقابلة الصعاب باتزان وثبات ..

لقد أوشك الناس في عصرنا على مفارقة الثقة في عقولهم ، فجمحت ردود أفعالهم ، وفقدوا الاتزان والثبات ، وهما معنى وعلامة الصبر !!

من تراب (٣٤٥) أقدار! (*) الطريق

في ١٧ سبتمبر ١٩٥٩ ، تقدمت إلى منطقة تجنيد الإسكندرية ،
يحدوني الأمل في أن أعود إلى مكتب أبي بشين الكوم لأستأنف معه
العمل بالمحاماة التي بدأت أولى خطواتها منذ حلف اليمين أمام المستشار
محمود عبد اللطيف - يرحمه الله - في ١٩ / ٨ / ١٩٥٩ .. ولأنه سبق أن
أجريت في الأربعينيات عملية فتق إربي ، واستجد آخر في الناحية
المقابلة ، ارتأى الدكتور الفاحص الأول بالقومسيون الطبي أنى غير
لائق للخدمة العسكرية .. ومكثت في انتظار تصديق رئيس القومسيون
قراءة ثلاث ساعات طفق الأمل يداعبنى فيها أن ألحق بذيول العصارى
إلى طنطا ، ومنها إلى شين الكوم .. ولكن رئيس القومسيون وأذكر أنه
كان يومها الدكتور كمال عطيه رفض التصديق وأشر بأننى لائق ، وعليه
انتقلت في غمضة عين من القومسيون الطبي إلى معسكر الاستقبال بذات
معسكرات مصطفى باشا التي كان فيها منطقة تجنيد الإسكندرية .

كنا دفعة من المؤهلات العليا .. التقانا يومها ضابط برتبة مقدم ،
دفعه إشفاهه علينا من صدمة الانتقال السريع من الحياة المدنية إلى الخدمة
العسكرية الشاقة بأوامرها الصارمة ، إلى أن يتبسط معنا ونحن جلوس

(*) المال ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٩

أمامه على الأرض ، ناصحًا حتى نتأقلم بلا آلام - بأن نترك شهادتنا على الباب قبل دخول المعسكرات .. فحضورها النفسى سيجعل الاستجابة للأوامر العسكرية ومصدرها عملية عسيرة إذا ما ظلت الأمور محكومة فى داخلنا بفوارق الشهادات !

وسرعان ما أدركت حكمة نصيحته .. فقد تسلمنا بعد دقائق رقيب لا زلت أذكر أن اسمه عزازى .. جمعنا حوله فى صورة مربع ناقص ضلع ، وأمام أكوام من المهمات التى كان علينا أن نتسلمها لنخلع الزى المدنى ونرتديها .. فجعل يسلمنا صنفًا صنفًا وينادى : هل كل عسكرى معه (٤) مناديل ، فنجيب «أيوه» .. فينادى : هل مع أحد ثلاثة ، فنجيب «لا» .. فيكرر : هل مع أحد خمسة ، فنجيب «لا» .. فينادى : «تأبى» .. أى ضع المناديل بعد التأكد من عددها فى «المخلاة» التى تسلم كل منا واحدة له منها .. ظللنا على هذه الحال نحو ساعتين حتى فرغنا من الاستلام وملء «المخلاة» بالملابس العسكرية الجديدة التى كان لابد من تقييفها لتناسب مقاس وطول كل منا .. كان الغروب قد زحف حينها استطعت أن أستأذن من الرقيب عزازى ليسمح لى بالمبيت بالخارج لصباح اليوم التالى الذى كان علينا أن نسافر فيه بالقطار لترحيلنا إلى منطقة تجنيد القاهرة ..

بدا لى يومها أننى قد وقعت من شاق .. كنت قد خطبت منذ ٣٠ أكتوبر ١٩٥٨ أثناء اليسانس ، تداعبنى آمال عريضة فى سرعة التهيؤ لإتمام الزواج بعد أن جاءت الأيام الأولى مبشرة فى المحاماة لى جوار أبى الذى كان - رحمه الله - واحدًا من عظمائها .. تخرج عام ١٩٢٥ فى ذات

كلية الحقوق جامعة القاهرة التى تخرجت فيها إيان أن كان اسمها مدرسة الحقوق الملكية .. استقبلنى - رحمه الله - واستقبلتنى المحاماة بترحاب ، واقترب الأمل فى عقد القران .. ثم إذ بى فجأة جندى مستجد ، يرتدى «أوفر أول» مهرول يحتاج إلى تقييف كبير بلغة العسكر ، وحذاء بيادة ثقيل .. أقف فى طابور صباح ١٨/٩/١٩٥٩ أمام الرقيب عزازى ليقودنا من معسكرات مصطفى باشا إلى محطة سيدى جابر يحمل كل منا «مخلاته» سيرًا على الأقدام التى جعلت تدق على الأسفلت ، تطالعنا العيون الفضولة من على المقاهى والأفريز ، وأخرى تطل علينا من شرفات ونوافذ المنازل المصطفة على جانبي الشارع .. على محطة سيدى جابر ، جلس كل منا على «مخلاته» .. ومكثنا نحو ساعة ونصف قبل أن نركب درجة ثالثة فى القطار القشاش الذى يقف فى جميع المراكز ، حتى وصلنا إلى محطة باب الحديد نحو الخامسة ، ومنها إلى قطار آخر من محطة كوبرى الليمون .. أمضى مع رفاق الجندي رافعين على الأكتاف «مخلات» كل منا ، مارين على الأقدام فى ذات الميدان الذى سبق أن شاهد عياقة الشباب التى كنا نتخايل بها أيام الدراسة .. ولكن فى محطة النزول بالزيتون كانت المفاجأة الأكبر .. لم يجد الرقيب عزازى اللوارى التى كان مفروضًا أن تقلنا من المحطة إلى منطقة التجنيد التى تبعد عدة كيلومترات .. لم يكن هناك بد من أن نقطعها مشيا فى طابور حاملين مهماتنا نوء بوزنها وبثقل الأحذية البيادة التى لم نعودها .. حتى استقر بنا المقام بمعسكر استقبال القاهرة بعد أن سلمنا الرقيب عزازى إلى رقيب آخر ، لتبدأ رحلة جديدة

استمرت فى القوات المسلحة سبعة عشر عامًا حتى تركتها آخر ١٩٧٦ بناء على طلبى لأعود إلى المحاماة التى عشقتها وعشقتنى وأمضيت فيها عمرى ! لم تكن الرحلة هيئة المسار .. بدأتها فى بطارية تدريب المدفعية فى المظلة ، ومنها بعد أيام إلى اتحاد المدفعية الرياضى ، لأمارس فيه التنس والسباحة .. وأكتشف أن صرامة الجندية والأقدمية لا تفارق العسكرين أينما كانوا .. الحاكمدار لأى فريق هو الحاكم الأمر الإله .. نبدأ يومنا كل صباح بالكنس والرش حول حمام السباحة الذى كنا نتدرب به فى عز الشتاء ، ونخوضه بعد تفرغى فى نهاية الأسبوع لتنظيف أرضياته وجوانبه بالفرشاة .. لا زلت أذكر مداعباتنا وزميل الدفعة بحقوق القاهرة وائل عباس فهمى السفير بالجامعة العربية فيما بعد .. وكيف كان الحاكمدار الباشجاويش عبد الحفيظ يناديه «واكل» بلهجة الصعيد .. كانت أيام .. جرت بأقدار لم تكن فى الحسبان .. من الجندية بعد عام ، إلى ثمانية أشهر بالغة المشقة فى دفعة الجامعيين بالكلية الحربية ، ومنها إلى الكتبية الثانية المشاة باللواء السابع بالعامرية ، لبدأ الطائر رحلة فى القضاء العسكرى استمرت ستة عشر عامًا مليئة بالأحداث والذكريات قبل أن يعود الطائر إلى عشه وينطوى فى معشوقته المحاماة !

من تراب (٣٤٦) غربة القريب ! (*) الطريق

أن يشعر الإنسان بالغربة وهو خارج وطنه أو بعيد عن بلده وأهله وأصدقائه - فذلك إحساس طبيعي لا غرابة فيه ، يترجم عن الشعور بالغربة في محيط غريب غير المحيط المعتاد الذي يعيش فيه .. ولكن ما يستدعى الالتفات ، ويستأهل التفسير: الشعور بالغربة الذي يمكن أن يتتاب الشخص بداخل محيطه وعلى أرض وطنه وبين أهله وذويه وأصدقائه وزملائه ومعارفه .. ووجه الغرابة أن المكان وشاغليه المحيطين به ، مألوفون له ، يعيش بينهم ويتعامل معهم ويرتبط بهم بقرابات أو صلات أو علاقات .. فكيف يشعر بالغربة وسط من يلاقيهم اليوم كما لقيهم بالأمس القريب والبعيد .. ما الذي طرأ أو استجد حتى يشعر بالغربة وسط المحيط القريب الذي عاش ويعيش فيه ؟!

لست أقصد بغربة القريب في محيطه ، ما قد يستشعره الشخص حين يفارقه الشباب وتفتحهم الشيخوخة فينكرها ويستغربها ويستوحشها ويرأوده النزوع أو الحنين إلى ماضي الشباب الذي ولَّى ، أو ما يلم بمن يخسر ثروته ويستوحش الفقر بعد الغنى ، وإنما أقصد إلى غربة القريب وسط محيطه ، دون أن يفقد هو شخصيا ما يوحشه أو يدفعه إلى الإحساس

(*) المال ٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٩

بالغربة ! ترى هذا المعنى الذى أومىء إليه ، فى كلمات الفيلسوف الأديب
أبو حيان التوحيدى .. كان يقول :

«أغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه ..

وأبعد البعداء من كان بعيداً فى محل قربه ..

لأن غاية المطلوب أن يسلو عن الموجود ..

وأن يغمض عن المشهود ..

وأن يقصى عن المعهود !

يا هذا الغريب !!

الذى إذا ذكر الحق هَجَرَ

وإذا دعا إليه رُجِرَ !! »

هى إذن الغربة التى يحسها قائل الحق المتمسك به .. لأن الناس
درجوا - حكاماً ومحكومين - على الترحيب بما يرضيهم ، والضيق بكل
ما يعتقدون أنه ينغص عليهم ، ويفتح أبواباً يريدون لها أن تنغلق ، ويشير
أموراً يبتغون أن تتوارى وتندثر .. إثارة السلامة وعشق الذات وإيثارها
على كل ما عداها - آفة آدمية ، يكاد لا ينجو منها إلا القلة القليلة ..
وأغلب الناس على عشق ذواتهم ، وعلى كراهة الحق وإنكاره إذا خالف
مصالحهم ، وعلى النفور ممن يحرك السواكن ويوقظ ويتزعزع وينبه إلى
العيوب والمثالب !

الغربة التى يعينها التوحيدى ، ليست الغربة المادية .. وإنما الغربة النفسية التى يستشعرها القريب حين يحس أنه لم يعد يعيش فى دنياء التى تتواءم مع عقله وفكره وقيمه ومبادئه .. لا هو راضٍ بما درج عليه معظم الناس ، ولا هم يمكن أن يقبلوا أو يرتاحوا لما لا يستطيع السكوت عنه فيفصح عنه ويصدق به !!

وقد يشعر بالغربة فى محيطه حين تتنامى ملكاته وأفكاره ورؤاه ومناقبه ، تناميا لا يجاريه ولا يلاحقه ولا يقبله خفوت شعلة المبادئ والقيم والإخلاص عند الغالب الأعم من الناس ! وقد يزداد الفرق اتساعاً فيحرك لدى ضعاف النفوس الغيرة والحسد ، ويوغر الصدور ، وتعتل منه القلوب ، وتلتهب الأهواء فيشعر القريب أنه غريب فى محل قربه بين من ضاقت صدورهم عن الاتساع له ، أو قعد قصورهم عن التحليق معه أو اللحاق به !

لا تقتصر الغربة على المحيط الخاص ، بل تكون أنكى وأشد على المستوى العام .. حين يتواضع مَلَاك الأمر على محاصرة الناهيين وتغليق السبل على أصحاب الرأى .. حول الدائرة الضيقة المسككة بمقاليد الأمور ، تتجمع دوائر أوسع من الخاملين وطلاب المنافع .. لا سبيل أمامهم فى ترخصهم إلا محاصرة العقول النابهة المتقدمة والملكات الخاصة ، فتتناقص شيئاً فشيئاً أمام الناهيين الدوائر التى يمكن أن يتواءموا معها ، وتتقطع الأسباب بينهم وبين المجموع العام الذى يفقد بابتعادهم أو إبعادهم - العقل الذى كان يمكن أن يقود ويسدد خطاه !

عند ذلك يضمّر العقل الجمعى ويتراجع بالضرورة ، ما دامت رياداته محاصرة ومعزولة تُقابل بالصد والنكير ، وبالسباب والقذائف واللكمات .. فيؤثر النابهون الالتحاف بغربتهم ويلوذون بالصمت ويعرضون عن المشاركة ، وتتجذر الغربة وتتحوّل مع الأيام إلى إحساس هائل بالانفصال التام عن المحيط !

تخسر المجتمعات خسارًا كبيرًا هائلًا ، حين تنفصل الصفوة النابهة عن تيار الحياة .. فهذه الصفوة هى عقل الأمة ، وهى القاطرة التى تشدها وتحدد وتصوب لطريقها معالم الاستنارة والرؤية الصافية المجدولة بالحكمة والتجرد .. ظننى أن ما يجرى الآن فى بلادنا ، قد نحى قامات عالية كانت جديرة بأن تعبر بسفينة الوطن إلى شاطئ السلامة والأمان !

من

تراب (٣٤٧) الردة العقلية والحضارية! (*) الطريق

من يراقب بإمعان ما يجري بيننا في بلدنا هذه الأيام ، لا يملك إلا أن يستهول ما صارت إليه أحوالنا من تراجع مخيف دلت عليه أعراض وظواهر مرضية بدأت تشرئب وتزايد من سنوات .. تحول الحوار إلى شجار ، وحلت الكلمات وربما طلقات الاغتيال ، محل الحجج والبراهين والآراء .. ضاق الأفق وضاعت معه الصدور ، وضمير الفكر ، وعلت نبرة الكلام الذى ضل هدفه وتاهت منه غايته .. لا يكاد أحد يبدي فكراً أو يطرح رأياً إلا وتعاجله فرق الضرب واللكم والكاراتيه ، أو الرجم بالكفر ، أو قذائف السباب بأقذع الألفاظ .. من يراجع التراشقات والانفلاتات الدائرة الآن في مصر ، يصدمه أنها آية ظاهرة على تراجع العقل وزحف الفراغة وعقم التفكير وتفشى لغة البلطجة .. شيوع هذا التراجع يؤدي إلى تعقيم العقل وتجميد الفكر وإغلاق كل منافذ التقدم والإصلاح !

والسؤال الذى يطرح نفسه بشدة هذه الأيام .. لماذا تجاوزت حملات البذاءة في بعض الصحف - كل حد ؟! ولماذا لم يعد معظم الناس ينشدون

(*) المال ٢٧ / ١٠ / ٢٠٠٩

سوى صحافة الفضائح والإثارة؟! وأين العقل الفردى والجمعى من
نفسى وانتشار هذه الآفات والقذائف اللسانية؟!

من ضيق الفكر وتراجع العقل وجموح التعصب ، أن تعجز عن رؤية
ما يراه غيرك ، وأن لا تواجهه إلا بالرفض وربما بالإدانة والشجب ، قبل
أن تتيح لنفسك فرصة مناقشته والتأمل فيه !

ومن مظاهر تراجع العقل أن لا تُرى الأمور إلا من نُقِبَ إبرة !. من
هذا التراجع أن يحتقن المسلمون لتنصر واحد كان منهم ، وأن يحتقن
الأقباط لإسلام واحد كان منهم .. مع أن العالم ملئ بمئات الملايين من
المسلمين ، ومئات الملايين من المسيحيين ، ولن يزيد هؤلاء وأولاء بإقبال
واحد ، ولن ينقصوا بإدبار آخر !!!

ومن مظاهر هذا التراجع العقلى أن يُحسب خطأ الفرد على أسرته أو
قبيلته أو فئته أو طائفته .. مع أن الخطأ خطأ واحد .. لا ذنب ولا جريرة
فيه على أسرته أو قبيلته أو فئته أو طائفته .. من أجل هذا تتعقد الأمور
وتزداد وتربو العداوات !!

وفي الوقت الذى تشغل فيه إسرائيل بهدم وتخريب المسجد الأقصى
وتهويد القدس ، نتعارك نحن حول النقاب الذى يحجب وجه المرأة .. لأنه
عورة .. مع أنه خلقه الله تعالى ، جعله سبحانه لحكمة وكرامة !! ولا
يسأل أحدٌ من المثنجنين نفسه لمِ إذن أمر القرآن المجيد بغض البصر عن
النظر للمرأة؟!

من دلائل التراجع الفكرى والحضارى ، أنه بعد قرابة قرن من الزمان
الذى تنادى فيه قاسم أمين وغيره من المتنورين - بتحرير المرأة من أغلال

القرون الماضية - نرتد ونعود إلى اعتبار المرأة عورة من قمة رأسها حتى
أخص قدميها .. حتى وجهها وكفيها ، وألا نرى سبيلا إلا إخفاء عورة
الوجه بستار النقاب ، وحجب عورة الكفين بالقفاز !!

ومن الغريب اللافت أن يتعمى المجتمع عن زنى المحارم الذى
أخذ يتفشى فى العشوائيات حيث تتلاحم وتتراكم الأجساد والأنفاس
فى المزانق الضيقة ، بينما يثرئ فريق من الناس لنعت وجه المرأة بأنه
«عورة» توجب أن يُسدل عليه نقاب ؟!

والغريب أن الذين يتنادون بحجب وجه حواء وراء نقاب ، لا يمانعون
فى أن يُعلم وتتعلم ، وفى أن تتخب وتُتخب للمجالس النيابية والشعبية ،
وفى أن تؤدى دورا فى المجتمع لم يعد بمستطاع أحد أن ينكره .. ولكن
لا يكلفون خاطرهم الشريف ببيان كيف يمكن لحواء أن تنهض بهذا كله
ووجهها «عورة» محجوبة بنقاب !

وفى الوقت الذى صار فيه العالم قرية صغيرة عبر الفضائيات ،
ويستطيع المشاهد أن يطالع كل ما فيه وأن ينتقل من أقصى الجنوب إلى
أقصى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب ، بمجرد ضغطه على زر مفتاح -
إلا أننا لا نزال أسرى متجمدين عند الهامشيات والشكليات ، لا يجوز
علينا العقل إلا بأن وجه المرأة عورة يجب أن ينسدل عليه ستار النقاب !
وفى الوقت الذى راجع التيار الإسلامى فى تركيا نفسه ، وانتهى
إلى حزب العدالة والتنمية الذى قبله الناس ولم يرفضوه - نرى التيار
الإسلامى محلك سرفى مصر ، لا يزال المعتدلون متوقفين عن المراجعة ،

والمطرفون يترددون فيها ، بينما لا تجد السلطة سبيلا للحوار إلا القمع والاعتقال !

لا أدري ماذا وراء بداية شيوع تعبير «مصر الفرعونية» و«المصريون الفراعنة» ، حتى بات يطلق على المنتخب المصرى لكرة القدم : «فريق الفراعنة» .. هل هناك علة معلومة أو غاية «رجوة أو خطة مقصودة وراء إحلال «الفرعونية» محل «العربية» .. مع أننا نلعن الفرعون فى كل تلاوة وفى كل صلاة؟!!!

إلام ترتد كل هذه الظواهر المؤسفة التى زحفت علينا .. لقد صرنا على غير ما كنا عليه ، وتراجعنا وارتدنا بدلاً من أن نواصل التقدم والاستتارة .. هل هو فراغ المَعِين وضحالة الثقافة والمعرفة؟! .. هل مرده إلى ضيق الأفق وضمور الفكر وضيق الصدر وقلة الصبر؟! .. أم أنه الجمود والتعصب وحالة الاستقطاب وحب الاستعراض والانتصار للذات؟! إن مصالح الوطن العليا قد صارت على المحك نتيجة حالة الاحتقان والهيجان ، والتراجع العقلى والردة الحضارية ، والتعصب والتطرف .. فهل يتقدم عقلاء الأمة ليتنادوا بوقفه نراجع فيه أنفسنا .. ما كنا عليه ، وما صرنا إليه ، وما ينبغى أن نرنو ونتطلع إليه لنعاود التقدم إلى حيث ينبغى أن نكون؟!!

من تراب (٣٤٨) سرف التقاضى ! (*) الطريق

من الظواهر التى باتت مألوفة ، الإسراف الشديد جدا فى التقاضى ، حتى حلت القضايا لدى الكثيرين محل معظم الحلول التى يجب على الناس أن يأخذوا بها قبل اللجوء إلى القضاء باعتباره الحل الأخير إذا استحال كل الحلول !!

أسرف كثيرون فى التقاضى .. حتى فى مسائل الرأى والفكر ، والكتابة والتأليف ، والدين والعقيدة .. حتى شاع بصورة غير مألوفة - رفع ما صار يسمى بدعاوى الحسبة التى ترفع بلا صفة ولا مصلحة شخصية احتساباً لله سبحانه وتعالى .. وقد أدى شيوعها والخلط فى معناها وغاياتها ، وإسراف البعض فى رفعها والخلط فى مبانيها ، إلى تدخل المشرع لتنظيم رفع مثل هذه الدعاوى بما يضمن عدم إساءة استخدامها فى مضرة الناس وإقلاق أمانهم والإساءة إليهم بغير موجب ولا مقتضى ، فأصدر لذلك - القانون رقم ٣ لسنة ١٩٩٦ الذى جعل للنياحة العامة دوراً فى أسلوب وخطوات رفعها يضمن عدم الانحراف فى استعمالها !

على أن إسراف الناس فى التقاضى لم يقتصر على دعاوى الحسبة ، فأسرف كثيرون فى رفع الدعاوى القضائية بشتى أنواعها ، الشرعية

(*) المال ٢٨/١٠/٢٠٠٩

والمدينة والتجارية والإدارية فضلا عن الجنائية .. واستسهل البعض أسلوب التقاضى بدل التفاهم أو التفاوض أو التصالح أو الحوار .. ودرج البعض على استيسار رفع دعاوى مبنها رجم عباد الله بالكفر ، وهو رجم لا يشفع فيه حتى الإخلاص للدين .. فالدين يأمر بالموعظة الحسنة ومجادلة الناس بالتى هى أحسن .. وأجدى للدين ولعمامة الناس والرأى العام أن يواجه الشارد إن كان قد شرد والجانح إذا كان حقيقة قد جنح - بالحجة والموعظة والبيان الذى يرده إلى الصواب ، وينير السبيل لغيره حتى لا يتردى فيما تردى فيه من شرود أو جنوح !

ومع أن القانون يعطى حق الرد لكل من يتضرر مما عساه يمس به بطريق النشر أو غيره ، إلا أن معظم المتضررين - عن حق أو غير حق - يسارعون إلى المقاضاة ، ويفضلون البلاغات أو الدعاوى الجنائية المباشرة ، ربما لأنها تحقق نوعاً من الثأر أو الكيد أو الإساءة ! .. ولم يعد أحد يكتفى بحق الرد ، بل وقد يصرف النظر عنه اكتفاءً بنكاية التبليغ أو الدفع إلى ساحة القضاء الجنائى بأسلوب الادعاء المباشر !

وقلّ إلى حد الندرة من يكتفى بحكم أول درجة ، فأسرف المتقاضون فى استعمال كل وسائل الطعن فى الأحكام ، بالاستئناف ثم بالنقض ، دون أن يقبل أحد الارتضاء بالحكم الصادر فى أى مرحلة ما دام القانون يفتح سبيلاً لاستئنافه أو الطعن عليه !

هذا الإسراف فى التقاضى ، أو فى الحلول القضائية بعمامة ، ظاهرة مرضية مردّها إلى ضيق الأفق وضيق الصدور ، وإلى حالة الاشتجار التى

تُنحى المنطق ولغة العقل والتفاهم ، وتؤثر التقارع والتصارع والتلاكم ..
ثم هى تبدد طاقات الأفراد والمجموع ، وتصعد المشاكل ولا تحلها ..
وقد تذهب بها إلى أضيال تستغرق السنين فى أروقة المحاكم التى ضاقت
بكثرة القضايا والمنازعات التى تؤثر الخصومة على التفاهم والتراضى !

سرف التقاضى جعل معظم الناس فى حالة اختصام واشتجار ، وساهم
فى تجذير العداوات ، وتعكير الودائع وإفساد الصلات والعلاقات ، وهذا ضيق
نظر وغياب عقل .. فمن يعرف جحيم التقاضى يؤثر الحلول الرضائية
الاتفاقية ، بل ويؤثر الصفح والغفران .. ومع أننى أعمل بالمحاماة منذ
أكثر من خمسين عامًا ، ويعاوننى فى مكتبى عدد من الزملاء الأكفاء ،
إلا أننى لم أستيسر قط اللجوء إلى التقاضى ، أو المبادرة إلى مقاضاة من
أساءوا لى .. حتى وإن كانت المقاضاة مضمونة النتيجة لوضوح مبنى
الحق فيها !

أثر عن رسول القرآن عليه السلام ، أنه أتاه رجلان يختصمان فى
مواريث لهما ، ولم يكن لهما من بينة إلا دعواهما .. فقال عليه الصلاة
والسلام لهما «إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون لى ، ولعل بعضكم
أن يكون ألحن بحجته من بعض» أى أقدر على عرضها والإقناع بها
«فأقضى على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه بشئ فلا يأخذ
منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من نار» ! .. عندئذ بكى الرجلان ، وقال
كل منهما لصاحبه : حقى لك ، فقال لهما عليه السلام .. «أما إذا فعلتما
ما فعلتما فاقسما ، وتوخيا الحق ، ثم استهما «أى اقترعا» ثم تحالا» .. أى

ينزل كل منكما لأخيه عن حقه ويجعله حلالاً له.

هذا الموقف يعبر عن قاعدة لو أدركها الناس لأراحوا واستراحوا ..
مبناها أنه «لو أنصف المتقاضى لاستراح القاضى» .. ففى الحديث :
« من خاصم فى باطل وهو يعلم - لم يزل فى سيخط الله حتى ينزع » ..
أى حتى يقلع عن المخاصمة بغير حق .. الاقتصاد فى التقاضى لا يريح
القضاة فقط من عناء كثرة وتعقيد الأفضيات والمنازعات ، وإنما هو
يقسط وينصف المتقاضى نفسه ، لأنه يوفر عليه عناء وطول ومعضلات
الخصومة ، ويكفيه شرور العداوات وتناميها وتجذرهما ، ويكفل حسن
الصلات ويعمر العلاقات الإنسانية بالمودة التى تزداد بالتفاهم والتآلف
والتراضى ، وتشتعل بالخصومات والعداوات والأفضيات !

لو أنصف المتقاضى لاستراح هو نفسه قبل أن يستريح القاضى !

جئناك يا إلهي خاشعين ضارعين .. نسألك بحق هذه القلوب التي تمتلئ
لك توحيداً وحباً ، وبحق هذه السرائر تنطوى على الصدق والإخلاص ،
وبحق حبيبك المصطفى عليه السلام وإخوانه الأنبياء والمرسلين - نسألك
أن تعزنا من ذلنا ، وأن تقويننا من ضعفنا ، وأن تغنيننا من فقرنا ...

ونسألك يا سابع الأفضال ويا واهب النعم والخيرات - أن تجعل
الفلاح نصيبنا وثمره كدنا وسعيها .. وأن تجعل الفجر نهاية كل طريق لنا ،
والأمل زادنا ويقيننا .. وأن ترزقنا بالرزق الحلال ، وتطيه وتباركه لنا ..

يقول الهادي البشير عليه السلام :

«سلوا الله تعالى من فضله فإنه تعالى يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة

انتظار الفرج»

ربنا :. تعلم سبحانه أننا ما سألنا أحداً غيرك ، ولا طلبنا من سواك ..
فأنت يا وهاب قبلتنا ، وعليك وحدك توكلنا ، وبك استعانتنا .. نسعى
في رحابك ليلنا ونهارنا ، وندعوك بكل آمالنا ومرامينا .. نعلم من
قولك الحق أنك سبحانه تستجيب لمن يدعوك ، وأنت قريب تجيب
دعوة الداعي إذا دعاك .. اللهم فطيب لنا كسبنا وقنعنا برزقنا ، واملأ
بالطمأنينة والسكينة جوانب نفوسنا ، وأسبغ علينا رحمتك وكرمك ..
يا رحمن .. يا كريم .. يارب ...

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] .

ربنا .. إنا نسألك أن تعيننا التوفيق والسداد ، وأن تملأ بالبشر والأمل
حنايانا ، وباليقين أفتدتنا .. و اشرح اللهم للحق والصواب والخير
صدورنا ، وقوف الحاضر والمستقبل ثقتنا .. يا سميع .. يا بصير .. يا
مجيب ..

ربنا .. قد آتيناك خاشعين قانتين ، هادين مهتدين ، محسبين
متوكلين .. اللهم فاجعلنا ممن توكلوا عليك فكفيتهم .. واستهدوك
فهديتهم .. واستصروك فنصرتهم .. اللهم واجعل وساوس قلوبنا
خشيتك وذكرك ، وممتا فيما تحب وترضى ..
يارب ...

من تراب (٣٥٠) المثالية التي أحملها (*) الطريق على ظهري !

كنت أؤدى امتحان اللغة الفرنسية بالسنة الثانية الثانوية بالنظام القديم الذى كانت دراسة الثانوى فيه خمس سنوات بعد المرحلة الابتدائية التى كانت أربع سنوات .. ومع أنى بدأت الدراسة إبان الطفولة باللغة الفرنسية لمدة عام فى مدرسة الراهبات بشبين الكوم ، إلا أنها عادت فتأكلت وزاد تأكلها عندما بدأنا باللغة الإنجليزية فى المرحلة الابتدائية ، فتراجعت الفرنسية مع صعوبة وتعدد قواعدها أمام سهولة تحصيل اللغة الإنجليزية .. ومع عنايتى وإتقانى للآن ما كنا نسميه بالGrammer ، ومعرفتى بتصريف الأفعال بما فى ذلك مجموعة الأفعال الشاذة ، إلا أنني كنت أعانى فى تكوين الجمل والعبارات ، وانسحب ذلك على تعثر فى أداء الامتحان .. لاحظنى المراقب فى اللجنة المرحوم الأستاذ س . س ، وكان من شلة الأصدقاء الأكبر من مجموعتنا ، وبيننا آصرة دعتة إلى محاولة مد يد العون ، فأتانى بورقة للأسئلة مدون عليها الإجابات ، ولكن الأستاذ الطيب فوجئ برفضى .. ولم يصدق نفسه .. فراجعنى باندهاش شديد كيف أرفض نجدة آمنة - لأنه المراقب - تحمينى من الرسوب ؟! طمأنته حتى لا يغضب بأننى قادر على شق طريقي ، ولم يكن ذلك صحيحا ، ورسبت بجدارة فى اللغة الفرنسية .. لم أستطع أن

(*) المال ٢/١١/٢٠٠٩

أفصح له عن سبب رفضي يد العون التي مدها إليّ .. إنه أبى رحمة الله
رحمة واسعة .. كان مدرسةً ومثلاً أعلى في منظومة قيمية وأخلاقية تقدر
الصدق والاستقامة ، وترفض الغش وتأباه ، حتى أشعرنا رحمه الله أن الغش
عار ، وأنه لا طعم لنجاح - أى نجاح - إذا قام على الغش والتدليس ..
وأنه لا بأس من الإخفاق أو الوقوع ، لأن العزيمة الصادقة كفيلة بتجاوزه
والعودة للوقوف .. كان هذا ما حدث وحداني ألا أندم قط على خسارة لم
أتصاغر فيها .. ففى الاستعداد للملحق بشهرى الصيف ، تلقيت دروساً
إضافية لدى الأستاذ شكرى عبد المسيح .. وكان متميزاً لازلت للآن
أحتفظ بكراساته .. عوضنى فى شهرين ما كنت أفتقده ، وأعادنى إلى
اللغة الفرنسية التى لم أقبل أن أنجح فيها بالغش ، فرسبت ولكن علمتنى
التجربة أن أعود إلى النجاح بالصدق والجهد ، وقد كان !

صاحبتنى هذه الجدية ولا تزال طوال حياتى .. فى دراستى وفى عملى
وفى رياضتى .. لا زلت أذكر فترة المناورة التى أمضيتها بمنطقة فايد
والبحيرات مع الجامعيين وطلبة القسم النهائى بالكلية الحربية .. كانت
خمسة عشر يوماً بالغة المشقة ، انتهت بطابور تطعيم معركة وعبور حواجز
وزحف تحت الأسلاك الشائكة ووابل النيران ، لتختم بطابور سير نحو
١٦٠ كم بدءاً من جنيفة التى كنا نعسكر فيها إلى السويس ثم إلى الكلية
الحربية بمصر الجديدة .. كان السير بالغ المشقة بالبيادة مع غرز رمال
الصحراء ، وكان فى مسافة منه موازياً لخط السكة الحديد الصحراوى من
السويس للقاهرة ، مما أغرى بعض الزملاء باستقلال القطار خفية لبعض
المحطات تخففاً من عناء ومشقة السير الطويل الذى أضنانا .. ولكن قوة

الإغراء لم تحفزني لركوب القطار .. لم أشأ أن أفسد على نفسي حلاوة ذكرى هذا الطابور الشاق حين يولى الشباب وتنزع النفس إلى الماضي وتفتش في صفحة الذكريات عما يُشعر بالرضا والاعتزاز .. هذا الالتزام أشقاني وحداني دوما لركوب الصعب ، ولكنه أرضاني ولا يزال .. لم أكن الوحيد بين زملاء الذى أثر ما أثرت ، فقد شاركتني في التزام مشقة السير حتى النهاية صحبة من أعز الأصدقاء ، نتذاكر حين نجتمع ما كان في هذا الطابور من مجاهدة انتهت بالقفز إلى حمام السباحة بالكلية الحرية من ارتفاع عشرة أمتار ، فيما يسمى باختبار الثقة ، وهى ثقة شفت عنها شجاعة زملاء قفزوا من شاهق إلى المياه مع أنهم لا يعرفون السباحة !

ظنى أن الكرامة قوامها هذا الالتزام الصادق .. فلكرامة والغش ضدان لا يجتمعان .. والجندي كرامة .. هكذا فهمتها منذ جندت في سبتمبر ١٩٥٩ .. صرت عضواً بصفة أصلية بفريق السباحة في اتحاد المدفعية الرياضى ، وعضواً بالتبعية في فريق التنس .. أؤدى واجباتي بلا ترفع ، باقتناع تام بأن الجندي يخلع كل الأردية لينتخبط في الجندي في تواضع وانتظام وطاعة .. لم أجد بأساً من الكنس والرش ، ولا من تنظيف أرضية حمام السباحة وعلى الرُكب - بالفرشاة ولصابون .. ولم أتضرر قط من الاشتراك في حمل الجراية من الحرس الجمهورى القريب بمنشية البكرى إلى حيث موضع الاتحاد .. مع أنى لم أكن أبيت أو أكل فيه .. ولم أقل لنفسى قط إن الذين يأكلون الطعام الأميرى هم الأوى بالخروج وحمل الجراية والسير بها على الأكتاف في الشارع العام .. ولم

أجد ما يمس الكرامة فيما كنت أقوم به عن اقتناع بأن الجندية تذيب كل الفؤارق ، وتشد العود والعزيمة والإرادة .

ولكنى لم أنس قط أن الجندية كرامة .. وأنه يمس الكرامة أن تكلف بما لا يجوز أن تكلف به مهما كان هينا ! حمل الجراية والتنظيف والكنس والرش خدمات عامة ، تؤدي للخدمة لا لأشخاص .. لهذا لم أتضرر منها قط ، ولكنى فجرت مشكلة كبرى في الاتحاد يوم نادانى الرقيب القرعة ، وكان لاعبا محضرا ورقيا شرفيا فى فريق كرة القدم ، وطلب إلى أن أشتري له عبية سجائر من الكانتين ، فلم أجد لطلبه محلا ، فلست بفريقه ، ولا يوجد ما يبرر له تكليفى بطلب بخاص .. فرفضت ، ولم أتردد أن أقول له ، لماذا لا تذهب أنت وتشتري لنفسك ما تريد ؟!

قامت القيامة ، وأدخلت إلى مكتب الرائد أحمد عيسى عبده القائم مع الرائد يوسف زين - بإدارة الاتحاد نيابة عن المقدم كمال حجازى .. كيف يمكن لجندى أن يعصى أمرا صادرا من الرقيب القرعة الذى كان يتمتع في الاتحاد بمكانة اللاعب الخبير .. ولكنى لم أساير تخطئى ، وتمسكت بأننى لم أجد لأكون في الخدمة الخاصة لهذا أو لذلك مهما كانت أقدميته .. تم تكديري ولكنى لم أترجع ، ودورنى رقيب أول الاتحاد في طابور تأديبي ظللت أؤديه في جلد حتى تعب من أراد لوى إرادتى ! .. تهون كل الصعاب حين يتمسك الإنسان بالحق والكرامة !

فهل أشقانى أبى أم شرفنى حين صدر إلى مثاليته وزرعها في منذ الصغر ؟! نعم أشقنتى لأنى ركبت بها الصعب دائما ، ولكنها أرضنتى وصانت لى أمانى النفسى وكرامتى .. وحفظتنى مما يتوارى به الناس خجلا أو إشفاقا من المعرة أو الحساب !

من

تراب

الطريق

(٣٥١) الزهر الصناعي ! (*)

هذا العنوان ، عنوان لقصيدة للمحامى الفقيه ، الشاعر الحكيم
الفيلسوف محمد عبد الله محمد .. واحدة من قصائد ديوانه « العارف »
الذى امتلأ بشعر الحكمة ، لا تكاد تطل على أى قصيدة من قصائده حتى
تدرك أنه غواص يضرب فى الأعماق ويرنو إلى بعيد .. يحرك السواكن ،
ويلفتك إلى بحور عميقة ، يبحر فى لججها وأمواجها ، تلاطمه ويلاطمها ،
أملاً أن يصل إلى الشيطان .. تحت العنوان الموحى بمقصوده : « الزهر
الصناعى » - يقول الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

ربما تُحَرِّقُ الحدود فتَقْوَى	وَيُسُدُّ العِصْيَانُ أَزَرَ الوَلَاءِ
ويجئُ الوفاءُ فى خُطْوَةِ البُعْدِ	وتنمو مسرَّةٌ مِنْ بكاءِ
وتموثُ الأوراقُ كى يولدَ الفرعُ	وتَفْنَى الآبَاءُ للأَبْنَاءِ
ربما يزعجُ السكونُ أمانى	أثقلتُ نومَهَا على الضوضاءِ

يأخذُ الضاحكُ الخفيفُ على الحُبِّ	ضِعْفَ ما يشتهى مِنَ الإطراءِ
ويَقْصُصُ الوقُورُ أجنحةَ الأُنسِ	ويشكُّو الملالَ فى العلياءِ
عندما يفتحُ الشَّقَاءُ ذراعيه	فَيَمْلَأُ الحَيَاةَ بالأعداءِ
وشَقَاءُ الكِبَارِ يُلْتَحِفُ الكِبَرُ	غريبُ الإيماءِ والإيحاءِ

٢٠٠٩/١١/٣ المال

مجازات النَّعِيمِ ولا نَعِيمُ! وَأَبْدَالُ السُّرُورِ ولا سُرُورُ
يَظَلُّ فُؤَادَكَ الْمُشْتَاقُ يَظْمَى وَسَاقِيَةُ الوجودِ بِهِ تدور
وتأخذُ منه ما يحلو لديها طيورُ الفكرِ تسكنُ أو تثورُ
ولكم صالحتَ نفسَكَ باضطلاح وكم عزَى كرامتَكَ النفورُ

أفكر ما أفكرُ ثم آوى ملء الكَفِّ بالعجزِ القديمِ
إلى رأيٍ عليه الكلُّ ناموا ويرويه الفهيمُ عن الفهيمِ
سَلِيمٌ ها هُنا أضلا وفصلا وليس هُناكَ بالرأيِ السليمِ
وإجماعُ البريةِ في اعتقادِ تحاقُ العقلِ والفكرِ القويمِ

نُخاطِبُ نفسَنَا في كُلِّ شَيْءٍ وَيُعْجَبُ مِن براعتِنَا بنونا
ويجهلُنا الوجودُ ولا يرانا وما زَادَ الوجودُ بأنْ نَكُونَا
فهذا الشيخُ عاشَ على التَّصَابِي يُحَدِّقُ منذ أن فَقَدَ العيونَا
ولا يدري لُغَاهُ ولا لُغَانَا وَحَيْرَ في براعتِهِ الظَّنُونَا

مَعَى جَسَدُ أَرَاهَ ولا يراني أَجْرُ عَلَيْهِ أَلوانُ الشَّقَاءِ
وَأَزْعُمُ أَنَّهُ يُودِي بروحِي ويدفعُنِي لأودِيَةِ البَلَاءِ

وَحْضِي لَا يُرَدُّ عَلَيَادَعَائِي وَلَا يَقْوَى عَلَى رَدِّ الرِّسَاءِ
تَحْمَلْنِي تَحْمَلٌ مُسْتَمِيتٌ لِيَلْفِظَنِي إِذَا حُمَّ انْقِضَائِي

يَعْلَمُنِي الْوَجُودُ خِدَاعَ نَفْسِي وَإِلَّا مَا صَبَرْتُ عَلَى الْوَجُودِ
تَوَقَّعْتُ الْأَمَانَ فَمِتُّ خَوْفًا وَعَاقَبَنِي الْهُبُوطُ عَلَى الصُّعُودِ
مَعَانِي الْفِكْرِ تُفْعِمُهَا أَمَانٍ وَمَلَأُ إِرَادَتِي زَبَدُ الْوَعُودِ
وَزَوَّدَنِي التَّذَكُّرُ بِامْتِدَادٍ فَحَوَّلْتُ الْخِدَاعَ إِلَى صُمُودِ

من

تراب (٣٥٢)

ضابط الشرطة بين (*)

التجنى والتجنى عليه !

الطريق

لم يعد غريباً أن ترى ضابط الشرطة أحياناً متجنياً ، وأن تراه في أحيان أخرى متجنى عليه .. ألح على هذا الخاطر وأنا أطلع صباح الجمعة ١٠/٣٠ أخباراً متفاوتة عن ضباط شرطة تأرجحت بين التجنى منهم وبين التجنى عليهم .. في الوقت الذي لفتني وأحزنتني خبر مصرع ضابط شرطة أخلص في أداء واجبه وتربص لضبط تاجر مخدرات شهير أتت بشأنه إخبارية أكدت أنها التحريات عن إعداداته لبيع كمية كبيرة من المخدرات ، فلما شعر التاجر بالكمين بادر بالفرار ، فأبى الضابط المخلص لواجبه : النقيب حسام بدوي الضابط بإدارة مكافحة المخدرات ، أبى إلا أن يتعقب ويطارده المجرم الهارب الذي اندفع في أحد المدقات الصحراوية بطريق الواحات ، فبادر التاجر المطارد إلى إطلاق النيران على سيارة الشرطة ، حيث أصيب الضابط بإصابة قاتلة وانقلبت السيارة وأصيب أمين الشرطة المصاحب له بإصابات بالغة نقل على أثرها إلى المستشفى ، بينما نقل جثمان الضابط الشهيد إلى المشرحة !

إلى جوار هذا الأداء اللافت للواجب ، خبر عن نجاح مباحث الخانكة في القبض على المتهمين الهاربين اللذين اشتركا في قتل جواهرجي

(*) المال ٢٠٠٩/١١/٤

الجمالية مع خمسة آخرين تربصوا له على طريق بلبس وهو في طريقه إلى الزقازيق حاملاً ٤ كيلو جرامات من المجوهرات لعرضها على محال الصاغة هناك ، فاعترضوه وقيده قبل أن يمتطوه بوابل من الرصاص ليردوه قتيلاً ويهربوا بها كان معه . ظلت مباحث الخانكة تتعقب الجناة حتى تمكنت من القبض على المتهمين المتبقين من السبعة الذين ارتكبوا الجريمة !

في المقابل لفتتني شكاية عن تعذيب مواطن لحمله على اعتراف ربياً ظن المعذبون أنه سوف يصادف الواقع ، وفتتني خبر القبض على ضابط شرطة بالفيوم ، تورط في جريمة خطف ، مع جانح مسجل نصب بمعاونة ٩ آخرين ، قاموا بخطف محاسب نجل أحد رجال الأعمال بالعجوزة ، تحت تهديد السلاح ، لوجود خلافات مالية مع والده ، حيث اختفى المحاسب (٢٧ عاماً) من يوم ٢١ أكتوبر ، ولم يعثر له أحد على أثر ، إلى أن تلقت والدته اتصالاً تليفونيا منه أبلغها أنه مختطف ومحتجز تحت تهديد السلاح بإحدى المزارع بمحافظة الفيوم ، بعد أن شحنة الجناة معصوب العينين ومقيد اليدين والقدمين في سيارة نقل إلى حيث احتجزوه بفيلا بالمرعة وتناوبوا الحراسة عليه بالسلاح ، ولكنه استطاع التقاط رقم السيارة التي كانت الخيط الذي فك غموض الحادث الذي أسفر عن زعامة الضابط بشرطة الفيوم للعصابة التي قامت بخطف واحتجاز المحاسب ، حيث بدأت التحقيقات المكثفة بنبابة حوادث شمال الجيزة !

ما سر أو أسباب هذا التراوح الذي يؤدي أحيانا إلى أقصى النقيضين ؟!

فضابط الشرطة الذي يتبتل أحيانا ويضحى بحياته في أداء الواجب ،

يتردى أحيانا في ممارسة السلطة ، فيتورط في التلقيق وفي القبض والاحتجاز بغير حق ، أو في إساءة المعاملة والضرب والتعذيب ، وقد يسرف أحيانا في الاستقواء بالسلطة فيتردى في حومة الجريمة كضابط شرطة الفيوم الذى تورط في جريمة اختطاف واحتجاز تدخل في باب الجنايات !

ظنى أن السلطة هى المرتقى لو أحسن الضابط فهمها - لأداء الواجب ، وهى هى أيضًا المتزلق للجموح أو الجنوح إذا حصر الضابط نفسه فيها وتصور أنها امتياز لا مسئولية . السلطة هى جوهر المسئولية الأمنية ، وعدة الأداء الأمنى ، ووسيلة وضمان القيام بواجباته .. ولكنها فى الوقت ذاته امتحان ، لأن ممارستها تختلط بالذات ، وتتغلغل فى التكوين النفسى وقد تغرى بالتعلق أو التحصن أو التباهى بها .. وقد يقود ذلك إلى الإسراف فى استعمالها أو اللجوء إليها فى غير موضعها ، أو الجنوح الخاطئ فى ممارستها واستعمالها !

فهم الشرطى للسلطة هو سبيله الرشيد أو الجانح للتعامل معها واستعمالها .. لا تنفصم السلطة عن فهم مبناها ومعناها .. ولذلك فإنها فى تقديرى هى الامتحان الأكبر للشرطى بعامة ، ولضابط الشرطة بخاصة . إن فهم أنها واجب ومسئولية ، أقسط فيها ووظفها توظيفًا صحيحًا لا إفراط فيه ولا تفريط ، حاملًا بها مسئولياته قائمًا بواجبه ، فإن اختلطت لديه بالذات ، تيهًا أو إعجابًا ، جنحت به وجنح بها وتحولت إلى تسلط ممقوت يصيب الناس فى حقوقهم وأمانهم وكرامتهم ، ويورد

الشرطى نفسه موارد التهلكة ، حيث يسلسه الجموح فى ممارسة السلطة
إلى مجارى الخطأ أو وهدة الجريمة !

ظنى أن هذه المعانى حاضرة فى المستويات الشرطية العليا ، ولعلها
هى مرد اختيار شعار «الشرطة فى خدمة الشعب» .. للتذكير الضمنى بأن
السلطة الممنوحة لرجل الشرطة هى للناس لا على الناس !

على أن التجربة تدل على اختلاط السلطة بالشخص فى بدايات
الطريق ، حين يظن البادئ أو المبتدئ أنه يكبر بالسلطة ، فيطلبها لذاتها
وينحطى فهمها ويمنح فى ممارستها .. ومع تقدم العمر والنضج مع اتصال
التجربة - يتراجع تدريجياً عشق السلطة لذاتها ، ويتقدم الفهم الذى إن
غاب - وأحياناً ما يغيب - يظل الشرطى بعامة حتى بعد إحالته للمعاش
- يظل حبيس أوهام السلطة التى تردى ولا تفيد !! .

من تراب (٣٥٣) تبييض الأنظمة ! (*) الطريق

تبييض وجوه الأنظمة ، هو المرادف لمصطلح غسيل الأموال .. الفارق أن غسيل الأموال صار الآن جريمة جنائية تعاقب عليها التشريعات الوضعية في معظم بلدان العالم ، بعقوبات جنائية طبعاً ، بينما تبييض وجوه الأنظمة جريمة سياسية لم تدخل المدونة العقابية ، لأنها تحدث - إن حدثت - في نظم تستقوى على شعوبها بشوكة السلطة ، ولا تسمح بداهةً بتجريم خداعها لمحكوميها ، ولو فعلت لما كانت في حاجة أصلاً لتبييض وجهها ، فهو أبيض بسوائها وعدلها بين حكامها ومحكوميها ، ومساواتها بين أغنيائها وفقرائها ، وبين أقويائها وضعفائها ، وبصدق توجهها وموضوعية سياساتها وقراراتها وتصرفاتها وأعمالها !

الأنظمة لا تلجأ للتبييض إلا إذا أرادت خداع الرأي العام عن الصورة السلبية التي جعلت تحيط بها ، وللأنظمة سوابق عديدة ، هنا وهناك ، في عمليات التبييض التي لا تترك الأنظمة المأزومة صورتها - لا تترك فرصة إلاً وتغتنمها لصرف الأنظار عما علق بها ، وبث صورة خادعة جذابة لتتجمل بها في عيون الناس !

(*) المال ٥/١١/٢٠٠٩

وضعتني المصادفات بقرب لب أحداث كثيرة شهدتها مصر ، وكان من قدرى أننى راجعت معظم قضايا النكسة ، وراجعت فى مرحلة الطعن قضية الطيران التى حوكم فيها الفريق أول صدقى محمود وثلاثة آخرون من قادة القوات الجوية عام ١٩٦٧ ، وقضية العميد صدقى عوض الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة ، وعدداً من قضايا القوات المصرية التى كانت فى اليمن ، ودرست وكتبت جانباً من مرافعة الادعاء - وإن من خارج الصورة- فى القضية رقم ١ لسنة ١٩٦٧ لمحكمة الثورة ، التى حوكم فيها شمس بدران وعباس رضوان وصلاح نصر وآخرون ، والقضية رقم ٢ لسنة ١٩٦٧ لمحكمة الثورة التى حوكم فيها صلاح نصر عن تصرفات شخصية اعطيت وقتها عنوان الجهاز الذى كان يترأسه ، وكان الجهاز ولا يزال محل تقدير ، ولم يتكلم أحد عنه بكلمة سوء واحدة منذ طويت صفحة محاكمة صلاح نصر ومجازاة بعض من كانوا معه .. وأتاح لى ذلك - الإلمام بكثير من الأسرار التى لم يحن بعد أوان الإفصاح عنها ، ومما أفصحت مذكرات القادة والسياسيين عنه أن قائد القوات الجوية وُضِعَ آنذاك فى صورة لم تكن منصفة ، فلم يقصر الرجل فى محاولة إمداد القوات الجوية بقاعدة صاروخية للدفاع الجوى قادرة على التعامل مع الطيران المنخفض ، وروى الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس الأركان بعد النكسة فى شهادته بالمحاكمة الأولى قبل الإعادة ، كيف كلفه الفريق أول طيار صدنى محمود بمناسبة سفره - قبل النكسة - فى مهمة إلى الاتحاد السوفيتى بالبحث وإمداده بأحدث ما أخرجته الترسانة السوفيتية للتعامل

مع الطيران المنخفض ، وروى الفريق أول عبد المنعم رياض أنه شعر أن أقدمية الفريق أول صدقي ، حالت بينه وبين الإفصاح عما يلاقيه من هم أصغر ووضعتهم السياسة في مواضع أكبر بالقيادة العامة .. كما ثبت في تحقيقات محكمة الثورة ، وما كتب من مذكرات للقادة ، أن الفريق أول صدقي اعترض على تلقي الضربة الأولى حينما أبدى الرئيس عبد الناصر أن الموازين الدولية تقتضي ذلك ، ونبه صدقي محمود في اعتراضه - إلى أن هذه الضربة سوف تكون معجزة ، ولكن الموازين الدولية فرضت على الرجل كلمتها ، على غير موافقة منه .. ومع ذلك دُفِعَ به إلى المحاكمة التي ألهبت الشارع والمظاهرات ضد قادة الطيران الذين دُفِعَ بهم لتبييض صورة الآخرين ، وكان المثال الأوضح على عدم إنصاف السياسة - أن رُج أيضا بالفريق أول طيار جمال عفيفي رئيس الأركان إلى المحاكمة ، مع أنه لم يكن قدمضى عليه في موقعه سوى أربعة أسابيع قبل ٥ يونيو ، كان قبلها رئيسا لمؤسسة مصر للطيران بعد أن أحيل من سنوات إلى معاش فرضته أيضا مراكز قوى .. ومع أن المحاكمة الأولى قضت ببراءته هو واللواء الدغيدى ، إلا أن قرار القيادة السياسية أبى إلا أن تشملهما إعادة المحاكمة التي قضى فيها للمرة الثانية ببراءتهما ، فلم يعد أمام القائد الأعلى رئيس الجمهورية سوى التصديق على الحكم القاضى للمرة الثانية ببراءتهما !

لعبة تبييض الأنظمة السياسية ، لعبة قديمة ، أمثلتها في الماضي والحاضر عديدة ، تعطى للأقوى فرصة تحميل من يشاء بما يشاء لصرف الأنظار عن المسؤولية الحقيقية ، أو لتجميل الصورة ، أو لإظهار جدية الأنظمة

فى المسألة والحساب ! على فطاعة حادث قطار العياط ، فإنه يعبر عن «حالة» نعانى منها أكثر مما يعبر عن خطأ يمكن أن يُسأل عنه وزير النقل مسئولية سياسية .. هناك ولا شك مسئوليات جنائية ينبغي محاسبة المخطئين فيها ، ولكن معظمها يرجع إلى تراكمات سنين ، فضلاً عن تواضع مستوى الخامة البشرية التي ينضح تواضع أدائها في مواضع عديدة في شتى المرافق .. في النقل وغير النقل .. منها ما حدث في حريق قصر ثقافة بنى سويف ، ومع ذلك اختلف عيار المسئولية الوزارية بين الحادثين ، اختلافاً يعبر عن رغبة في التبييض على حساب الوزير محمد منصور .. شعرت بها في العنوان السماوي الذي حملته إحدى الصحف القومية : «منك الله يا محمد منصور» !! .. وفي المغالاة في تهجم المناقشات النيابية على رجل ظني أن أداءه ومسلكه كان محلاً للتقدير ، مثلما كانت مبادرته بتقديم الاستقالة محل احترام ، لولا أن لعبة السياسة ضحت به في أول منعطف سعيًا إلى التبييض !

من تراب (٣٥٤) ويل للعظماء من الأوغاد! (*) الطريق

تربص الأوغاد بالعظماء ، ظاهرة قديمة ممتدة من الماضى إلى الحاضر .. رأينا ذلك فى كثير من حوادث الاغتيال ، ورأيناه أيضاً فى المعاكسات والمناكفات والمضايقات ، وفى التهجم والنكاية والكيد وإطلاق القذائف الباطلة والشائعات الكاذبة .. والاغتيال المعنوى إلى جوار الاغتيال المادى !

فالذى اغتال الفاروق عمر بن الخطاب ، هو أبو لؤلؤة المجوسى .. وكان مجوسياً من الأوغاد .. والذى اغتال الإمام على بن أبى طالب - واحداً من الخوارج يدعى عبد الرحمن بن ملجم ، والذى اغتال غاندى متطرف شارد ، وكذلك كثير من حوادث الاغتيال .. ودراسة سير حياة الزعماء والساسة والأدباء والمفكرين والفنانين ، حافلة بكثير من قصص تربص الأوغاد بهم ، والتطاول عليهم ، والكيد لهم ، والنكال بهم .. قد يكون الحسد باباً لتحرش الصغار بالكبار ، والفاشلين بالناجحين ! .. بيد أن الحسد لا ينشأ إلا من خلال علاقة أو صلة تحرك الشعور بالنقص وتدفع الناقص الفاشل الموتور ، إلى حسد الناجح الذى يغمطه على نجاح لم يتله هو .. لذلك فالحاسد لا يحسد غريباً عنه ، لأن هذه الغربة لا

(*) المال ٩/١١/٢٠٠٩

تستحضر المقارنة .. وإنما تكون المقارنة بين الأقارب والمعارف والزملاء والأصدقاء .. ونادرًا جدًا ما يسفر التربص بالقادة والعظماء عن كشف حالة حسد .. إنما قد يكشف عن بغض أو مقت أو رفض ، أو عدم توافق سياسى ، أو اعتراض على أعمال أو قرارات أو سياسات !

معنى هذا أن العظماء معرضون للنكيرين .. لنكير الحاسدين من دوائر معارفهم وأصدقائهم وذوى قرباهم .. حتى قيل فى الأمثال : الأقارب كالعقارب ! .. ونكير دوائر المعارضين على سياساتهم أو أفكارهم واتجاهاتهم !

ومن النادر جدا أن يأتى الحسد والغيرة من ناجح ، وأندر أن يأتى من صاحب ملكات وإمكانات .. مرد ذلك أن الحسد مرض حقيقى ، قيل عنه فى الحديث إنه كالنار يأكل صاحبه كما تأكل النار الحطب .. وذلك لا يصيب ذوى النجاحات أو الإمكانيات أو المؤهلات ، وإنما يتمكن من أصحاب العلل النفسية ومركبات النقص وخيبة الحاضر وانعدام الأمل الواعد فى المستقبل .. هنالك تسقط النفس فريسة للمقارنات ، لا يرضيها إلا أن تنزل بالمحسود إلى دركٍ أقل من دركها ، ولا تتطلع - لأنها عاجزة - عن الرقى بنفسها لتحقيق ما تنفسه على الناجح وتغير منه وتحسده عليه !!

مشكلة ولا شك للمحسود أن تأتيه الغيرة والحسد وتداهمه بلواها من أقربائه أو أصدقائه ، فالمصاب عند ذاك مصابان .. مصاب الحسد الذى يأكل كالنار ويستخرج كل ما فى نفس الحاسد من شرور وضعة ،

والمصاب فى القرب الذى أعطى ظهره لآصرة القربى أو فى الصديق
الذى خان الصداقة وتنكر لها وحسد صديقه - الذى كان - على ما أفاءت
به عليه ملكاته ومواهبه وقدراته ..

انعدام الملكات والمواهب والقدرات ، هو الباب الواسع لمشاعر الغيرة
والبغض والحسد .. وقد ر على القامات والعظماء ، أن ذات هذه الملكات
والمواهب والقدرات - هى التى تجر عليهم صفائر الصغار ، وحققت
العاطلين من المواهب ، المهمشين على هامش الحياة ، الذين لا يجدون
لأنفسهم مكانا أو موضعا يزاحمون به الكبار فيرمونهم بالأحجار ..

صدق الشاعر الذى قال :

قُلْ لِمَن بَصُرُوفُ الدَّهْرِ عَيْرَنِي	هل عارض الدهرُ إلا من له خطرُ
ألم تر البحر تعلو فوقه الجيف	وتستقر فى أعماقه الدررُ
وكم على الأرض من خُضِرٍ وفاكِهِةٍ	وليس يُرْجَمُ إلا من له ثمرُ
وفى السماء نجوم لا عداد لها	وليس يُكْسَفُ إلا الشمس والقمرُ

من تراب (٣٥٥) عفو الخاطر! (*) الطريق

هذه كلمات أكتبها عفو الخاطر ، ليس في ذهني وأنا أكتب هذه الكلمات ماذا تحديدًا سوف أقول .. فقط وجدنتي وأنا أستمع إلى أم كلثوم التي أستعذب شذوها ومعانيه ، وجدنتي مشدودًا إلى شجنها وهي تغني :
«عاوزنا نرجع زى زمان ، قُل للزمان إرجع يا زمان» !!

لغة الحب والشجن ، لغة موحية ، تستقطر المشاعر والأحاسيس ، وتستخرج تضاعيف وأعماق النفوس وحقائق الحياة .. فهل استحالة العودة للزمن الماضي مقصورة فقط على الصفحات التي انطوت بين الأحباب ؟! أليس شجن الكلمات يوحى للم تأمل بمعانٍ تتخطى حديث القلوب إلى واقع الحياة ؟!

واقع الحياة أن ما انقضى لا يعود ، وأن الإنسان ابن حاضره ، قد يطل على ماضيه بعين الرضا أو بعين السخط أو بعيون المراجعة والاعتاظ واستقطار التجربة ، ولكنه مشدود إلى المستقبل بما يحوطه من مجاهيل واحتمالات ، وبما يتطلع إلى تحقيقه فيه من أمان وآمال .. قد تتكرر الأيام ، وتتشابه الحوادث ، ولكن اليوم ليس كالأمس ، والغد يحمل غير ما شهده اليوم .. والإنسان نفسه وليد أطوار وأحوال ، فكما أن الظروف

(*) المال ٢٠٠٩/١١/١٠

متغيرة ، فكذا أحوال الناس .. أنت اليوم غير ما كنته بأمس ، وسوف تكون غداً غير ما أنت عليه اليوم ، ولذلك كانت العودة للزمن الماضى ليست مستحيلة فقط على ما ضاع أو فسد بين الأحباب ، وإنما هى عصية على أى إنسان فى عموم الحياة ، لأن استنطاق الماضى محال ، والعيش فيه من رابع المستحيلات !

ما اكتشفه خطاب الحب الضائع ، أو الوفاء الذى ولى ، يستعصى أحيانا على من يظنون أن ملاذ الإصلاح هو فى الارتداد إلى الماضى الجميل الذى كان .. هذا الماضى الذى يبدو جميلاً أمام تعاسة الحاضر وابتعاد الأمل فى المستقبل ، كان - أى هذا الماضى - ابن زمانه ووقته ، وبندول الزمن فى حركة وصيرورة دائمة لا تتوقف ، تتغير فيها الأحوال والظروف ، ويتغير الناس ، ويتراجع أحياناً ما كان فى مقدمة الأولويات ، ويتقدم ما كان فى ذيل الاهتمامات ! . لذلك فمحال أن يعيش الإنسان - وهو ابن حاضره - فى دنيا أسلافه مهما كانت جميلة أو مبهرة أو براقه .. ولا يعنى هذا أن الماضى خالٍ من القيمة ، بل إنه لا غناء للحاضر عن استخلاص عبر الماضى ودروسه .. ولكن ديوان التاريخ ليس محض مشاهد وصور وأشكال ، وإنما هو معانٍ وقيم .. وتكرار الصورة على ذات ما كانت عليه شكلاً فى زمانها ، قد لا يحقق المعنى أو القيمة التى كانت تعطيها أو تعبر عنها فى أوانها .. ينطبق ذلك على كثير من الصور والمشاهد التى عبرت فى وقتها عن الطهر والزهد والتعفف ، ولم تعد فى الحاضر صالحةً بمحض شكلها لتحقيق القيمة التى كانت تحققها ، بل صارت لذات هذه القيم

صور أخرى تصادف أحوال زماننا .. والسلفيون ينحصرون في الصورة ولا يلتفتون بذات القدر إلى المغزى أو المعنى .. ويأخذون الأديان - دون أن يدروا - إلى زقاق الانحصار في الترددات والمقولات والصيغ والمظاهر والأشكال ، ويهملون جوهر الدين وأهم ما فيه من بنية حيّة تنظم بوعى وفهم واستنارة حياة الأحياء ، وترعى بعمار الروح وسلامة الضمير وقوة الداخل - أحوال وسلوك وتصرفات ومعاملات الناس .

التعامل مع الحاضر ، والتطلع إلى المستقبل ، ليس خيانة للتاريخ .. فتواصل أمجاد التاريخ ، لا يتحقق إلاّ بالتعامل الواعى الفاهم مع مقتضيات الحاضر ومتوقعات المستقبل ، وهذا التعامل مبنى في جزء كبير ومهم فيه على استقطار صفحات وتجارب وعبر الماضي .. إلاّ أن استخلاص ما يحفل به ديوان العبر ، لا يعنى أن يرتد الإنسان ليعيش ويلبس ويتصرف كما كان يفعل أجداده في الزمن الأول .. في عبارة بسيطة عبّر أسلافنا عن هذه المعانى حين قالوا : «كل وقت وله أذان» .. ولم تبتعد أم كلثوم كثيرا في شدوها عن هذه الحكمة حين صدحت بقول الشاعر : «عاوزنا نرجع زى زمان ، قُلْ للزمان ارجع يا زمان» .. فهل يمكن للزمن أن يعود القهقري ، وهل يمكن أن يعيش أبناء القرن الواحد والعشرين كما كان يعيش أبناء القرن السابع الميلادى ؟! فماذا إذن كان حصاد وجدوى هذه القرون ؟!

من

تراب (٣٥٦)

الطريق

لا أمن ولا سلام (*)

مع اليأس والقهر !

أحكم وأصدق وأعقل ما أبداه الرئيس أوباما ، تحذيره مؤخرا للإسرائيليين بأنهم لن ينعموا بالأمن ما دام الفلسطينيون في وضع يائس . هذا التحذير أمسك - واعيا أو غير واع - بجوهر القضية التي تاه مفتاحها من الإسرائيليين قبل غيرهم ممن يناصرونهم ربما ليتخلصوا من مشاكلهم !

لن يتحقق الأمن لإسرائيل بترسانتها النووية ، ولا بقواتها العسكرية ، ولا بحروب الإبادة والتهجير ، ولا بغارات النسف والتدمير ، ولا بهدم الأبنية أو إقامة المستوطنات أو بناء الجدار العازل .. ولن يتحقق لها الأمن بدعم الولايات المتحدة ومن يجري مجراها ، ولا بمصانع الأنظمة العربية التي باعت القضية وغرقت في بئر التطبيع ، ولا بالخلاف والتناحر بين فتح وحاس ، ولا بتشرذم الشتات الفلسطيني ، فذلك كله مهما علا واشتد وثقلت وطأته ، ومهما بث من إحباط وربما يأس ، لن يحقق الأمن لإسرائيل ، بل على العكس !

هذا الوضع المستفز قديونس ، ولكنه لا يमित ، ولا يعقم ما يعتمل في الأرحام من غضب وسخط تتوارثه الأجيال ، وتتنامى به عناقيد الغضب ..

(*) المال ١١ / ١١ / ٢٠٠٩

موازن المصالح الدولية ليست أبدية ، وما يحكمها اليوم قد يتغير باكر ، وبقاء الأنظمة العربية التى انفصلت عن قواعدها وباعت القضية ، هو بقاء موقوت مهما طال ، ومن المحال أن يبنى أمان على أوضاع متغيرة أو قابلة للتغير أو التغيير .. وإسرائيل لا تحتمل ما قد يطرأ عليها من تغير ، بينما الشعب الفلسطينى يملك الزمن والإيمان بالحق والمصير ، وتتوالد أجياله حاملة بذور الغضب مع مرارة اليأس والشعور بالظلم .. وهذا هو الحساب الغائب عن المنظور الإسرائيلى الذى يغره ما تمتلكه إسرائيل اليوم من أوضاع محلية ودولية فضلا عن ترسانتها النووية وفيالقها العسكرية وقواعدها الصاروخية والجوية وقنابلها العنقودية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل !

ربما قامت السياسة الإسرائيلية على أن الإحساس بالخطر هو حافز التماسك الإسرائيلى والواقى من تفرق اليهود فى الداخل والخارج .. ولكن هذا النظر قصير ، وامتلاك استمرار تأثيره بالغ الصعوبة ومعرض للارتداد إلى نقيضه وسط حسابات بالغة التعقيد جعل بعضها يتسرب وتتداعى تأثيراته على غير حسابات المخطط الإسرائيلى !

ما لا يدركه الصلف الإسرائيلى أن العنف يولد العنف ، وأن تراخى رد الفعل لا يعنى أن قانون رد الفعل معطل .. أو أنه انسحاب أبدى أمام الظلم والقهر .. مأسى ومذابح التاريخ وأعمال العنف والقتل والإبادة ، تُنمى فى المقابل عوامل السخط والمقاومة .. وكلما طال انطواء القلوب على الجراح كلما تنامى الغضب وتوالد العداة وقويت واشتدت أسبابه ،

واستبدت مشروعية أمام النفس والغير في المقاومة والرد .. ليس معنى خلل الموازين الدولية أن العالم لا يرى ولا يدرك ولا يفهم ، أو أن الأمل فيه معدوم .. من يتأمل في تقرير القاضي جولد ستون الذى أدان إسرائيل في حربها الغشوم على قطاع غزة بالعديد من الجرائم ضد الإنسانية .. من يتأمل هذا التقرير وما ورد فيه خلافاً لما تريده إسرائيل وأشياعها . يعرف أن تجاهل العالم ظاهرى ، بل إن ذات عبارة الرئيس الأمريكى المحذرة أو الناصحة لإسرائيل ، تفصح عن تسليم ضمنى بأن ما يحدث غير عادل ويولد ما يستحيل معه على إسرائيل أن تنال الأمن .. لا يتحقق الأمن فى أرض مخضبة بدماء شعب بأكمله ، وتحت ثراها أجداث الشهداء من الأطفال والنساء والشيوخ والرجال .. وعلى سطحها آثار النسف والتدمير والتجريف، وأعمال استيطان مستفزة ، وتطاول على قدسية المسجد الأقصى والمقدسات الإسلامية .. العمليات الانتحارية - وإن تباعدت الآن - ما هى إلا رد فعل فى لحظة يأس من إحساس شعب بالقهر والتأمر على حياته ومصيره .. فإذا عزّ على إسرائيل أن تدرك ذلك فى حالة غطرسة القوة التى تعيشها ، فإن الشعب الفلسطينى بخاصة ، والعربى بعامه ، يدرك أن دوام هذا الحال من المحال ، وأن الجلد تعقبه انتفاضة حياة ، طالما استطعنا للممة إرادتنا وعزمنا من برائن الأشجان والأحزان ، وجاوزنا وهدة الحاضر ومظالمه ، وصدق أبو القاسم الشابى حين قال للشعوب مستنفرا :

«إذا الشعب يوما أراد الحياة : فلا بد أن يستجيب القدر» !

من

تراب (٣٥٧) عبد الرحمن الشرقاوي (*)

الطريق وأرشيف الذكريات

تحت عنوان أزمة الكلمة بين الولادة العسرة ومخاطر التشويه ، كتبت رسالة إلى الصديق الكبير الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي الذى تحمل هذه الأيام ذكرى رحيله عن عالمنا من (٢٢ عامًا) .. كانت الرسالة محاولة لتسرية ما أحاطه من ضيق وأحزان لما لحق بحديثه إلى التلفزيون فى عيد الشرطة - من مونتاج وتقديم وتأخير غير معانى العبارات ، وأجراها على غير مقصودها ، فكلفنى رحمه الله أن أتخذ الإجراءات القضائية اللازمة ، وقد فعلت .. ومع بدايتها كتبت له هذه الرسالة التى نشرها بصفحته الأدبية «خواطر حرة» - فى أهرام ١١ / ٢ / ١٩٨٧ .. جرت كلماتها تقول :

الأخ الصديق الأعز .. تعلم كم كان تعاطفى العميق معك ، حين أتنى كلماتك الممرورة الحزينة تشكو ما فعله «المونتاج» اللعين بحديثك الذى سُجِّل . ثم بُثَّ بالتلفزيون ، بمناسبة عيد الشرطة .. وتعلم أن غضبى لم يقل عن غضبك لما جرى لكلماتك تلك من حذف واقتطاع واجتزاء أدخل بمعانيها ، وشوّه مبانيها ، وقلب بعضها إلى عكس مضمونها تمامًا ، فبدا مجملها على عكس ما قصدته بها .. وتلك مصيبة كبيرة لا يستشعر حجم وقعها إلا من اتخذ رأى رسالة ، والكلمة أمانة .. بيد أن من واجبنا ،

(*) المال ١٢ / ١١ / ٢٠٠٩

ومن واجب الآخرين ، أن يدركوا مدى الخسارة الشخصية التى تلحق
بمثلك من تحريف كلامك .. وهى فادحة !!

هذا الاجترأ أخف كثيرا من الخسارة العامة التى باتت تلحق
بالمجموع من جراء أزمة الكلمة فى زماننا ومعاناتها الممضة بين ظروف
الولادة العسرة وبين مخاطر ملاحقتها بالحجب أو التشويه .. فلم يعد
يكفى أصحاب الأهازيج والطبول ما يفعلونه ، ولم يعد يرضيهم الكلمة
المتجردة لغيرهم حتى وإن أنصفهم بعضها ، طالما أن توجهها كله لم
ينصرف إلى المدائح والتبريكات .. وتلك يا أخى الكبير ، نكبة النكبات ..
أن تحتار الكلمات الصادقة بين الخلق الذى لا يريد لها ميلادًا وبين قلم
المراجع أو مقصص المونتاج أو الرقيب الذى لا يدعها وحالها الذى عليه
خرجت ، فلا يقبل حتى بوأدها ولا بمواراتها ، ولم يعد يرضيه - قلما أو
مقصًا - إلا أن يستبيح العبارة - يقدمها للمتلقين على عكس مقصد قائلها
أو مبدعها .. هى إذن ليست فقط أزمة عبد الرحمن الشرقاوى ، وإنما
هى أزمة الكلمة المخنوقة والرأى المغيب والأمانة الضائعة أو المضيعة ..
لذلك فلا ينبغى لنا مهما كانت مراتنا الشخصية أن نأخذ الأمر من زاوية
ذواتنا وكفى ، وإنما هو من زاويته العامة أولى بعنايتنا ، وأحق بجهودنا ،
بل وبنضالنا إن لزم الأمر .. إننى لأشعر بالتضاؤل حقًا ، حين أرى قلم
شيخنا مصطفى مرعى ، يسترد كل شبابه وحيويته ، رغم العقد التاسع
الذى كان من حقه أن يخلد فيه إلى كامل الراحة ، فينهض متوثبًا ومحدّرًا
ليحمى الرأى وأصحابه والكلمة وروادها والصحافة وحريتها .. فيسطر
فى عجالة كتابه الرائع «الصحافة بين السلطة والسلطان» .. يذود فيه عن
الكلمة الحرة أيًا كانت قنواتها ويحذر من المحاولات الملتوية التى تبتغى

تقنين خنقها وستره وراء واجهات لفظية لا ينخدع بها إلا الغافلون ومن قبلوا لأنفسهم عيش الخدر والانخداع .. لم يستئس الرجل الكبير ، من سبق البرلمان إلى الموافقة من حيث المبدأ على المذهب الذى يخالف مذهبه ، وإنما نهض نهوض الشباب ليبرئ ذمته آملاً فى أن يصل صوته إلى الذين لا يزالون يؤمنون بأن الرجوع إلى الحق - خير من التهادى فى الباطل .. يستهل حديثه إليهم وإلينا بأثيرة شاتوبريان : ليس الدستور هو الذى أعطانا الحرية إنما هى حرية الرأى التى أعطتنا الدستور - إنها حسنة هذا الزمان (زمانه) حسنة الكبرى التى لا تقوم بثمن .

إذن .. إن كنت قد لبيت ما طلبتنى إليه ورفعت دعواك إلى القضاء ، حيث يتوالى انضمام الأحرار .. أتلقاهم بكل الحب والترحاب - إلا أن وجهتنا الأصلية إنما يجب أن تكون إلى هناك .. إلى رحم الكلمات حيث تتلفها الأصابع الخانقة أو تشوّها الأيادى العابثة .. وهى لن تبرأ أو تنجو منهم قط ، ما لم نعد تنظيم البيت .. ما لم يتوافر المناخ الذى يحمى الكلمة المكتوبة أو المرئية أو المسموعة من كل أساليب وحيل ومظاهر القمع أو التسييس أو التشويه مشكلتنا ومشكلتها الرئيسية ، إنما تكمن هنا .. فى النظام الذى جعل الكلمة ملكاً - بالخنق أو بالحجب أو بالمسخ - لأصحاب المراكز المهيمنة على أقدار الصفحات على مختلف أشكالها .. مشكلتنا الحقّة ، ألاّ ننخدع بالواجهات اللفظية المخاتلة ، كصاحبة الجلالة أو السلطة الرابعة . أن يتحرر «الإعلام» من قيود السلطة . أن ينسلخ التلفزيون والإذاعة من سيطرة الدولة .. أن نعيد النظر فى «رسمية» إعلامنا تحت مسميات لا أخسب أحد يختلف حول ما فيها من تزوين .. وتزييف .. أن تتحرر صحافتنا من القانون الذى يخنقنا تحت ستار

«السلطة الرابعة» .. فماذا يمكن أن تفرز سيطرة الحكومة وبيدها الاختيار والحجب إلا قيودًا تتراكم من وراء الأستار والأقنعة لتنتهى بالكلمات إلى ما آلت إليه من إجهاض حتى لم يعد يرضى أصحاب النفوس الضعيفة ، إلا أن يشركوا الناس جميعا - ناهيك بكبار الكتاب - في معزوفاتهم التى اعتادوها حتى وإن اقتضى الأمر أن يقتطعوا ويحجزوا من عباراتهم ما شاءوا ليستقيم لهم المعنى المغلوط الذى يريدون !!

لم تعد مهمة صاحب رأى أن يكابد فقط ليقول ما يريد ، وإنما أن يحميه ويرعاه .. ليصل إلى الناس ما يقول !!

إن الدعوة الحقيقية إذن ، هى تحرير الكلمة من قيودها وإطلاق إسارها من أغلالها .. إن القضية ياسيدى هى قضية الإعلام فى مصر .. كيف يكون ، ولمن .. للحكومة أم للشعب ؟!

هذه يا سيدى هى «القضية» !!!



كانت هذه هى رسالتى ، بقى أن أنقل إلى القارئ أن محكمة القاهرة الابتدائية وأيدتها المحكمة الاستئنافية فى الدعوى ٨٧/١٥١٢ م.ك جنوب القاهرة . قد قضتا بعد رحيل الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى بقبول دعواه وبإلزام التلفزيون المصرى ووزير الإعلام بصفته بتعويض الأستاذ الشرقاوى بعد ما ثبت تحريف كلامه بالحذف والمونتاج فى حديثه بمناسبة أعياد الشرطة !!!

ما أشبه اليوم بالبارحة !!

من

تراب (٣٥٨) من هموم المساواة! (*)

الطريق

لدى إناث البشر مخزون متوارث هائل جدًا متراكم من أحقاب وأجيال - خاصة لدى الحضريات .. مخزون من الاندفاع والهزل واللعب والعبث وكثرة التكرار والحديث وحب التغيير والتبديل في الأشكال وسرعة القلب في العواطف والقدرة على النسيان والعناية بإبراز مفاتن الجسد ، ومخزون من الخيال المتشوق السطحي بغير استغراق في المعنويات والتصورات المجردة والمسئوليات الآجلة .. شديد الانشغال بالحاضر ومطالبه وكثير الاهتمام بالزبد والزهو وإثارة الرغبة والاشتھاء وإشعال نار الحاسدات والمنافسات !

هذا المخزون الهائل جدا لا يمكن أن يمحوه - أن يتساوى الإناث والذكور في التعليم والعمل ، وأن تفتح للجنسين جميع منافذ الأشغال والمهن بلا تفریق ، وأن لا يفرق بين الرجال والنساء فروق في الأجور والمرتبات والحقوق .. لأن ذلك ليس إلاّ تغييرا طارئاً في الفرص التي يتيحها المحيط .. لا يغير شيئاً يُذكر في ذلك المخزون والموروث الهائل .. كما لا يغيره أن توجد ملكة تملك أو رئيسة جمهورية تحكم أو رئيسة وزارة أو وزيرات أو رئيسة جامعة أو منظمة أو قاضية .. لأن ذلك ليس لعموم الجنس ، وليس شيئاً عادياً كما في الرجال .. ولكن بفضل مواهب أو

(*) المال ١٦ / ١١ / ٢٠٠٩

ظروف خاصة لدى بعضهن .. وهن مع ذلك يحملن نصيبهن من ذلك المخزون الموروث .. لا يمارين فيه ولا ينكرنه بحال ! .. فأثار هذا المخزون لا بد أن توجد بقدر يقل أو يكثر حسب اختلاف استعدادات الأفراد ، ولكن يتعين على من يتعاون معهن أن يراعى دائما أنهن إناث ، وأن يبذل لهن من التحمل واللياقة والآداب والانضباط ما يبذل لطبقتهن ومكانتهن من السيدات .. وهن يتوقعن ذلك ويتظرنه .. لا يتصورن إطلاقاً أنهن صرن رجالاً ، أو لم يعدن نساء ، أو حُرِّمن من مزايا وتوابع جنسهن - لمجرد الوصول إلى ما وصلن إليه من مقام أو مكانة أو سلطة أو مركز . بل هن يستمتعن بجنسهن ويشقن به كسائر الإناث .. فيتزوجن ويلدن ويترملن ويطلقن ويتعرضن للغيرة والإهمال وذهاب المحاسن والمفاتن كغيرهن من بنات جنسهن !

إن التغيير الطارئ في الفرص التي يتيحها المحيط في العصر الحديث بما في ذلك التعليم وإشراك الجنسين فيه بلا فارق ، والمساواة في الحقوق والواجبات بين الجنسين - تغيير في الآمال والأهداف والتصورات .. ولكنها لا تغير الطبيعة ولا تغير ذلك المخزون المتوارث الهائل - لدى الإناث !

ولا توجد في العصر الحديث حركة جادة في أى بلد موجهة لعلاج هذا المخزون وتنقيته وترقيته . بل تتحرك الجمعيات لضمان المساواة والحرية للإناث بعامة مع وجود هذا المخزون أو برغم وجوده .. وقد صادف هذا رضاء من جانب الصناعة والتجارة العالمية .. إذ صار خروج الإناث للأعمال والأشغال وصارت أجورهن - مصدر زيادة في اليد العاملة وزيادة في جمهور المستهلكين ، سيما وهن أكثر إقبالاً على الشراء من الرجال .

وهذا الاعتراف فى عصرنا بالمساواة والحرية للنساء .. قد أدى إلى الاعتراف بحرية الجنس بعامه .. فى البلاد المتقدمة لم يعد يُرفض أو يُقاوم أو يُعاب الشذوذ الجنسي بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة .. ولم تعد هذه المجتمعات تطلب العذرة أو البكارة فى الزواج ، أو تحاسب الفتاة على علاقاتها الجنسية السابقة عليه . كما لم يعد للزواج هبة ولا للطلاق صعوبة .. بل هان كل من الزواج والطلاق وهان لذلك اهتمام النساء والرجال بالأولاد وقّل شأن الأسرة فى نظر الصغار لأنها فقدت قيمتها عند الكبار !

وجاءت ردود أفعال من المتدينين ورجال الدين - قليلة الجدوى عالية الضوضاء كثيرة الكلام .. لم تفتن إلى أن ذلك المخزون الهائل الموروث يمكن تنقيته وترقيته .. فهو ليس طبيعة وإنما اكتساب واعتياد اجتماعى عميق الجذور جدا يحتاج تعليم الأنثى عن نفسها ما لا يعرف عنه الذكور عادة إلا القليل .. وتدريبها على تنقية هذا الموروث وترقيته .. حتى لا تفاجأ مع إطلاق الحرية والمساواة - بتداعى الشقاء والحيرة والفشل كما هو حادث الآن !

ثم لا يوجد فى أصل العقل اعتراض على الزينة وإخفائها وإعلانها ، ولا على التطيب والعناية بالمظهر مع الاحتشام ، إنما الإشكال فيما يكون خلف ذلك من الاكتفاء بقصد عام مبهم ، ومن عدم ثبات المقاصد .. وذلك ناطق بقلة اتزان النفس .. إذ ليس يكفى تقليد أخريات أو آخرين فيما يفعلن فى أنفسهن أو يفعلون فى أنفسهم إذا لم يكن لدى آدمى قصد جاد لغرض خاص به بالذات .. إذ من الحق العام ألا نلتفت إلى

المخزون الهائل الموروث الذى لا تفكر فى تنقيته .. بل نحوم حوله بلا انقطاع .. ونفسح المجال أمامه للتعبير عن نفسه - بالدعوة إلى المساواة والحرية .. كأنها هذه الدعوة ستقوم بذاتها بتنقية وترقية ذلك المخزون ! وربما نجد خلف هذا الحمق العام فى البلاد المتقدمة .. نجد حرية الجنس أى حرية الآدمى ذكرًا أو أنثى فى التصرف فى نفسه جنسيا وفق مشيئته .. وقد استعمل المراهقون من الجنسين هذه الحرية كالبالغين .. فالكل حر فى أن يلتقط ما يشتهى عند من يصادفه بشرط التراضى .. وحر فى إظهار وإعلان مفاته على الملأ بمثل هذا الاحتمال المبهم !!

وهذا قد أخفى أو كاد أن يخفى الفارق المادى الذى كان موجودا ظاهراً للعيون - بين الفحش والفواحش والفاحشين ، وبين جمهور الأسوياء .. وصارت التفرقة تفرقة ظنية معنوية شخصية يزيد فيها الفرد أو ينقص ما يشاء كما يشاء . فتراكمت دواعى الحيرة فى الشك وعدم الثقة ، وتجمعت فرص الخيبة وإساءة الظن بالناس وبالأيام ، وغلب التشاؤم لدى الأجيال الحاضرة التى قابلت فى سن مبكرة جدًا العديد من الخبرات المروعة بدنيًا ونفسيًا على غير استعداد وقبل النضج البدنى والعقلى .. ويصعب جدًا علاج عواقب هذه الخبرات فيهم وفى من يتعايشون معهم وفى ذراتهم . هذا كله لا يلتفت إليه إلا قليلون جدًا .. لأن مجاله هائل يشمل جميع الطبقات ويخالط حياتهم اليومية .. ويقابل فى كل منعطف وكل طريق وكل بيت وكل أسرة .. نهارا وليلا وصيفًا وشتاءً فى جميع البلاد المتقدمة !!

من

تراب (٣٥٩)

الطريق

إنها جرائم سب (*)

لا جرائم رأى !

من تسطيح الأمور والمغالطة الفجة ، أن نخلط بين الرأى وهو مباح ومطلوب ، وبين الشتم والسب والقذف ، وهو جرم يعرض للشرف والكرامة والاعتبار ، وأحيانا للأعراض .. ومن يتابع الجارى الآن فى بعض الفضائيات وبعض الصحف ، سيجدها حافلة بأقذع عبارات السب والقذف والتجريح والالتهام والإهانة ، ونشر الفضائح أو تأليفها واختراعها ، والخوض فى الشرف والاعتبار والأعراض .. ولن يعثر الباحث وسط هذا الغناء على «رأى» حقيقي يجرى الحوار أو التقارع حوله !! على مدار عشرات السنين ، قبل وبعد ١٩٥٢ ، ضاقت الحريات أو اتسعت - لم يجر خلط قط بين الرأى والسب .. ظل الرأى رأيا حتى وإن ضاق به البعض وضيقوا الخناق أو افتعلوا الأسباب لملاحقته أو عقاب أصحابه ، وظل السب سباً لا يجادل أو يمارى فيه العقلاء ، ويرونه غير جدير بأمة لها ما لنا من الموروث الدينى والثقافى والحضارى والمعرفى .. ولم يسبق فى أى عهد ، أن شهدت مصر ما نشاهده الآن من انتشار ما أسميته سلفا ثقافة الهدير ، وقد انتقلت هذه الثقافة المعيبة من مجرد الصخب وعلو الصوت والضوضاء والضجيج ، إلى قاع البذاءة

(*) المال ١٧ / ١١ / ٢٠٠٩

والسباب والشتائم والتغول في الشرف والاعتبار والأعراض .. وهو تغول لا يبيحه قانون ، ولا ترتضيه شريعة ، حتى ولو كان موضوع السبب صحيحا ؛ لأن القانون لا يبيح السبب لأنه تعيب صرف وإهانة لا مبرر ولا حجة لها ولا غاية نظيفة ترتجى منها .. وهو غير الطعن في أعمال الموظف العام أو صاحب الصفة النيابية العامة أو المكلف بخدمة عامة .. فالطعن في الأعمال وإن صار قذفاً - ينصرف ولغاية عامة إلى نقد الأعمال لا إلى سب وشتم وإهانة الأشخاص .. لذلك كان الطعن في مثل هذه الأعمال مباحا متى التزم أدب وملاءمة العبارة ولم يخرج عن دائرة الموضوع إلى السب الشخصي المقصود لذاته بقصد الإهانة والتحقير !

من يتابع سيل القضايا التي وجدت طريقها إلى ساحة القضاء ، أو دفعت إليها ، سوف يرى أن غالبيتها الغالبة جرائم سب وليست قضايا رأى .. التقاذف الجارى بين بعض النقاد الرياضيين ، سب لا يبرره خلاف حقيقى فى رأى ، والعمل الطائش الأحمق الذى خاض فى عرض فنانيين سب وقذف لا ينطلق من رأى ولا يستهدف غاية يقرها العقلاء وأصحاب الفكر والرأى ، والأسلوب الذى يجرى به تأييد الفرقاء والمتقارعين فى أروقة المحاكم وعلى شاشة الفضائيات ، سباب وشتائم وتفاهة لاتنضوى فى إطار المواقف الحقة أو الانتصار الموضوعى لقيم أو لمبادئ أو لقضايا !

يمكن أن تصنف فى باب الرأى - وسط هذا الزخم - نسبة لن تزيد بحال من الأحوال عن ١٪ أو ٢٪ أو أكثر قليلا من القضايا المتداولة الآن ، بيد

أن أكثر من ٩٠٪ من هذه القضايا اشتباكات شاطحة لأغراض يتشابك فيها الناس تصفيةً لحسابات أو إشفاءً لغلل أو رغبة في الإيذاء وإثارة الفضائح أو للاستعراض وجذب الأنظار! .. ومعنى هذا أن «الأدب» صار في محنة شديدة ، وأن الخطر الذى تتعرض له الكرامات والأعراض ، جعل يزحف على العقل الفردى والجمعى .. فالعقل يتوارى ويتراجع مع الهدير والسباب .. لا يوجد فى السب والشتم والإهانة والتحقير ما يستثير العقل أو يحرك قدراته أو ملكاته ، واعتياد هذا الهدير هو تراجع مؤكد للعقل مع تراجع الأخلاق والآداب العامة !

ومن الغريب ونحن نعانى من جرائم سب وشتم وقذف ، ولا نعانى حقيقة مما يحلو للبعض أن يطلقوا عليه جرائم رأى .. من الغريب أن نطلق الحبل على الغارب لهذا السباب وتلك الشتائم بتسطيح العقوبة والمطالبة بمزيد من تسطيحها .. مع أن انتشار الجريمة يوجب تشديد العقاب لا تسطيحه أو إلغائه .. وقد كان من نتيجة ذلك أن انفلت الزمام وجمحت الشتائم والسباب تحت شعار الرأى وما هى برأى ، وأصيب كثير من الناس فى أمانهم وكرامتهم واعتبارهم وأعراضهم !! ترك هذا الحبل على غاربه هو دعوة لكل مضرور من سب وقذف وإهانة أن يأخذ حقه بيده .. وأخذ الحق باليد فتح ويفتح أبواباً لن تنغلق لمزيد من هذا الرعب الذى انتشر بالهدير والإهانة والسباب والتحقير ، وتراجع العقل والوقار .. فهل هذا هو حقاً ما نريده ؟!!

من تراب (٣٦٠) الدكتور مصطفى محمود (*) الطريق ورحلته من الشك إلى الإيمان!

في هذا الكتاب طرح الدكتور مصطفى محمود الذى ودعنا من أيام، رحلة روحية قطعها ليهتدى إلى نور اليقين .. يروى كيف أتاه هذا اليقين من خلال تأمله فى إبداع الخالق عز وجل فى الكون وفى خلقه وخلق غيره من الكائنات .. يروى الدكتور مصطفى محمود كيف مرّ برحلة طويلة عمرها ثلاثون سنة قطعها بين الكتب والمجلدات والخلوة والتأمل والحوار .. جذبه فى البداية العقل العلمى المادى البحث .. بدأ به رحلته فى عالم العقيدة ، ولكنه رغم إغراقه به فى الماديات التى لا تعترف إلا بالمحسوسات وتنكر جميع الغيبيات - لم يستطع أن ينفى أو يستبعد الحقيقة الإلهية .. فقد لمس الكون أمامه مبنيا وفق هندسة وقوانين دقيقة ، ويتحرك بحساب محكم من الذرة إلى المجرة الهائلة التى تحوى مئات وآلاف الملايين من الشموس .. أمدّه العلم وقتئذ بوسيلة يتصور بها الحق بطريقة مادية ، ولكنه وقع فى أسر فكرة الوجود الهندية وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة التى تبدأ من الحواس ولا تقبل المغيبات .. ومرة أخرى كان العلم دليله ومنقذه .. عرف به أن جميع الموجودات تُرد إلى خامة واحدة ، وما الخلاف بين صنف وصنف أو مخلوق ومخلوق إلا خلاف فى العلاقة الكيفية أو الكمية .. أما الخامة فواحدة .. ووحدة الأسلوب والقوانين والخامات تعنى بالقطع أن خالقها واحد .. وبلا

(*) المال ٢٠٠٩/١١/١٨

شريك .. وأن عقل هذا الخالق كلى شامل ومحيط يلهم مخلوقاته ويهديها في رحلة تطورها ويسلحها بوسائل البقاء .. فهو - سبحانه - يخلق لبذور الأشجار الصحراوية أجحة لتستطيع أن تعبر الصحارى الجرداء بحثاً عن ماء وعن ظروف إنبائية مواتية .. البعوضة مثلاً : لا تعرف بداهة قانون أرشميدس في الطفو حتى تصنع لبيضها أكياساً يستطيع بها البيض أن يطفو على سطح الماء الذى تضعها فيه .. إذن فهو العقل الكلى الشامل الذى خلق فسوى ، وجعل لكل شىء سبباً ..

يروى الطبيب الفيلسوف مصطفى محمود كيف استطاع أن يروى أشواقه في بحثه عن الذات الإلهية .. عرف بالعلم أن الكون ليس أزلياً ، وإنما هو مخلوق كان له بداية ، وإلاّ لكان التبادل الحرارى - وفقاً للقانون الثانى للديناميكا الحرارية - قد توقف من أبديّة طويلة بين شتى الأجرام السماوية . وتوقفت كل صور الحياة وانتهى كل شىء .. والقيامة الصغرى التى نراها حولنا من موت الحضارات والأفراد والنجوم وغيرها .. ماهى إلاّ صورة تدلنا على القيامة الكبرى التى لا بد أن ينتهى إليها الكون ..

والجسد .. سؤال آخر ظل حائراً في ذهن الدكتور مصطفى محمود حتى أتاه الجواب : الأجساد كلها من أصل واحد .. من خامة واحدة ، ولكن لكل فرد منا فرديته الخاصة به .. لماذا ؟ .. الفرق ناتج ليس فقط عن الاختلاف الكمي في الذرات ، وإنما أيضاً عن اختلاف أكبر وأعقد في العلاقات بين تلك الذرات وكيفيات الترابط بينها .. تماماً كالكتب التى تختلف عن بعضها عظيم الاختلاف مع أنها جميعاً تتألف من عدد معين لا يزيد ولا ينقص من الحروف الأبجدية للغة المكتوبة بها ..

والسياحة في الجسد ، مليئة بالأعاجيب التى تُذهِبُ الشك وتأتى

بالإيمان واليقين .. لقد بلغ من التفرد أن بصمة واحدة لم تتكرر بين إنسان وآخر منذ بدء الخليقة رغم ملايين البلايين من الأفراد .. وبات من المعلوم الآن أن لكل جسد شفرة كيميائية خاصة به بحيث يصبح من العسير ، وأحياناً من المستحيل .. ترقيع جسد بقطعة من جسد آخر .. ما معنى هذا ؟ .. معناه أن التفرد حقيقة جوهرية يشهد بها العلم .. وبإلطبع لم يكن الاهتداء إلى هذه الحقيقة يسيراً .. لقد مر الأديب الفيلسوف الباحث عن اليقين بكثير من الأفكار التى أخذ زيفها يتكشف له شيئاً فشيئاً حتى بدت الحقيقة الكبرى ناصعة أمامه .. لقد اكتشف أن الذات الإنسانية تتألف من عنصر متعال مفارق .. فعن طريق النفس نتحكم فى الجسد .. وعن طريق العقل نتحكم فى النفس .. وعن طريق البصيرة نضع للعقل حدوده ..

وهذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه .. هو أكبر إثبات واقعى يقود إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه ، وليست ذيلاً وتابعاً تموت بموته .. وإلا فكيف نفس استمرار جميع الوظائف الفسيولوجية والأفعال المنعكسة واللاإرادية أثناء النوم .. إن النوم ثم اليقظة - وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث - يكشف مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى الجثمان أو الجسد النائم - فجأة وبلا مقدمات - هتلى أو نيرون أو غيره من الشخصيات .. فإذا بهذا الفرق الهائل بين هؤلاء يتجلى فى لحظات ..

إن هذا العنصر المتعالى هو الجزء المدرك فىنا .. ولو أردنا مزيداً من التعرف عليه فلنقارن بينه - وهو الروح - وبين الجسد إزاء الزمن .. إننا سنجد أنفسنا أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم معه

ويكبر ويشيخ ويهرم معه ، وهو الجسد .. وجزء آخر منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتأثر به أو ينصرم معه .. ولتبسيط ذلك فإنه لا يمكن لأحد أن يدرك الحركة وهو يتحرك معها في نفس الفلك ، وإنما لا بُدَّ له من عتبة خارجية يقف عليها ليرصدها منها .. وما دام الجزء المدرك فينا - وهو الروح - هو الذى يقوم بهذه المهمة ، وليس الجسد - فإن معنى ذلك أن الروح تؤديها من موقف خارج عن الزمن ، ومتجاوز له .. وهذا هو الذى يفسر لنا فناء الجسد وخلود الروح .. خلودًا تأتي معه فى الأوان الذى يقدره الوارث الباقي فتلبس ما شاء لها سبحانه وتعالى أن تلبسه .. وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله ، ويدرك أنه وجود مغاير فى نوعيته للوجود الخارجى النابض المتغير من حولنا .. كل منا بإمكانه أن يحس بداخله حالة حضور وديمومة وامثال وشخص وكيونة حاضرة دائمة ومغايرة تمامًا للوجود المادى المتغير مع الزمن خارجه .

كان هذا محض نموذج لقنوات ثلاث فقط من ثمانى قنوات شق من خلالها الدكتور مصطفى محمود غمار باقى رحلته من الشك إلى الإيمان : العدل الأزل ، ولماذا العذاب ، وماذا قالت له الخلوة ، والنوازن العظيم ، وأخيرا المسيح الدجال . ومن خلال أسلوبه الذى عرضناه تستطيع أن تلمح مساره فى باقى قنوات الرحلة التى قطعها الطبيب الأديب والفيلسوف حتى أشرقت نفسه واهتدت إلى نور المعرفة وضياء اليقين .

من تراب (٣٦١) أينشتين والنسبية (*) الطريق فى كتاب مصطفى محمود

هل نحن نرى الدنيا على حقيقتها ؟ .. هل هذه السماء التى نراها ..
زرقاء فعلاً ؟ . وهل الحقول خضراء ؟ . وهل الرمال - حقا - صفراء ؟ .
وهل العسل حلو .. والعلقم مُر ؟ . هل الماء سائل .. والجليد صلب ؟ .
وهل الخشب مادة جامدة كما تقول لنا حواسنا ؟ .. وهل حجارة الأرض
مادة موات .. لا حركة فيها ولا ديب ؟ . وهل الزجاج شفاف كما يبدو
لنا .. والجدران صماء كما نراها ؟

بهذه الأسئلة وغيرها استهل الدكتور مصطفى محمود الذى رحل عنا
من أيام - استهل كتابه الضافى .. «أينشتين والنسبية» ..

موضوع الكتاب بادٍ من عنوانه .. فيه تناول الطيب العالم الفيلسوف
النظرية التى شغلت العالم ولا تزال تشغله منذ بداية القرن الماضى ..
عاشت النظرية النسبية منذ بداية وضعها سنة ١٩٠٥ وإلى عهد قريب -
فى برج عاجى .. لا يقربها ولا يجرؤ على الاقتراب منها إلا المختصون . ولكن
منذ أن دخلت فى القنبلة الذرية ، خرجت من حيز الفروض والمعادلات
الرياضية لتتحول على يد البعض إلى واقع رهيب .. استلفت أشواق
واهتمامات الناس ، ودعا غير المختصين إلى محاولة الإلمام بها .

(*) المال ٢٠٠٩/١١/١٩

ومن أجل ذلك تعددت محاولات العلماء لشرحها وتبسيطها وتقريبها إلى الفهم .. وحاول أينشتين نفسه تبسيط ما في نظريته من غموض .. وكان يقول إن قصر المعلومات على عدد قليل من العلماء بحجة التعمق والتخصص يؤدي إلى عزلة العالم .. وإلى موت روح الشعب الفلسفية وفقره الروحي .

كان أينشتين يكره الكهانة العلمية والتلفح بالغموض والادعاء والتعظيم .. ويقول إن الحقيقة بسيطة .. وفي محاولة محمودة للمساهمة في هذا التبسيط ، وضع الدكتور مصطفى محمود كتابه ، محاولاً تبسيط النظرية بغير تسطيح ، وبما يتفجع به طلاب المعرفة ، والباحثون عن عظمة هذا الكون السرمدي التي تبدو في وحدته واتساقه .. وفي قوانينه لمنطقية الخالدة . كان أينشتين يؤمن بهذه الوحدة إيماناً دينياً .. وهى تقوم في ذهنه سابقة على أى برهان .. وأكثر من هذا هو مؤمن بالمعنى التقليدى للإيمان .. فهو يعتقد في إله ، ويعتقد أن الكون متسق ومنسجم ، وأنه آية من آيات النظام .. وأنه يمكن تعقله .. لذلك فإن النظرية النسبية التى وضعها أينشتين ليست كلها معادلات .. وإنما لها بجوار ذلك جوانب فلسفية .. بل إن المعادلات الرياضية نفسها لم تنبعث في ذهن أينشتين إلا نتيجة شطحاته التى حاول فيها أن يتصور الكون على صورة واحدة .

فنحن - جميعا - لا نرى الدنيا على حقيقتها المطلقة .. وليست الألوان التى نراها كذلك في الواقع المجرد .. دليلنا أن النور الذى نراه أبيض إذا مررناه خلال منشور زجاجي فإنه يتحول إلى سبعة ألوان هى ألوان

الطيف المعروفة .. والنباتات لا نراها خضراء إلا لأن أوراقها تمتص كل أمواج الضوء فيما عدا موجة معينة هي التي تعكس على حواسنا البصرية هذا اللون الأخضر .. كذلك فإن الحلاوة التي تذوّقها في العسل ليست صفة موضوعية مطلقة فيه ، وإنما هي صفة نسبية نسبة إلى حاسة التذوّق في ألسنتنا .. وقد يكون له طعم آخر في مذاق غيرنا من المخلوقات .. كما أن الماء والبخار والجليد مادة واحدة تركيبها الكيميائي واحد ، وما بينها من اختلاف ليس اختلافاً في حقيقتها ، وإنما في كيفيةها .. وهي هنا درجة تقارب الجزيئات من بعضها البعض .. كذلك كل المواد الصلبة .. ما هي إلاّ خلاء منثور فيه ذرات .. ولو أن حسنا البصري مكتمل ، لأمكننا أن نرى من خلال الجدران .. لأن نسيجها مغلغل كنسيج الغراب .. ولو كنا نرى عن طريق أشعة إكس - لا عن طريق الضوء العادي - لرأينا بعضنا عبارة عن هياكل عظمية .. ليس ما نراه إذن أو ما نحسه بالفعل - هو الحقيقة المجردة .. وإنما هي جميعاً أحكام نسبية نطلقها على الأشياء .. نسبية بالقياس إلى حواسنا المحدودة .. ومن ثم فإن العالم الذي نراه هو عالم اصطلاحى نحن فيه أسرى للرموز التي يخلقها عقلنا لإرشادنا إلى الأشياء .

لهذا فإن الرسام التجريدى على حق حين يحاول التعبير على طريقته بما يراه ويحس به .. فهو يدرك بالفطرة أن ما يراه بعينه ليس هو الحقيقة .. وبالتالي فهو غير ملزم به .. وأن في إمكانه من ثم أن يتلمس الحقيقة - لا بعينه - وإنما بعقله .. وربما بعقله الباطن .. أو وجدانه .. أو روحه .

من هنا لا يختلف أينشتين في مغامرته العقلية عن الرسام التجريدى في

مغامرته الفنية .. فقد كان معظم ما كتبه من معادلات تجريداً للواقع على شكل أرقام وحدود رياضية .. ومحاولة جادة من رجل العلم لهزيمة العلاقات المألوفة للأشياء وإزاحتها لتبدو من خلفها لمحات من الحقيقة المدهشة التي تستتر في ثبات العادة والألفة .. قد لا نرى أشياء موجودة فعلاً .. فغير ألوان الطيف السبعة توجد ألوان أخرى أمواجهها أقصر وأطول من أن تدركها حواسنا .. كفوق البنفسجية وتحت الحمراء .. فنحن لا نراها بحواسنا - ولكنها موجودة حيّة في الواقع المجرد .. وعلى العكس .. قد نرى أحياناً أشياء لا وجود لها .. فبعض النجوم التي نراها في أعماق السماء تبعد عنا بمقدار (٥٠٠) مليون سنة ضوئية .. وقد يكون النجم نفسه الذي نراه من خلال الضوء الذي بدأ رحلته منذ هذا الزمن الموهل في القدم - قد انفجر الآن واختفى أو انطفأ .. إننا قد نكون محملقين في شيء يلهم دون أن يكون له - الآن - وجود بالمرّة .. إلى هذه الدرجة يمكن أن تضللنا الحواس .. دليلنا في هذا التيه الذي كشفه أينشتين بنظريته .. التسليم أولاً بأننا لا نملك الحقيقة المطلقة ، فهذه الحقيقة في جوانبها التامة الكاملة لا يعرفها إلا الله وحده .. والرحلة الإنسانية للوصول للحقيقة النسبية ، تستلزم ابتداءً إغفال كل ما تقوله الحواس ، واستعمال الحسابات والأرقام .. وباقتناع مسبق بأن العالم كله بشموسه وأفلاكه ، وذراته وإلكتروناته ، وحدة منسجمة خاضعة لقانون واحد بسيط سعى أينشتين جاهداً لاكتشافه والوصول إليه .. وفي سبيله الحثيث يعرض أينشتين إلى مكونات الكون الرئيسية التي ارتآها : المكان ،

والزمان ، والكتلة ، والمجال .. وعن وجهة نظر أينشتين في هذه المكونات الأساسية للكون يتحدث الدكتور مصطفى محمود في فصول الكتاب .. وجملة ما يصل إليه بالتحليل البسيط المحكم لنظرية أينشتين ونتائجها - أن كل هذه المكونات مقادير صغيرة نسبية .. فالمكان دائما مقدار متغير ونسبي ، لأن تقدير وضع أى جسم لا يكون إلا مقياسا وضعه بالنسبة لمتغير بجواره .. كذلك الزمان .. فهو أيضا مقدار متغير ونسبي .. فلا يوجد زمن واحد للكون كله .. وإنما يوجد عديد من الأزمان بالنظر إلى ما تنسب إليه وتقاس به .. وكذلك الكتلة ، والمجال الذى يقصد به أينشتين ما يحيط بالأجسام والحركات الكونية .. واجهت أينشتين بعد تحليل الكون إلى مكوناته الأساسية الأربعة .. التى هى متغيرة ونسبية - واجهته مشكلة بناء تصوره للكون فى الصورة المعقولة التى نراه عليها .. كان عليه أن يرد على تساؤلات قديمة : هل الكون نهائى محدود ، أم لا نهائى لا محدود ؟ ، وهل هو مسطح كالبحر تسبح فيه مجموعات النجوم كالجُزر ، أم هو غائر كالبحر وهذه النجوم معلقة فى أعماقه ؟ .. جملة ما وصل إليه أينشتين ، هو نهائية الكون ، ولكنها نهائية غير محدودة .. بمعنى أنه لا يصح السؤال عما بعدها .. لأنه خارج حدود العقل البشرى وإمكانياته .. فالعلم عاجز عن رؤية البداية والنهاية كلها ، قاصر عن فهم ماهية كل شئ .. وكل ما يستطيعه العلم هو أن يقيس كميات ، ويتعرف على العلاقات التى تربط هذه الكميات ، ويكتشف القوانين التى تجمعها معا فى شمل واحد .. وصدق القرآن المجيد الذى قال : ﴿وَمَا أُوتِشِرَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] .

من تراب (٣٦٢) طه حسين وقادة الفكر (*) الطريق

نحو منتصف القرن الماضي ، قدم الدكتور طه حسين كتابه المعروف :
« قادة الفكر » .. قد يبدو من عنوانه أنه ترجمة لحياة بعض قادة الإنسانية ،
ولكنه في الحقيقة ترجمة لفكرهم وخلاصة اتجاهاتهم وإنتاجهم .. أو هو
تاريخ للعقل الإنساني وما اعترضه من ضروب التطور وألوان الاستحالة
والرقى حتى انتهى إلى حيث هو الآن .. أمّا لماذا أثار عميد الأدب العربي
هذا النهج ، فلأنه يرى أن الفكر والآداب - ومهما كانت قدرة وعظمة
روّادها - ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، بمعنى أنها أثّر من آثار
الجماعة والبيئة أكثر منها أثراً من آثار الفرد الذي رآها وأذاعها ..

يضم كتاب الدكتور طه حسين ترجمة الفكر والعقل من خلال تعرضه
لقادته ورواده .. هوميروس .. سقراط .. أفلاطون .. أرسطو طاليس ..
اسكندر المقدوني .. يوليوس قيصر .. ثم مبحث بعنوان « بين عصرين » ،
وآخر بعنوان : « العصر الحديث » ..

هوميروس صاحب « الإلياذة » و« الأوديسة » ، هل هو شخص واحد ،
أم هو - فيما اتجه إليه جانب من المؤرخين والباحثين - جملة أشخاص كتبوا
تباعاً هذه الأشعار والروائع ، وأضافوا إليها جيلاً بعد جيل !!؟

(*) المال ٢٣ / ١١ / ٢٠٠٩

سؤال يطرحه الدكتور طه حسين فى مستهل حديثه عن هوميروس ،
ولا يخفى أنه أميل إلى الرأى القائل بأن هذا التراث اليونانى العظيم من
الأشعار والأناشيد إنما هو نتاج قرائح جملة شعراء - بما فى ذلك الإلياذة
والأوديسة .. ولكنه لا يقف كثيرا عند هذه النقطة ، وإنما يتجاوزها إلى
ما هو أجدى عنده .. فيغوص متأملا فى تاريخ اليونان ، يستجلي فكرها
فى هذه الحقبة التى قدمت للإنسانية كلها بدور حضارتها .. فيلاحظ أن
اليونان والعرب يتشابهان فى أن حياتهما كانت تقوم على الشَّعر فى بداوتها
وأول عهدهما بالحضارة .. ولأن الشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة
الاجتماعية القوية لهاتين الأمتين ، فإننا نستطيع أن نقول بغير حرج إنه
كان أيضا أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القومية لكل الأمم
المتحضرة التى عرفها التاريخ ..

بديهيٌّ إذن أن يكون الشعراء هم قادة الفكر فى هذه الأمم فى ذلك
الأوان ، وقد كانوا .. تأثروا وأثروا فى جيلهم وفى الأجيال التى خلفتهم ..
منهم من ذكرتهم الإنسانية ، ومنهم من نسيتهم .. ولكنها بعد أن عاشت
آثارهم عصورا طويلاً - عادت تذكرهم وتبحث عنهم ... فما مكان
هوميروس بين هؤلاء ؟!

إنه لا شك فى مكان الصدارة بهذا الإنتاج الذى توارثته الأجيال جيلاً
بعد جيل .. ولكن مَنْ هو ؟ هل هو شخص أم أشخاص ؟! لقد نقل
المؤرخون والباحثون صوراً شتى ، منها ما يسلم به ، ومنها ما ينكره -
كشخص واحد - إنكاراً تاماً .. ولكن لاسيلى إلى إنكار: «الإلياذة»

و«الأوديسة» .. وفيهما أكبر دلالة على قيادة الشعر والشعراء للفكر
الإنسانى فى ذلك الأوان ..

و .. سقراط .. هل كان هو همزة الوصل فى انتقال ريادة الفكر من
الشعراء إلى الفلاسفة ؟ .. إن الريادة - لا تنتقل بين يوم وليلة .. وإنما هى
نتاج حقب وربما قرون .. ومع ذلك فقد كان سقراط أول شجرة سامقة
تبدو على أغصانها هذه النقلة من عالم الشعر والخيال إلى عالم الفلسفة التدبر
والتفكير .. قبل عصره كان وجه الحياة على أرض اليونان قد أخذ يتغير إلى
معالم أخرى وضوابط مغايرة صنعها الاستقرار بعد الترحال ، والحضارة
بعد البداوة ، والحرب والتطاحن بعد الأمن والسلام والطمأنينة .. وفى
عصره - عصر سقراط - كان الشك قد وصل إلى مرحلة لم يعرفها العقل
اليونانى من قبل .. شكٌ فى كل شىء حتى أصبحت فلسفة السوفسطائيين
- الذين يبررون لكل شىء - هى مرآة العصر .. فى هذا الجو نشأ سقراط ،
وظهر بكل ما فيه من فكر عميق ورغبة عارمة فى المعرفة .. لم يدع فى
تسأله شيئاً ، ولم يترك فى محاوراته أحداً .. وخالف عَمَّنْ سبقوه بأنه لم
يلتزم مكاناً لدروسه ولا موضوعاً لها ، ولا اتخذها وسيلةً لكسب المال ..
شعاره : «اعرف نفسك بنفسك» ، وهى عنده فلسفة تنحصر فى شيئين
: أولهما : أن الإنسان بجهله بنفسه فى جميع العصور المتقدمة قد تلمس
العلم فى خارجه .. فى الأرض أو السماء .. وثانيهما : أن الفلسفة ينبغى
أن تقوم على معرفة النفس والإحاطة بها .. ففيها أساس كل شىء ..
لقد وَضَعَ سقراط بذلك أساس علم النفس وعلم الأخلاق .. وَجَعَلَ

السعادة غرض فلسفته وغايتها ، وأبان أن محور الحياة الذى عنه صدرت وإليه تنتهى - هو «الخير» .. طريقه لذلك هو أسلوب الحوار والتوليد الذى تميز به وأورثه تلاميذه والمدارس التى أخذت عنه .. أبقاها وأبعدها أثرًا وأعظمها حظًا هى تلك التى قدمت للفكر الإنسانى والفلسفى رجلين من أعظم قادة الفكر هما : «أفلاطون» و «أرسطو» .

كان لفلسفة سقراط ومأساة محاكمته وإعدامه أثرٌ وأى أثر فى نفس وفكر تلميذه الوفى أفلاطون .. ولكنه مع ذلك خالف فى فلسفته عن سقراط نفسه ، كما خالف عمن سبقوه ولحقوه .. فقد اتخذ الكون والإنسان جميعًا موضوعًا لمباحثه الفلسفية ، ثم لم يتخذهما موضوعًا لبحث فلسفى خاص ، وإنما حاول شيئًا جديدًا ، هو درس هذه المذاهب الفلسفية الكثيرة المختلفة ، وموازناتها ، واستخلاص ما فيها جميعًا من خير ، وإقامة فلسفة جديدة من جهة وقديمة من جهة أخرى .. ووفقًا فى ذلك توفيقًا عظيمًا أعانته فيه مواهبه العديدة من أدب وشعر وخيال . وفلسفة وعلم واسع .. وكما كان الحوار والتوليد أسلوب أستاذه سقراط ، كانا أيضًا أسلوب أفلاطون ومنهجيه فى البحث والتفكير ..

الوجود عنده ثلاث درجات : الأولى درجة الموجودات المحسوسة التى تلامسها وهى لا ثبات لها ولا استقرار . والثانية هى الواسطة بين المحسوسات وبين الدرجة الثالثة .. هذه الدرجة الثانية تمثل الصورة الذهنية والحقائق الثابتة الخالدة التى لا ينهاها التغيير ، ولا تعرض لها الاستحالة ، والتى تؤثر ولا تتأثر .. يسميها أفلاطون بالأفكار والمثل ، والعلم بها هو الفلسفة حقًا وهو اليقين حقًا ...

الفلسفة فى غايتها الكبرى عنده ينبغى أن تستهدف استجلاء «فكرة الخير» التى هى مصدر السعادة .. ولأن الفيلسوف يدرك الخير - بتأمله - ويراه ، فإنه أسعد الناس .. وفى تفسير ذلك يوضح أفلاطون أن النفس مزاج يتألف من قوى ثلاث : القوة العاقلة التى تتفهم الأشياء وتدرکها ، والقوة الغضبية التى قد نسميها الشجاعة ، والقوة الشهوية التى تعنى بوجود الجسم المادى .. الأولى مستقرها الرأس ، والثانية الصدر ، والثالثة البطن ... مثلها جميعا كمثلى عربية يقودها جوادان : أحدهما الغضب والآخر الشهوة وسائقهما هو العقل ..

على هذا التقسيم قسم أفلاطون - المجتمع أيضا إلى الحكومة التى تضاهى عنده القوة العاقلة ويستحقها الفلاسفة ، وفئة المنتجين من عمال وزراع ، وفئة المقاتلين التى تقابل القوة الغضبية فى النفس البشرية ... ومن هذا المنطلق أقام جمهوريته الشهيرة أو المدينة الفاضلة ...

من عباءة طه حسين - خرجت قامات عالية سطرت حياتنا الأدبية والثقافية لعشرات السنين .. المخيف أن الخمول أصاب حياتنا الأدبية والثقافية بعد رحيلهم ، ولم يعد بالساحة إلا جزر متفرقة صنعت نفسها بجهود ذاتية شاقة ، لأن حضانات الكبار التى كانت توالى المواهب الواعدة انقرضت فى زماننا ، وصار الانكفاء على الذات هو سمة الأغلبية ، ومع تراجع هذه الجهود والكتابات الرفيعة الجودة ، أخلت الساحة للضحج والتفاهة .. لا نملك إزاءها إلا أن نعود من وقت لآخر إلى أعمال هذا العقد الفريد الذى ملأ حياتنا فكراً وأدبا وتنويراً قرابة قرن من الزمان !

من

تراب (٣٦٣) عباس العقاد (*)

الطريق ولغتنا الشاعرة !

تتجه الدراسات الحديثة للتفرقة والمضاهاة بين مزايا كل لغة من اللغات .. يتشيع البعض للعصبية القومية ، وينحو البعض إلى الدراسات الموضوعية التى تبحث فقط عن المزايا العلمية التى تستند إلى خصائص النطق والتعبير المتفق عليها فى العلوم اللسانية . فما هى المزايا الحقيقية التى تثبتها الدراسة الموضوعية للغتنا العربية ؟

عن هذه المزايا الموضوعية العلمية .. وخصوصا مزية التعبير الشعرى ومزايا التعبير بعامة - وضح مفكرنا الكبير عباس العقاد كتابه الإضافي : «اللغة الشاعرة» .. فلماذا وصفت اللغة العربية ، قديماً وحديثاً ، بأنها لغة شعرية ؟! . هل يرجع ذلك لكونها يكثر فيها الشعر والشعراء .. ولانفرادها بالعروض ؟. أم لأنها لغة مقبولة فى السمع يستريح إليها السامع كما يستريح إلى النظم المرتل والكلم الموزون ؟ أم لأنها لغة يتلاقى فيها تعبير الحقيقة وتعبير المجاز على نحو لا يُعْهَد له نظير فى سائر اللغات ؟

هذه مزايا لا ينكرها دارس موضوعى للغة العربية ، ولكن العقاد توقف عند حقيقة جعل يثبتها فى فصول كتابه الشيق .. هذه

(*) المال ٢٤/١١/٢٠٠٩

الحقيقة أكبر من كل ذلك وأشمل .. فاللغة العربية لغة شاعرة لا يكفى أن يقال عنها إنها لغة شعر أو لغة شعرية .. وجملة الفرق بين الوصفين .. بين اللغة الشاعرة واللغة الشعرية .. أن تعبير اللغة الشاعرة أشمل وأعمق من تعبير اللغة الشعرية الذى قد يطلق على لغة لمجرد كثرة الشعر أو الشعراء فيها .. فاللغة الشاعرة تماثل فى ذاتها وخصائصها الشعرَ نَفْسَه فى قوامه وبنائه .. قوامها الوزن والحركة ، وليس لنن العروض ولا لنن الموسيقى كله قوام غيرها .

ينتقل العقاد بعد ذلك من مزايا اللغة فى التعبير الشعرى إلى مزاياها فى التعبير على إطلاقه خارج الشعر وموازينه وقوافيه .. دفعه إلى تقديم هذه الدراسة ، أنها أتت فى زمان تعرض فيه العرب ، وتعرضت لغتهم ، لدسائس الراصدين ، ومعاول هدمهم .. ليس لأنها لغة كلام وكفى ، وإنما لكونها قوام فكر وثقافة وعلاقة تاريخية .

فى اعتداد بلغته ، لا يخفيه العقاد - يورد أن من واجب القارئ العربى - إلى جانب غيرته على لغته - أن يذكر أنه لا يطالب فقط بحماية لسانه ، ولكنه مطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه بها يصيب هذه اللغة العالمية بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال ، وأن بيت القصيد هنا أعظم من القصيد كله .. لأن السهم فى هذه الرمية يسدد إلى القلب ، ولا يقف عند الفم واللسان وما ينطق به فى كلام منظوم أو مثور .. فكيف أثبت العقاد للغتنا العربية مزاياها العلمية التى تفوق بها غيرها من اللغات ، ورد عنها هجوم الدعاة .

قدم العقاد عصارة فكره ودراسته عن الحروف ، والمفردات ، والإعراب ، والعروض ، وأوزان الشعر ، ثم المجاز والشعر ، فالفصاحة العلمية ، فلغة التعبير ، فالزمن في اللغة العربية ، ثم الشعر ديوان العرب ، فنقد الشعر العربي ، فالتقد العلمي .. وأخيرًا الشعر العربي .. وفي كل فصل من فصول هذه المباحث ، بثبت العقاد بالبرهان العلمي كيف أن اللغة العربية هي بالفعل لغة شاعرة بحروفها ومفرداتها وإعرابها ، وعروضها ، وأوزان شعرها وقوافيه ، وبتعبيراتها المجازية ، وبغالب صفاتها التي ثبتت لها بعيدًا عن العصبية والتشيع .

إن حروف الهجاء العربية ليست أوفر عددا من أبجديات غيرها من اللغات .. ومع ذلك فلا تظهر شاعرية اللغة العربية في شيء كما تظهر في تراكيب حروفها .. فاللغات الأخرى على زيادة أعداد حروفها ، لا تبلغ مبلغ اللغة العربية في الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الموسيقية ، لأن كثيرا من هذه الحروف الزائدة في هذه اللغات الأخرى ، إنما هي حركات مختلفة لحرف واحد حسب تغير قوة وأسلوب الضغط عليه .. كأن تنطق الياء : «يا» أو «يو» إلى غير ذلك . أما اللغة العربية فإنها أوفر عددًا في أصوات مخارج حروفها رغم قلتها النسبية الظاهرة ، فليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص فيها ، بل وتبز غيرها من اللغات بحروف خاصة لا توجد إلا فيها .. كالضاد ، والطاء ، والعين ، والقاف ، والحاء ، والطاء .. فضلًا عن موسيقية ترتيب حروفها .. دليل ذلك هذا التزاوج الإيقاعي الملموس بين الباء والتاء والثاء ، وبين الحاء والحاء ، والذال والذال .. وهلم جرا .

فهل استطاعت اللغة العربية أن تنقل هذه الموسيقى الراقية في حروفها إلى تراكيب مفرداتها؟ يكفى أن نلاحظ تراكيب بعض المفردات .. فالفرق مثلاً بين : ينظر وناظر ، ومنظور ، ونظير ، ونظائر ، ونظارة ، ومناظرة ، ومنظار ، ومنظر ، ومتنظر ، وما يتفرع عليها .. هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع ، وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن ، أو قياس صوتي وقياس مثله ، يتوقف على اختلاف الحركات والنبرات ، أى على اختلاف النغمة الموسيقية في الأداء .

على غير هذا النسق تجرى أوزان كثير من الكلمات في اللغات الأخرى .. فقد ترى فيها كلمات على وزن واحد دون أن يدل هذا الوزن على اتفاق في المعنى مثلاً أو على اشتقاق الأسماء والأفعال من كلمة أو غيرها .. بحيث يمكن أن يقال إنه لو لا هذا التشابه العَرَضِي في أوزان بعض كلمات هذه اللغات لوجدنا فيها أوزاناً عديدة بقدر ما فيها من كلمات .. في اللغة الإنجليزية كلمات : آن ، بان ، تان ، جان ، دان ، مان .. وغيرها .. فإنها رغم اتفاقها في الوزن ، لا يوجد أى ارتباط بينها في المعنى أو غيره على عكس هذا الارتباط الذى نراه في مفردات اللغة العربية ذات الوزن الواحد ..

إن موسيقية حروف اللغة العربية ومفرداتها قد لازمتها أيضاً - بالإعراب - في تراكيبها المقيدة .. ذلك أن حركات الإعراب وعلاماته - وهو خاصية تفردت بها اللغة العربية بين لغات العالم - تجرى مجرى الأصوات الموسيقية وتستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع .. ومع أن الشعر وجد في كل لغة

من لغات القبائل البدائية والأمم المتحضرة .. إلا أنه لم يوجد فناً كاملاً مستقلاً عن الفنون الأخرى في غير اللغة العربية .. فالفن الكامل في لغة الشعر ، هو الشعر الذى توافرت له شروط الوزن والقافية وتقسيمات البحور والأعاريض .. فالشعر في كثير من اللغات قد يلاحظ فيه الإيقاع دون القافية والأوزان المقررة .. وربما لوحظت فيها القافية على غير وزن مطرد .. أما الشعر الذى تُلاحَظُ القافية والوزن وأقسام التفاعيل - في جميع بحوره وأبياته .. فهو خاصية من خواص اللغة العربية دون غيرها من لغات العالم أجمع ..

هى إذن لغة شاعرة .. شاعرة في تعبيرها الشعري وتعبيرها العام .. يستشعر القارئ شاعريتها بالبرهان والدليل ، العلمى والشيق ، وهو يجرى مع العقاد على سطور الكتاب الذى يثبت جدارة اللغة العربية الشاعرة بأن تكون واجهة لحضارة عظيمة تباهى بها أمم الأرض جميعا . فهل استطعنا أن نرتفع بفهمنا وعملنا إلى مقام هذه اللغة التى حملت القرآن المجيد إلى العالمين ؟!



من

تراب (٣٦٤)

أغان منسية (*)

الطريق

مع سبق الإصرار !

أن تنسى أغانٍ ، فهذا وارد ، ولكن من غير الطبيعي أن تسقط في زوايا النسيان أغنية جميلة النظم فواحة بالمعاني النبيلة ، من تأليف الشاعر الرائع على محمود طه وتلحين وغناء موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب ! الأغنية التي أردت أن أتحدث إليك عنها ، واحدة من أغاني عبد الوهاب الرائعة ، شبيها عليها في زمن الكرامة ، واستقرت كلماتها ومعانيها في وجداننا ، وتغنينا بها في أناشيدنا المدرسية ، وفي أسمارنا ، وفجأة أُسدل عليها ستار النسيان إسدالاً متعمداً .. كان اسمها فلسطين ، فلما وقف الاسم في الزور ، أطلقوا عليها أخذاً من أول شطرٍ من أبياتها : أخى جاوز الظالمون المدى .. فلما ارتفع سقف المحاذير ، واستشرى التطبيع الخفى تحاشياً لافتضاح التطبيع الظاهر ، حُذفت الأغنية من خريطة الأغاني في الإذاعات وفي شاشات التليفزيون الأراضى والفضائى ! .. ولم يشعر أحد بهذا الحذف الخفى لأن الناس مشغولة بما يتم الإلحاح به عبر موجات الأثير المرئى والمسموع ، حتى فات عليها أن هناك آيات من القرآن الكريم قد جعلت اختيارات التلاوات المسجلة تتحاشاها لأنها فيما يبدو تعرى الطاغوت والعناد الإسرائيلى ، ثم تجرأت الأغراض

(*) المال ٢٥ / ١١ / ٢٠٠٩

شيئا فشيئا حتى شغلنا أحد دعاة : التيك أواى « بسلسلة أحاديث نشرتها
إحدى الصحف طوال شهر رمضان وهاتك يا سب فى فرعون وآل
فرعون ، وهى تزكية مجانية بمفهوم المخالفة لبنى إسرائيل !!!

لا يمكنك إلا أن تشعر بالغىظ إذا قرأت كلمات على محمود طه التى
لحنها وغناها الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب وتجاهلتها الإذاعات
الآن .. وإذ ليس من العدل أن أعتاظ وحدى ، لذا فقد نادانى الهاتف أن
أنقلها إليك لتتحمل معى بعض غيظى وهى !!

فى أغنية فلسطين أو أخى جاوز الظالمون المدى ، يتغنى عبد الوهاب
بكلمات الشاعر على محمود طه ..

أخى جاوز الظالمون المدى	فحق الجهاد وحق الفدا
أنتركهم يغضبون العربوة	مجد الأبوة والسوددا
وليس بغير صليل السيوف	يجيئون صوتا لنا أو صدا
فجرد حسامك من غمده	فليس له بعد أن يغمدا
أخى أيها العربى الأبى	أرى اليوم موعدنا لا الغدا
أخى أقبل الشرق فى أمة	ترد الضلال وتحمى العدا
صبرنا على غدرهم قادرين	وكنا لهم قدرا مرصدا
طلعنا عليهم طلوع المنون	فطاروا هباء و صاروا سدا
أخى قم إلى قبلة المشرقين	لتحمى الكنيسة والمسجدا
يسود الشهيد على أرضها	يعانق فى جيشه أحمدا

نعيش على مهجة جرىء أبت أن يمر عليها العدا
فلسطين يفدى فداك الشباب فحق الفدائي والمفتدى
فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردى

لا أقل من أن تغتاظ معى قليلا .. حتى لا ننسى وينسدل علينا الستار
بينما أخذت أفئدتنا ووجداناتنا وعقولنا فى غيبوبة طويلة ليس لها آخر !!

من تراب (٣٦٥) ما شأن معالى الوزيرة! (*) الطريق

قرأت للدكتورة ليس جابر ، مقالات ساخنة ختمتها بواحد أهدأ قليلا ، توجعاً وأسفاً من تردى أحوالنا حتى صرنا نصدر نساءنا وبناتنا للخدمة فى بيوت الأشقاء فى الكويت أو غيرها من الدول الثرية .. ولا جدال أن غيرة الدكتورة ليس فى محلها ، وكذلك غضبها ، وهى ليست فى حاجة للاعتذار عنهما لا للإخوة الأشقاء فى الكويت وسفيرها الموقر المهذب ، ولا للسيدة عائشة عبد الهادى وزيرة القوى العاملة المصرية ، فالجميع لا بد يتفهمون ، وفى إمكانهم أن يتفهموا ، أن الغضب أو الحدة تنصرف إلى الوضع المصرى الذى يضى كل مصرى أن تتراجع مصر ، فتصدر نساء وبنات للخدمة فى البيوت ، بعد أن كانت تصدر قامات مثل السنهورى باشا الذى وضع الدستور الكويتى ، والدكتور إبراهيم عبده خبير الصحافة والمطبوعات والنشر ، وزكى طليعات الذى أسس المسرح الكويتى .. وواقع الأمر أن هذه القائمة الرفيعة لا تنتهى ، فقد ظلت رئاسة تحرير مجلة العربى الكويتية منذ أنشئت ، وحتى عهد قريب ، معقودة للمفكرين والكتاب المصريين أمثال الدكتور أحمد زكى والأستاذ أحمد بهاء الدين ، ولا تزال بالكويت ذكرى قامات مصرية رائعة مثل

(*) المال ١٢/١٢/٢٠٠٩

الدكتور فؤاد زكريا والدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف المصري فيما بعد ، وغيرهم من العلماء والمفكرين والأدباء .

والواقع أن الكويت لا تزال للآن تعتمد وترحب بقامات مصرية رفيعة في القضاء ، وفي الطب ، وفي الهندسة ، ولا زال المحامون المصريون قبله الزملاء في الكويت ، سواء للعمل معهم في مكاتبهم أو لتكليفهم بالدفاع معهم في كبريات القضايا .. ولا يزال الحضور المصري في الكويت وغيرها شاهداً على ثراء الشخصية المصرية في مختلف المهن والأعمال والوظائف والأدوار !

النقطة الأولى التي أريد توضيحها ، أنه لا يجدر بنا أن نشعر بالمهانة من سعى بعض نساتنا وبناتنا للبحث عن عمل شريف بخارج الديار .. ظنى أن المهانة استشعرتها الدكتورة لميس من تراجع الدور والعطاء المصري ، لا من عمل بذاته .. فالأعمال تتفاوت تبعاً للثقافة والعلم والمؤهلات والخبرة والمقدرة ، سواء في مصر أو في خارج مصر ، فكل من الطبيب والمهندس والعالم والمفكر والكاتب والفنان والصحفي والقاضي والمحامي والأستاذ والمدرس والصيدلي - في حاجة لمن يكمله بالنهوض في حياته بما لا يستطيع هو النهوض به بجوار ما يضطلع به من مهام وأعمال .. هذه الأعمال أيًا كانت أنواعها ذهنية أو مهنية أو حرفية أو يدوية - لا عيب ولا مهانة ولا هوان فيها ، طالما أن قوامها الشرف والإخلاص في أداء الواجب !

ربما ساهمت بعض أعمالنا الفنية والأدبية في ترسيخ صورة سلبية

للفوارق الاجتماعية ، وتصنيف الناس إلى طبقات ، فنرى بعض الأعمال الأدبية أو الفنية مجدولة على الدهشة أو الاندهاش من تلاقى القلوب رغم هذه الفوارق ، فتحدث عن غرام الأسياد ، واليه والشغالة ، أو غير ذلك ، مما لا نجد له مثيلاً أو شبيهاً فيما تصوره الحضارة الغربية من أدبيات لا تفرق بين الطبيب والتومرجى ، ولا بين السيد والخادم ، ولا بين الصيدلى والعامل ، ولا بين أحد من أصحاب المهن أو الحرف الفنية أو اليدوية .. وفى الحديث : «من أمسى كالألأ من عمل يده ، أمسى مغفوراً له» .

قد نتفق وقد نختلف حول تعبير «المهانة» التى يشعر بها البعض من جراء تصدير أو خروج المصريين للخدمة بالبيوت بخارج البلاد .. قد يرى البعض أن ذلك مهانة وهوان ، وقد يكفى البعض بالشعور بغصة ، ولكن المؤكد أن الجميع يتمنون أن يكون الناتج البشرى المصرى للتصدير معبراً عن تقدم مصر وحضارتها !

إذن .. هذه هى النقطة المحز ، أننا لم نعد كما كنا .. ولم نعد نفرخ أمثال السنهورى وأحمد زكى وأحمد بهاء الدين وزكى طليبات وعبد العزيز كامل وفؤاد زكريا ، ولكن هل هذا مسئولية وزيرة القوى العاملة ، أم أنه مسئولية حكومة بل ومجتمع ونظام بأسره ؟ هل وزارة العمل أو القوى العاملة هى المسئولة عن التعليم بعامه والتعليم الجامعى فى مصر ؟ هل هى المنوط بها تخريج العلماء والأطباء والمهندسين والصيادلة والزراعيين والتجارىين والحقوقيين ؟ هل هى المسئولة عن الثقافة والفكر والإعلام ؟ هل تملك هذه الوزارة تكوين العقل الجمعى وإفراز الكفاءات المتميزة فى

الطب والهندسة والعلوم والصيدلة ؟

فلماذا نسحب القضية من النظام المسئول عنها ، ونعفى الحكومة والهيئات المختصة بالتربية والتعليم والتثقيف ورعاية المواهب المنوط بها إخراج الكفاءات والعبقريات ، ونحصر الأمر الذى أضنانا - فى السيدة عائشة عبد الهادى ونلقى عليها وحدها بمسئولية قضية ضاربة الأطناب يُسأل عنها النظام والمجتمع بأسره !؟

وإذا كنت لا أجارى الشعور بالمهانة ، فالعمل شرف ولا تلحق المهانة إلا بمن يخرج عن مقتضيات هذا الشرف سواء فى الخدمة فى البيوت ، أو فى العمل بالطب أو الهندسة أو الصيدلة أو القانون أو الزراعة أو التجارة أو الصناعة .. إلا أننى أدعو الجميع للتوقف إزاء تصاغر الناتج المصرى البشرى ، والتأمل فيما أدى ويؤدى إلى ذلك ، وسبل تداركه .. قد حاولت شيئاً من ذلك فى كتاب الهجرة إلى الوطن ، بيد أن الواضح أن الكل صاروا يحرصون على الهجرة من الوطن !!

من تراب (٣٦٦) الذين علموا سلامة موسى (*) الطريق

الإنسان في تكوينه محصلة عوامل عدة .. تَغْلُبُ في الصغر عواملُ الوراثة والتنشئة والبيئة ، وَيَغْلُبُ في الكبر عوامل الإثراء الواعي بالاحتكاك والممارسة ، والاطلاع والتجربة .. قد يختلف كل منها في تكوين الشخصية وإنائها ، ولكنها على الإجمال محل اتفاق كعوامل لها أثرها بدرجة أو أخرى في هذا المجال .

من هذا المنطلق وقف المفكر الكبير سلامة موسى ليستكشف بعض العوامل التي كونت فكره .. فانتقى لفيقاً من المفكرين والكتاب ، والفلاسفة والعلماء والشعراء ، رأى لكل منهم نصيباً فيما تعلمه أو أضافه إلى نفسه .. فكتب عنهم وعن فكرهم أو إنتاجهم في كتابه : «هؤلاء علموني» .

والتعلم الذي يقصده سلامة موسى ليس بالضرورة تعلماً بالأخذ المطلق أو الموافقة ، وإنما قد يكون بالمعارضة .. أى بما قد يثيره فكر الآخرين من حوار أو نقاش داخلي يصل بالمرء إلى نتائج أو محصلات معينة .. لذلك نلمح تحت عنوان الكتاب - مأثورة اختارها سلامة موسى «لجوته» تقول : كن رجلاً ولا تتبع خطواتي .. ثم لا يكتفى بهذا الإلماح ، فيبين في التقديم أن المؤلف أو المفكر العظيم ، ليس هو الذي

(*) المال ٢/١٢/٢٠٠٩

يجعلنا نرى الدنيا بعينه ، ونشهد على الناس والأشياء بضميره ، وإنما هو الذى يعلمنا الاستقلال راثين ومشاهدين وناقدين .

من هؤلاء الذين تأثر بهم سلامة موسى ، سواء بالاتفاق أو بالمخالفة ، اختار فولتير داعية الحرية ومحطم الخرافات ، وجوته الأديب والشاعر صاحب الشخصية العالمية ، وداروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء ، وفيسمان المؤلف الذى يقول عنه إنه أفسد ذهنه نحو أربعين سنة ، وأبسن المؤلف المسرحى الفذ ، والفيلسوف فردريك نيتشه الذى أخذ به سلامة موسى فترة ، ثم تركه بغير أن يزيله حُبُّه ، ورينان الأديب الذى غرس فى نفسه الروح البشرى ، ودستوفسكى الروائى الروسى الذى يمثل عبقرية الإحساس ، وفرويد صاحب الوثبات الطوال فى تشريح البشرية ، وبرناردشو الكاتب والفيلسوف الساخر الذى كانت حياته هى كتابه الأكبر ، واتبع أسلوبا فى العيش خلاصته : إنها يكون الإنسان فاضلا إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه .. وغير هؤلاء : غاندى داعية الاستغناء ، وويلز الكاتب والمؤرخ والأديب وفيلسوف الصحافة .. وشفيتزر صديق الزوج ، وجون ديوى فيلسوف العلم ، وسارتر فيلسوف الوجودية وزعيم الانفرادية .

مع كل هؤلاء ، وزيدة فكرهم واتجاهاتهم - عاش سلامة موسى فى صفحات الكتاب التى يسوقها للقارئ سهلة هينة ، ولكنها عصارة حياة بكل ما فى هذا التعبير من معنى .

فولتير مثلا .. مَنْ هو ، وماذا تعلم منه سلامة موسى؟! .. بين مولده بفرنسا سنة ١٦٩٤ ، ووفاته عام ١٧٧٨ ، عاش حياة صعبة مليئة

بالنضال والمعاناة ، يعد نفسه فيها لقضية الحرية ، واستطاع بجهوده أن يغير تاريخ أوروبا كلها ، وأن ينقلها من التعصب إلى التسامح ، ومن التقييد إلى التحرير ، ويغرس شجرة الديمقراطية .. كان العنت الذى لاقاه فى دعوته إلى الحرية عامة ، وحرية العقيدة خاصة - شديداً وقاسيا ، تحالفت عليه الكنيسة الكاثوليكية مع الحكومة الفرنسية .. ولكنه لم يتراجع ، وعاش حياته يؤدى رسالته فى صيانة الحرية حتى لُقّب بزعيم الحرية .. وكانت شكاوى المضطهدين من الأحرار تصله من جميع الأقطار ، فيجمع لإنقاذهم الأموال ، ويقود من أجل ذلك الحملات .. وكان يقول : « قد اختلف معك فى الرأى ، ولكنى على استعداد لأن أدفع حياتى ثمنا لحقك فى التعبير عن رأيك » .. إن العبرة الكبرى التى تُستخلص من حياته ، هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر وتقليب الكتب واجترار الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المفكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين وإنهاء التطور والرقى .. فأدباء البرج العاجى الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، إنما هم بمثابة الجندى الفار من المعركة !!

جوته : نعرفه أديباً ، وعالماً ، وشاعراً .. ونُعجب من مؤلفاته «بآلام فيرتر» و «فاوست» ، وبفيض زاخر من الأشعار .. ومع ذلك فإن اهتمام جوته الأول لم يكن بالعلوم والآداب ، وإنما كان بالحياة نفسها .. كان يحب ، ويختبر ، ويسبح ، ويشغل المناصب الحكومية ، ويقرأ ، ويتشقف .. ولكن هدفه الوحيد من كل ذلك كان «شخصيته» ، بمعنى أن الثقافة

عنده كانت وسيلة ، أما الغاية فهي بناء الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان الذى يحيا حياة العقل والوجدان .. هذه الشخصية كانت الرسالة الحقيقية لجوته وهى قيمته الخالدة التى تعلّم منها سلامة موسى أننا يجب أن نحيا حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع ، وأن هذا هو بحق منهج الحياة .

و«داروين» .. إن سلامة موسى يرى فيه معلمه الأول ، وصاحب أعمق التأثيرات فيه .. ومع ذلك فلم تكن بداية داروين تبشر فى عرف العامة - بما توصل إليه وأعجب الكثيرين فيه .. كان والده يأنف من ميوله وطباعه ، ويقول له : «أنت لا تعنى إلاّ بصيد الكلاب ، واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عارًا على نفسك وعلى عائلتك» .. فهل كان داروين عارا حقا على نفسه وعلى عائلته ؟!

لقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، وبكلية الطب ثم تركها .. وفى غضون ذلك كله كان يلعب .. يخرج إلى الحقول ، ويجمع النبات ، ويصيد الحشرات ولكن ذلك لم يكن من الشاب اليافع عبثًا ، فكان يقارن بين الأحياء ، ويفكر تفكيراً عميقاً كأنه يتأمر على الكون كله كى يعبره أو يعبر البصيرة البشرية فيه ، وقد كان ، فصار بدل العار فخراً للأمة الإنجليزية ، تدل وتباهى بعبقريته .

فى كتابه «أصل الأنواع» الذى أخرجه سنة ١٨٥٩ م ، زوّد البشرية بمنهج فى التفكير لم تكن تعرفه من قبل ، وحمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع من حيوان ونبات ، وأنها جميعاً ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة ، وثانيهما منهج للدراسة عماده

أن الاستقرار لا تعرفه الطبيعة ، وأن الكائنات جميعا في تغير مستمر .
لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة يدرس ويفكر في التطور ، ولكنه لا
يُخرج أو يكتب عنه شيئا ، ثم خرج من بعد على العالم بكتابه ذاك .. فقد
لاحظ أن الطعام لا يكفي ملايين الملايين من الكائنات ، ومن ثم صار
التنازع على الطعام من أجل البقاء ضرورة حتمية ، وما دام كل فرد يولد
مختلفا عن الآخر في الحيوان والنبات ، فإن النصر أو الهزيمة في معركة
الحياة للبقاء رهيتان بها في الفرد أو العنصر من مزايا أو عيوب .

ولكن هل يقف الفرد أو العنصر عاجزا أمام ما فيه من عيوب تقعده
في معركة البقاء .. يجيب داروين على ذلك بالنفى ، ويلاحظ أن الكائنات
ظلت في حركة تغير مستمرة جيلا بعد جيل لتطور بها يلائم متطلباتها
ويجنبها هذه العيوب .. فإذا تراكمت التغيرات ، أحدثت سلالات
جديدة ، وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

من هنا انتهى داروين إلى أن التغير والتطور هما نسبة من سنن الأحياء
من نبات وحيوان ، وأن ذلك هو جوهر الارتقاء في صفات ومكنات
هذا وذاك .. فليس جلّ معنى «البقاء للأصلح» - نتيجة صراع الأحياء
معًا من أجل البقاء ، وإنما من معناه أيضًا نقاء وازدهار الصفات الصالحة
المعتبرة في كل عنصر من الأحياء ، وانقراض غيرها من التطور والارتقاء
على مدار الأيام ، وهكذا تمضي الحياة إلى غايتها .

هذا قليل من كثير تعلم منه سلامة موسى ، أو أثار فيه حوافز التفكير ، عرضه
بأسلوب ممتع على صفحات كتاب هو بحق عصارة فكر وعصارة حياة !

من تراب (٣٦٧) من أين جاء التعصب؟! (*) الطريق

حاولت في كتاب الأديان والزمن والناس ، أن ألفت إلى أن التعصب ، يأت منها- وإنما أتى من الذين لم يفهموا رسالة الأديان حق فهمها ، وحصرو أنفسهم في أزقة ضيقة لا تطل ولا ترى أن الأديان الثلاثة الكبرى هي ديانة السماء ، وكلها من عند الله ، وأن رقى الإنسان الروحي والخلقي والاجتماعي والسلوكي هو الحكمة الإلهية من هذه الرسائل التي تعاقبت على البشر أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، تخاطب الناس في أوان نزولها بقدر سعة عقولهم وأفهامهم ، وتتجه إلى هدف واحد هو توحيه الإنسان إلى الحق والكمال .

تذكرت كيف تقوم أبراج الكنائس إلى جوار مآذن الجوامع في ربوع مصر ، وكيف يتردد المسلمون في مصر على المزارات المسيحية تبركا وإجلالاً .. وكيف ظلت القاعدة العريضة من المسلمين والمسيحيين على صلات الإخاء المحبة بعيدا عن الاحتقانات التي استجلبها التطرف أو ضيق الأفق أو افتعلها التعصب أو صدَّرها الكارهون لسلام مصر .. تذكرت ذلك كله وأنا أتابع صفحة التعصب المقيت التي سطرها ٥٧٪ من الشعب السويسري ابن الحضارة الغربية وحقوق الإنسان ، الذين صادقوا على حظر بناء مآذن للمساجد الإسلامية في سويسرا .. وهذا

(*) المال ٢٠٠٩/١٢/٣

التصويت انحياز طائفي بغض قوامه طغيان روح التعصب لدى الأغلبية العددية إزاء الأقلية الإسلامية التي بلغت هناك قرابة ثلث مليون مسلم في تعداد كتاب Romania factbook ط ٢٠٠٥ .. دليل التعصب أن أحدًا لم يتعرض لأبراج الكنائس ، برغم اتحاد العلة إن كان الأمر خارج دائرة التعصب والاستقواء بالأغلبية على الأقلية .

في تبرير هذا التعصب الضريع ، حاولت الحكومة السويسرية تخفيفه في بيانها الذي أصدرته بعد أربع ساعات من إعلان نتيجة الاستفتاء ، منوهة إلى أن حظر بناء المآذن في الدستور السويسري سيُدْرَج على أنه إجراء يرمي إلى الحفاظ على السلام بين أفراد مختلف المجموعات الدينية .. وهي ذريعة متهافئة لم تقبلها منظمة العفو الدولية ، فأعلنت أن التضييق على المساجد انتهاك لحرية العقيدة .. وصرح نيكولا دكووث مدير برنامج أوروبا ووسط آسيا في منظمة العفو الدولية بأن «حظر بناء المآذن مع السماح .. على سبيل المثال - ببناء الكنائس ، سوف يشكل تمييزاً على أساس الدين ، وأن حظر بناء المآذن سيمثل انتهاكاً لالتزامات سويسرا بتعزيز حرية العقيدة ، وانتهاكاً لحق المسلمين في سويسرا في إظهار دينهم» !

إذن ، فإن التطرف أو التعصب ، ليس مقصوراً على بلاد الشرق ، فهنا هي سويسرا التي تلتزم الحياد ، وتخاصم الحروب ، وتلتزم السلام ، تسقط أغليبتها العددية في عماء التعصب ، وتصادر على حق المسلمين في بلد الحياد والسلام في ممارسة شعائرهم الدينية في مساجدهم ، مع أن عدد المساجد في كل سويسرا خمسة مساجد ، لا تمثل إزعاجاً ولا إقلاقاً ، ولا تطرح مثذنة للمسجد الخامس قضية تبرر هذا التعصب والتمييز بين

الأديان..وقد رأينا من شهور ما حدث في ألمانيا ، وهو وإن كان حادثة فردية ، راحت ضحيتها زوجة وأم مسلمة لم تقارف وزراً ولم تززعج أحداً حين تحجبت ، إلا أن المتابعين لما يجري في بعض الدول الغربية ، ومنها ألمانيا التي يزيد عدد المسلمين فيها على أربعة ملايين مسلم ، وفرنسا التي يبلغ تعداد المسلمين فيها قرابة ستة ملايين مسلم ، سوف يرى ملامح حركة آخذة في التصاعد والاشتداد ضد الإسلام والمسلمين !

أعود فأقول إن الأديان ذاتها بريئة من هذا التعصب .. فهو تعصب آدمي ، وقد رأينا كيف اتسعت في انجلترا ساحة الدين واشتد تعصب العلمانيين .. رأينا في مطلع ٢٠٠٨ كبير أساقفة كانتربري يطالب في انجلترا بالإفصاح للمسلمين للتعامل بمقتضى شريعتهم الإسلامية في شأن أحوالهم المدنية والأسرية المتعلقة بالزواج والطلاق والموارث والوصاية والقوامة وما شابه ، وهو ما سبقت إليه مصر من قرن من الزمان بالنسبة للأحوال الشخصية لغير المسلمين ، دون أن يعترض أو يحتج أحد من المسلمين ، ولكننا طالعنا موجات هائلة من الاحتجاجات العنيفة ثارت على كبير الأساقفة الإنجليزي ، شارك فيها من العلمانيين وزير الثقافة ووزيرة الداخلية ، وزعيم حزب المحافظين المعارض ، وبعض الوزراء السابقين !!

لعل هذا المشهد الأخير الذي تصدر الصورة في سويسرا ، يقنع العالم بأن الأديان بريئة من أسباب التعصب ، وأن هذا التعصب طفق آدمي مريض لا وطن له !!

من تراب الطريق (٣٦٨) الأزمة وصناعة التفوق! (*)

تعقياً على مقال : « ما شأن معالى الوزارة » - جاءنى خطاب بالإيميل من الأستاذ السيد الجوهري رئيس مجلس إدارة شركة الدلتا للتأمين يقول فيه .. تحية طيبة وبعد ،،، أتابع عمودك اليومى (من تراب الطريق) بجريدة المال وأثار انتباهى وأثلج صدرى عمود اليوم بعنوان : (ما شأن معالى الوزارة) .

«أنا معك قلباً وقالباً كل عمل محترم مادام فى حدود الشرف سواء أكان فنياً أو فكرياً أو يدوياً بل والعمل عبادة».

«إن الخدمة فى البيوت حرفة شريفة لها أصولها ولقد رأيت ذلك فى مدينة لندن منذ الخمسينيات والستينيات وإلى يومنا هذا .. كثير من خدم البيوت من نساء دول أوروبا الشرقية بلا استثناء بل ومن دول أوروبا الغربية مثل أسبانيا والبرتغال - كلهن ذوو خبرة فى العمل الذى له أصوله وفنه - ويعملن فى انجلترا بأجر الساعة ولم أسمع عن أى مهانة أو مذلة لحقت بهذه الدول من أوروبا الشرقية أو الغربية نتيجة لعمل نساكنهن هذا».

«سمّها ما شئت ، خدمة بيوت ، إدارة بيوت أو رعاية بيوت وكلها على درجة عالية من الإلتقان والأمانة ، متى ستخلص من مركبات النقص فى

(*) المال ٧/١٢/٢٠٠٩

مجتمعنا الطبقي ونحترم آدمية الإنسان حين يعمل بل ونشجعه بالتدريب والتعليم ورفع الكفاءة حتى يكون مواطنا صالحا ومنتجا وليس عالة على برامج الدعم المرهقة».

«مع وافر تقديري وأرجو الله أن يوفقك دائما لسديد الرأي وحكيم البيان».



ومن الغريب أن تسبقنا الحضارة الغربية إلى ما كنا أصحاب السبق في إعلاء قيمه .. فالعمل في ذاته قيمة ، وهو لغة الحياة ورباط الأحياء .. والآدمي معلق مصيره بعمله ، ماذا عمل وماذا قدم ! يتحقق ناتج هذا العمل بمهارة الأيدي وضربات السواعد وحبات العرق ، مثلما يتحقق بناتج القرائح والعقول .. كان رسول القرآن عليه السلام إماما للعاملين ، ومثالاً لاحترام قيمة العمل وشرفه .. لآزَمَهُ وصاحَبَهُ من طفولته وصباه إلى شبابه وكهولته وشيخوخته ، ولم تثنه عنه مهام الدعوة .. رعى الغنم ، وباشر التجارة لحساب غيره في أمانة ظلت مضرب الأمثال .. كان يخفض نعله بيده ، وشارك المسلمين في حفر الخندق بيديه حتى تعفر وجهه الكريم بالتراب ، ويأبى إلا أن يشارك في إعداد الطعام ويقوم بجمع الخطب .. ويقول لأصحابه ! «أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله تعالى يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال» .. هذا العمل لا يعيبه أن يكون عملا يدويا ، فكلُّ ميسَّر لما خلق أو تأهل له ، وفي الحديث الشريف : «من أمسى كالأ من عمل يده أمسى مغفورا له» .. وأيضا :

«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» .

على أنى أردت بالمقال أيضا بيان أن تقلص إفرار الأفضاز والكفاءات المصرية التى عمرت بهم حياتنا حتى عهد قريب - ليس مهمة وزارة القوى العاملة ، وأن إعداد العقول ونشر التعليم والثقافة ، وصناعة التفوق - كلها مهام تجاوز اختصاص بل وربما قدرة وتأهيل وزيرة القوى العاملة ، ولها وزاراتها وهيئاتها وأجهزتها المختصة بين التعليم والتعليم العالى والثقافة والإعلام .. فى نحو (٧٠) صفحة من كتاب «الهجرة إلى الوطن» - تناولت قضية التعليم فى مصر ، وهى قضية تراخى ترتيبها وباتت تعانى كثيرا من الأسقام ، مع أنها يجب أن تصدر جدول الأولويات .. فالعلم أولا وآخرًا ، والتعليم أولا والتعليم أخيرًا .. هذان المبدآن يجب أن يكونا قررة عين الدولة كلها إعلاءً وتطبيقا .. بينما توارى الآن أى استراتيجية ثابتة للتعليم إزاء تغييرات الوزراء وعدم الالتزام بهذه الاستراتيجية التى لا يجوز أن تتغير وتتبدل كل يوم ، ويجب أن تبلور فيها القواعد العليا للتعليم والموازنات الواجبة بين قطاعاته المتنوعة ، وعناصر العملية التعليمية ما بين البرامج ، والمعلم ، ودور التعليم ، مع وجوب الالتزام بروح وصناعة التفوق - هذه الروح يبدأ غرسها فى الأسرة ، ويتم تخصيصها ورعايتها فى مراحل التعليم .. وهذه الخاصة - روح التفوق - خاصة مانحة ذات أثر ممتد .. تلازم الإنسان فى حياته العملية طالما انزرعت فيه خلال مراحل التعليم ولاقاها المجتمع

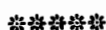
بمدد ثقافى وقاعدة معرفية ثقافية حية ومتاحة عبر قنوات. التوصيل فى الثقافة والإعلام وفى غيرهما من منظمات المجتمع المدنى .

لا شك قد عانت العملية التعليمية ، فضلا عن التبديلات فى الاستراتيجية ، وتواضع مستوى الإدارة ، وتراجع مستوى ودور المعلم ، وتدهور المبانى والدور التعليمية - عانت فضلا عن ذلك كله من تغير جدول القيم بعامه ، وفى خريطة القيم الاجتماعية بخاصة ، ومن ورائها قيم الأفراد ، واختلاف توزيع الدخل بما صاحبه من اتساع الفجوة بين الأغنياء وباقى المجتمع ، ثم ما أدى إليه تضخم أعداد خريجي التعليم العالى - بلا تعليم حقيقى ! - من هبوط مرتبات الوظائف المكتبية ، وارتفاع معدلات أجور المهارات الحرفية والخدمات اليدوية .

فى روح التفوق وصناعته ، يتجمع تقدم التعليم ومعه الأمم .. هذه الروح ومعها صناعة التفوق التى تهيم أسبابه وعناصره وتوفر فرصه وإمكانياته - هما اللتان تنقلان العملية التعليمية من الأداء العادى أو الباهت أو الفاتر أو المتواضع ، إلى أداء حى متفاعل مشبوب بالرغبة والحماس والعزم والإصرار على اتخاذ التعليم سبيلا لارتقاء حقيقى فى العقل والمعرفة .. عينه على الذات وعلى الوطن جميعا ، واضعا فى الاعتبار أن كليهما يصب فى الآخر ، وأن الأمم كالأفراد - لا تتقدم إلا بهذا المزيج من العزم والإصرار الذى تتلاقى فيه الصناعة مع الروح والانتفاء للدفع الدائم إلى الأمام !

روح التفوق يجب أن تتلاقى مع صناعة فاعلة رشيدة للتفوق ،
فالتفوق صار صناعة تستلزم الخبرة والدراية ، والتنظيم والكفاءة ،
وتتواصل مع روح التفوق ليحققا معا غاية التفوق المنشود .

أردت أن أنبه إلى أن أسباب الحسرة على تراجع إنتاج الخامة البشرية في
مصر - لا تزال قائمة ، وأن هناك أسبابا عديدة مردودة إلى هيئات كثيرة
وإلى المجتمع بأسره ، وراء نضوب إخراج قامات مثل القامات التي زينت
حياتنا العلمية والأدبية والثقافية والاقتصادية والفنية إلى وقت قريب .
القضية أوسع من أن نحصرها في السيدة وزيرة القوى العاملة !!



من

تراب (٣٦٩)

صلاح عبد الصبور (*)

الطريق

فى مدينة العشق والحكمة

كان من حظى أن اقتربت اقتراباً حميماً من الشاعر صلاح عبد الصبور فى العشر سنوات الأخيرة من عمره الذى قُصِفَ مبكراً بأزمة قلبية طرأت فى حوار أضناه .. من اقترب من صلاح عبد الصبور الإنسان ، أو تابعه كاتباً ، يعرف أن الشاعر موهبة فذة ومعها أيضاً إعداد ثقافى ومعرفى وفكرى عميق .. وهى مسألة يجب أن يلتفت إليها من يظنون أن تعاطى الشعر محض توفيقات لفظية تراعى القافية وأوزان البحور فى الشعر العمودى أو إيقاع التفعيلة فى الشعر الحر ، فالشعر مع الموهبة - حالة تركيز مستقطرة من الحياة مجدولة بثقافة عريضة وفكر عميق !

لا شك أن من قرأ شعر صلاح عبد الصبور يدرك هذه المعانى ، وخذ مثلاً رائعته فى «مأساة العلاج» ، ويدركها أكثر حين يقارن أشعاره وغيره من فحول الشعر قديماً وحديثاً - بما تجرى به أحياناً أقلام أو حناجر تظن أنها تنظم شعراً ، فتقرأ الكلمات فلا تخرج إلا برنين لفظى خالٍ من فكر أو أعماق !

تذكرت ثقافة الشاعر وأنا أعود إلى كتاب صلاح عبد الصبور :
«فى مدينة العشق والحكمة» .. المدينة التى يومئ إليها عبد الصبور مدينة

(*) المال ٨/١٢/٢٠٠٩

رمزية تضم ما اختار أن يحول فيه بين أعمال الأحياء إليه من المفكرين والكتاب والفنانين .. يصدر في اختياره لهم عن اقتناع يديه بأن علاقة الكاتب بالقارئ ، والفنان بالمتلقى ، هى علاقة مركبة .. فيها جوانب من الاستمتاع ، وجوانب من الاقتناع ، وجوانب أيضًا من الألفة والمودة .

الحب هو هبة الفنان للقارئ ، والفنان الحقيقى هو الذى يستطيع أن يمد حبل الحب بينه وبين المتلقين فى عصره ، وتقاس عظمته بقدرة أعماله على إنتاج أجيال الحب فى كل العصور .. من هؤلاء العظماء انتقى صلاح عبد الصبور عددًا ممن أحبه من الكتاب والفنانين ، يأخذ بنا لنطوف معه وإياهم فى مدينة العشق والحكمة التى طفق يتفقد جناباتها .

تشيكوف القصاص الروسى العظيم ، وجون أسبورن المؤلف المسرحى الإنجليزى رائد الجيل الغاضب من كتاب المسرح المعاصرين ، وجون إسكواير ومسرحيته عن اتهام شكسبير بأنه ليس مؤلف روائعه المسرحية المشهورة ، والثلاث عشرة قصة التى منعت رقابة التليفزيون الأمريكى - منعت المخرج الشهير ألفريد هتشكوك من إخراجها له .. والكاتب الأمريكى الراحل إرنست هيمنجواى الذى حطم قبل أن يموت غموض الحاجز التقليدى بين الكاتب والمحارب .. وتينسى وليامز وقصته المشهورة «خريف امرأة أمريكية» .. واختار من الكتاب الفرنسيين «بيير بنوا» ، و «مارسيل بروست» الذى فهم القرن العشرين وفاز فى النهاية بالمجد المتصل .. كوميديات مولير وأونيسكو ، وخطر الانحراف بأداء مؤلفات مولير من «الكوميديا» إلى «الفارس» أو

«المسخرة» حسب تعبير المجمع اللغوى .. الكاتب المسرحى الأمريكى أوجين أونيل ومسرحيته الشهيرة «وراء الأفق» ، ومدى توفيقه فى تحقيق الارتباط الحيوى بين جدية النص الأدبى وغناه ، وبين ما تقتضيه أصول الحرفة المسرحية .

الآباء والأبناء فى مسرح ميلر ، وأسلوب الإسقاط التاريخى فى الأعمال الفنية لمعالجة القضايا المعاصرة .. «لوركا» شاعر الأندلس (!) ، والمصالحة القوية بين التراث والحديد ، وبين المسرح والشعر الغنائى فى أشعاره .. إطلالة على الشعر والشعراء فى أفريقيا .. قصة الكاتب الروسى الشهير «أهرنبورج» : «ذوبان الجليد» ، وقضية التعبير وأسلوبه كتحديد تواجهه الواقعية الاشتراكية فى الأدب والفن .

على قدر تنوع حيوات وأعمال هؤلاء الأحياء إلى صلاح عبد الصبور من الكتاب والفنانين والشعراء ، على قدر ما تشعب كتاب : «فى مدينة العشق والحكمة» .. ليس فى وسعى أن أنقل إليك فى هذا الحيز أفكار وومضات صلاح عبد الصبور وعمقها وصياغتها الرفيعة .. ولكن خذ معى مثلاً ما أورده عن قصة حياة الأديب الروسى العظيم تشيكوف أحب الكتاب إليه .. لترى مثابرة هذا العظيم على مقارعة الفشل والانتصار عليه فى النهاية .. جاء سقوط مسرحيته «النورس» وهو فى أوج مجده .. وكان سقوطها ذريعاً .. فقد كانت لا تكشف عن نفسها لأول وهلة كشأن كثير من الأعمال الفنية الكبرى .. لذلك احتوى تشيكوف إحساس عميق بالمرارة التى دفعته لحظتها إلیعقد العزم على عدم الكتابة إلى المسرح مرة

أخرى .. ولكن هذا الأديب الفنان الذى اعتاد مقارعة الفشل ، تجاوز بعد قليل محتته النفسية ليشرق على الحياة المسرحية بروائعه : «بستان الكرز» و «الشقيقات الثلاث» وغيرها ، بينما احتلت مسرحية «النورس» - ولا تزال - مكانا مرموقا في المسرح العالمى دفع ويدفع كثيرا من المسارح في انجلترا وأمريكا وروسيا لإعادة عرضها .

في هذه المسرحية : «النورس» ، ملامح من «هاملت» حين تفترو وتتعدد العلاقة بينه وبين أمه ، وفيها انكسار الفنان الصغير حين لا يستطيع التعزى بنجاح فنه عن خيبة حياته .

في موضع آخر يجيب صلاح عبد الصبور على تساؤل مثار : ما سبب «حظ» مولير في المسرح المصرى ؟! فيورد أن السبب الأول هو دقة ومستوى الترجمة الزجلية للمرحوم محمد عثمان جلال في أواخر القرن قبل الماضى لمسرحية «طرطوف» التى دارت أحداثها من «باريس» القرن (١٧) ، إلى «قاهرة» القرن (١٩) .. والسبب الثانى يرجعه صلاح عبد الصبور إلى طبيعة مولير ذاته الذى كان هدفه فضح العيوب الاجتماعية الشائعة ، كالبخل والنفاق والادعاء وغيرها ، فأودع هذه النقائص في نسج الشخصيات التى أدار عليها مسرحياته .

ترى كم نحتاج من تشخيص وتأليف إذا أردنا تجسيد ما بتنا نعانى منه من نقائص في كل باب !!؟

من

تراب (٣٧٠) مئوية محمد عبدالله محمد (*)

الطريق

في أكتوبر ٢٠٠٨ ، حلت مئوية ميلاد الأب الروحي صاحب الأفضال التي لا تعد ولا تحصى ، الأستاذ المحامي الفقيه الضليع ، والمفكر الأديب ، والشاعر الحكيم : محمد عبد الله محمد . صاحب الباع الكبير في القضاء والمحاماة ، وأول دفعة حقوق القاهرة سنة ١٩٣٠ في دفعة من المتميزين كان ثانيه عليها المرحوم الأستاذ الشهير الدكتور / زهير جرانة . بدأ حياته في القضاء ، فكان متميزاً وسط المتميزين ، وشغل موقع المحامي العام لنيابة النقض الجنائي ، شف عن نبوغ فريد منذ بداياته ، وله تعليقات بالعربية والفرنسية على بعض أحكام محكمة النقض المنشورة في المجموعة الشهيرة التي جمع أحكامها المرحوم محمود عمر باشكاتب محكمة النقض في الزمن الأول ، وصدرت في سبعة مجلدات للأحكام الجنائية ، ومثلها للأحكام المدنية ، بعنوان : مجموعة القواعد القانونية لأحكام محكمة النقض .. هذه المجموعة التي ضمت أسباب الأحكام التي كتبها عمالقة القضاء ومحكمة النقض أمثال عبد العزيز باشا فهمي ، وحامد باشا فهمي ، ومحمد بك ليب عطية ، وأحمد بك أمين ، ومصطفى باشا محمد ، وعبد الفتاح السيد بك ، وجندى بك عبد الملك وأترابهم .. والتعليق على أحكام هؤلاء العمالقة عمل كبير لا يتصدى له إلا عملاق في وزن الفقيه الفذ الأستاذ محمد عبد الله محمد .

(*) المال ٩/١٢/٢٠٠٩

قدم هذا العملاق للمكتبة القانونية كتابا لا يزال بلا نظير حتى
اليوم .. هو «في جرائم النشر» ذ حرية الفكر - الأصول العامة - جرائم
التحريض ، ومع أن هذا الكتاب قد نشر في عام ١٩٥١ ، فإن أحدا على
مدى ما يزيد على نصف قرن - لم يستطع أن يضارع أو يقترب من المستوى
الرفيع الذي قدمه محمد عبد الله محمد في هذا الكتاب . كتب أيضا :
«بسائط علم العقاب» وأملاه على طلبة الدراسات العليا في مذكراته التي
أعيتني الحيل في محاولة الوصول إليها لنشرها على عشاق القانون الذين
لا يزال كبارهم يجلبون هذا العلامة الكبير .

لم يكن محمد عبد الله محمد فقيها ضليعا أو محاميا عظيما وكفى .
ولأنما كان مفكرا موسوعيا من طراز فريد ، وأديبا من مدرسة تنتمي إلى
ضبط الكلمات والمعاني . وشاعرا حكيما ظل يكتب الشعر لنفسه ، ولا
ينشره ، نحو سبعين عاما .. أتاح لي مخطوطاتها التي أذهلتني كما أذهلت
مجموعة الأصدقاء في ندوتنا الأدبية التي كانت تعقد في بيت الصديق
الحبيب الأديب الكبير فاروق خورشيد ، وانتقلت إلى منزلي بعد رحيله ..
ولم يتركني أعضاء الندوة بعد أن سمعوا جانباً من شعره العمودي المتميز
المفعم بالحكمة ، إلا على عهد بأن أتابع نسخ هذه الأشعار ثم طباعتها ،
وقد فعلت بعد مجاهدة مع الأستاذ محمد عبد الله حتى قبل نشرها في
ديوان «العارف» ثم ديوان «الطريق» ..

ما كان للرجل أن يصبر سبعين عاما وزيادة على نظم هذا الشعر الرائع
الرصين ، والاحتفاظ به دون عرض ، ما لم يكن عائشا في الواقع والحقيقة
خارج عالم الذات ، منصرفا عما يغرق ويتصارع فيه الناس من أجل

الظهور وطلب الصيت والمكانة واستقبال الإطراء والإعجاب .. نفهم هذه القدرة حين نتأمل فلسفة هذا العملاق الفذ الشاخصة في تضاعيف ما كتبه من أشعار ، وفي باقى ما صاغه من مؤلفات وبحوث ومقالات . من درره الفريدة ، مقالات كتبها لمجلة رسالة الإسلام في «معالم التقريب» بين المذاهب الإسلامية .. جمعتها له في كتاب نشرته دار الهلال (مارس ١٩٨٩) .. والتقريب اتجاه جاد داخل الإسلام ، مجرد تماما من اللون الطائفي أو الإقليمي للتخلص من العداوة المعللة أو الخفية ، بين أهل المذاهب ، وتذكيرهم بأن إله الجميع واحد ، وكتابهم واحد ، ونبیهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وهذا هو رأس مال المسلم .

كان من حظى أن اقتربت من هذا العملاق ، صاحبتة ولم أفارقه لربع قرن لم أنقطع عن الجلوس إليه والتأمل معه والتلقى منه وعنه .. كان دوحة لا تفرغ رطبها الجنية ، صاحب موقف من الحياة .. لم تفلت منه قط حكمتها وغايتها واغتنام أيامها لمزيد من التأمل ومن الفهم .. أبحر الرجل في عوالم شتى فصار عالما في القانون ، والأدب ، والفكر ، والفلسفة ، والفلك ، والتاريخ ، والأديان .. تحس وأنت معه أنك مع موسوعة معارف حية ، ليس حسبها ما اكتنزته من معلومات هائلة في بحور شتى بلا شطآن ، وإنما تدرك في كل عطفة أن شيئا لم يمر على هذا المحامي العلامة المفكر الفيلسوف دون أن يعمل فيه نظره ومبضعه ويشرّحه ويغوص في صحبته إلى الجذور والأعماق حتى تكشف له أستار من المحال أن تنكشف لسواه ..

من تراب (٣٧١) علوزنا نرجع (*) الطريق زى زمان !

يلاحظ المطالع لمدونات التاريخ، ومؤلفاته، ومذكرات القادة والزعماء والرؤساء، والدراسات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وما كتب عن المحاماة والمحامين، وتصانيف الحركة الوطنية والحياة السياسية والفكرية فى مصر- يلاحظ ظاهرة جليلة لا تخطئها عين.. ظاهرة حضور المحاماة والمحامين والحقوقيين بعامه، فى مقدمة المد الوطنى، وفى مضمار السياسة والحكم، وفى زعامات الأحزاب وعضوية ورئاسة الوزارات، ورئاسة وعضوية مجلسى النواب والشيوخ، ومن بعدهما مجلسى الشعب والشورى، وفى ريادة الفكر والأدب والثقافة والصحافة.. يجد منهم «الزعيم»، و«الرئيس»، و«الوزير»، وزعماء الحركة الوطنية، ورؤساء الوزارات والمجالس النيابية والأحزاب، ونجوم الفكر والأدب والثقافة، ورؤساء تحرير الصحف والدور الصحفية.. ذلك واقع حاصل فى مصر وفى العالم العربى، وفى أوروبا والهند، وفى أمريكا.. فى إحصائية أوردتها دونالد. إم. ريد- الباحث الأمريكى والأستاذ الجامعى صاحب كتاب: «المحامون والسياسة فى العالم العربى منذ ١٨٨٠ - ١٩٦٠»- وقد كتبت مقدمة ترجمته لمؤسسة روز اليوسف ضمن سلسلة الكتاب الذهبى ..

(*) المال ١٠/١٢/٢٠٠٩

تقول الإحصائية إنه قد تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٦٠ - ٢٥ رئيسا من المحامين والحقوقيين من بين ٣٩ رئيسًا .. يضاف إلى هذه الإحصائية الرئيس ريتشارد نيكسون المحامي الذي ترأس الولايات المتحدة في السبعينيات بعد تاريخ هذه الإحصائية ، والرئيس الأمريكي لدورتين متتاليتين المحامي بيل كلينتون الذي استطاع أن يفوز في الانتخابات على جورج بوش الأب صاحب القدرات الفذة والسجل العريض .. بزوغ نجم المحاماة والمحامين في أوروبا ظاهرة لافتة ، بدءًا من الحركات الاجتماعية ، ومرورًا بالثورات ، ثم بمناصب الوزارة ومراكز الإصلاح .. كان المحامي روبسبير أحد ألمع وأبرز زعماء الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ، وكذلك كان المحامي لينين الثائر وزعيم الثورة البلشفية الذي غير وجه التاريخ في روسيا القيصرية ، بينما كان المحامي ألكسندر كيرنكلسي مصلحًا اجتماعيًا صاحب نظرية خاصة في الإصلاح .. من بين المحامين والحقوقيين في أوروبا برزت نجوم لامعة في الحرية والوطنية والسياسة والإبداع الفكري والأدبي والاجتماعي والاقتصادي .. منهم كالفين ، وفرنسيس بيكون ، وميكيا فيلي ، وكورنيي ، وليبيتيز ، ومونتسكيو ، وفولتير ، وديدروت ، وهوم ، وبتام وغيرهم .. بينما تطالعنا في الهند صورة المحامي غاندي الذي صار اسمه أسطورة للمقاومة السلمية ، واستطاع بها أن يقود حركة إحياء عمت الهند ، وأن يقض مضاجع الاحتلال الإنجليزي في شبه القارة الهندية !

في العالم العربي المعاصر تطالعك من المحامين والحقوقيين صورة «الملك» الحسن الثاني - صاحب الاتجاه المحافظ ، وصورة الليبرالي الوطني التونسي الحبيب بورقيبة ، وفارس الخوري الرئيس السوري ، ومن الاتجاه الاشتراكي - مع الفارق : كمال جنبلاط في لبنان ، وصدام حسين التكريتي الذي حكم العراق أمداً حتى انتهى حكمه بالنهاية المأساوية التي صاحبت الغزو الأمريكي البريطاني للعراق وانتهت بإعدامه في مشهد مثير أول أيام عيد الأضحى !!

من الشام ، برزت أسماء أخرى عديدة .. أمين الجميل المسيحي السوري مؤسس جريدة «الحقوق» ، وهو شقيق اليساري المعروف شبلى جميل .. ويوسف عساف السوري المسيحي محرر جريدة «المحاكم» ثم جريدة «الشرعة» التي ظهرت ١٨٩٣/ ١٨٩٤ بمبادرة من المحامي والحقوقى المصرى أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) ، وإسماعيل صدقى الذى شغل منصب الوزارة كثيرا وتولى رئاسة الوزارة المصرية عدة مرات . ومن الرعيل الأول نيقولا توما الذى توفى سنة ١٩٠٥ ، وأحد معاصرى سعد زغلول والهللأوى فى مصر .. وكان مع أمين الجميل ممثلا للأتباط المهنية للمسيحيين السوريين ، وانضم للتيار المتدفق إلى مصر من الشام ، وصار واحداً من صفوة المحامين فى زمانه .. بالتوازي معه شارل داباس واسكندر عامول من لبنان ، وجميل مرادم من سوريا ، وعونى عبد الهادى من فلسطين ، وتوفيق السويدي من العراق .

زعماء مصر ورجالاتها الكبار ، فى العصر الحديث ، كانوا جميعًا - قبل ١٩٥٢ - من المحامين والحقوقيين .. مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وأحمد ماهر ، ومحمد حسين هيكل .. ومكرم عبيد وغيرهم .. عقد المحامين العظام الذين شغلوا الحياة الوطنية والفكرية والأدبية فى مصر عقد فريد وعظيم ... بدءًا من الزعيم الخالد مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ومؤسس وزعيم الحزب الوطنى القديم ، والذي اختار دراسة «الحقوق» بالذات وانخرط فى «المحاماة» خصيصا ليؤهل نفسه للدور الرائع الذى أداه فى خدمة القضية الوطنية حتى وافته المنية وهو فى منتصف العقد الرابع من عمره .. تتابعت معه ومن بعده نماذج رائعة فى الحركة الوطنية وما يغذيها من سياسة واقتصاد وإدارة وفكر وأدب وصحافة ..

طفقت أسترسل مع هذه الخواطر التى سطرتها فى كتاب «رسالة المحاماة» فقطعت على أم كلثوم حبل الخواطر والأحلام .. جاءنى صوتها يشدو : «عاوزنا نرجع زى زمان : قل للزمان إرجع يا زمان» .



من تراب (٣٧٢) الملكون أكثر من الملك ! (*) الطريق

من أربعين عاما ، وفي أعقاب نكسة ١٩٦٧ ، كنت مكلفاً إبان
عملى بالقضاء العسكرى - بالنظر فى طعن بالتماس إعادة نظر فى
حكم صادر عن محكمة عسكرية عليا ، مصدق عليه من الرئيس جمال
عبد الناصر ، والطعن مقدم من المحكوم عليهم الثلاثة عقيد فنى
(ع.ح) ، ونقيب فنى (م.س) ، ورقيب أول لا أذكر الآن اسمه ، فى
الحكم الذى صدر بمعاينة الضابطين بالطرد من الخدمة عموماً ، ومعاينة
الرقيب أول بالحبس ثلاث سنوات ، عن تهمة نسبت إليهم أنهم بقاعدة
العريش الجوية لم يتصرفوا إزاء العدو على النحو الواجب !

بحث الطعن ودرسته بعناية ، فالقضية رفعت إلى المحكمة من النيابة
العسكرية ، والحكم المطعون فيه صادر عن محكمة عسكرية عليا ، وروجع
بالإدارة العامة للقضاء العسكرى التى أشارت بالتصديق ، فصدق
الرئيس جمال عبد الناصر على الحكم ، إعمالاً لصريح القانون العسكرى
الذى يوجب تصديق رئيس الجمهورية شخصياً على الأحكام الصادرة
بطرد الضباط من الخدمة عموماً .

(*) المال ١٤ / ١٢ / ٢٠٠٩

عاودت البحث والقراءة ، لأن القراءة الأولى أفصحت عن أن الضابطين بريئان لا يستحقان هذه العقوبة أو غيرها ، وأن قصارى ما ينسب إلى الرقيب أول جنحة سلوك مضر بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى ، ولا تستأهل أكثر من ستة أشهر حبسا ! ومقضى هذا أن أقترح فى مذكرتى إلى سلطة الفصل فى الطعن - وهى هى ذات الرئيس عبد الناصر - إلغاء الحكم وحفظ الدعوى بالنسبة للضابطين ، وتغيير وصف التهمة المنسوبة للرقيب أول والنزول بالعقوبة إلى ستة أشهر حبس بالنسبة له !

لم أتردد بعد أن درست ومحضت ، فكتبت المذكرة مشفوعة بأسبابها على هذا الأساس .. وأشرت بما وجدت أنه الحق والعدل الصواب .. ولكن الأزمة كانت لدى الرئيس الأعلى للقضاء العسكرى ، المطلوب منه أن يصادق على رأى ، أو يرفضه أو يعدله ، قبل العرض على الرئيس جمال عبد الناصر .. أزمة الرئيس الأعلى للقضاء العسكرى ، وكان آنذاك المرحوم اللواء دكتور محمد عوض الأحول ، أنه هو نفسه قد مهر بتوقيعه مذكرة التصديق على الحكم المطعون فيه ، والتي عرضت على ذات الرئيس جمال عبد الناصر .. فكيف يطلب إليه بعد شهر إلغاء الحكم وحفظ الدعوى بالنسبة للضابطين فضلا عن التعديل بالنسبة للرقيب أول ؟!

ناقشنى المرحوم اللواء دكتور محمد عوض الأحول طويلا ، وعاود النقاش أكثر من مرة ، فيخرج فى كل مرة بأن الحق والعدل يقتضيان ما كتبه وأشرت به .. كنت أحس بأزمته وحرجه من أن يقول

ضمنا : «كنت على خطأ بأمس» ! .. يُحمد لهذا الرجل أنه لم يحاول
إثناي عن رأيي ، ولا أحال الطعن - وهو يملك ذلك - إلى زميل آخر
منحيا ما كتبته ، بل انتهى في النهاية إلى التصديق على رأيي كما هو :
«إلغاء الحكم وحفظ الدعوى بالنسبة للضابطين ، وتغيير وصف التهمة
والنزول بالعقوبة إلى ستة أشهر بالنسبة لضابط الصف» !

كان النظام يقتضى العرض أولا على وزير الحربية ، ثم إرسال القضية
مشفوعة بتوقيعه بما يراه إلى الرئيس جمال عبد الناصر .. كان الفريق أول
محمد فوزى هو وزير الحربية فى ذلك الوقت ، ومعروفا - يرحمه الله -
بالشدة والصرامة .. وكان اللواء دكتور محمد عوض الأحوال يعمل
ألف حساب للقاءه به وعرض القضية عليه بالرأى الجديد المناقض
للرأى السابق! .. ولم يخف ذلك عنى ! ولكن المفاجىء أن الفريق أول فوزى لم
يعارض ولم ينتقد ولم يناقش ، ومهر المذكرة بتوقيعه بالموافقة على الرأى كما هو !
ولكن المفاجأة الأكبر أتت من الرئيس جمال عبد الناصر .. فقد تجاوز
ما أشرنا به ، وأمر بإلغاء الحكم وحفظ الدعوى بالنسبة للثلاثة !

فى أرشيف ذكرياتى وقائع أخرى .. توجَّسَ البعض من رد الفعل ،
أو رغبوا فى تحسس المطلوب ، ليأتى الدليل بأن الظنون جاوزت سلامة
التقدير ، وأن «الملك» لا يطلب فى جميع الأحوال من المحيطين به أن
يحجبوا رأيهم .. ناهيك بأن يخدعوه ويزينوا له الباطل !!

تذكرت ذلك وأنا أطلع الحملة الغشوم التى شتها بعض الأقلام على
المصرى المحترم الدكتور محمد البرادعى ، وما تضمنته من إساءات بالغة

وصلت إلى حد اتهامه بالعمالة ، وتبرير غزو العراق ، وبازدواج الجنسية !
هذه الأفلام الملكية أكثر من الملك ، لم تفكر في أن ما تكتبه يؤدي إلى
نقيض مراده .. ليس فقط لمكانة الرجل الدولية والوطنية ، ولا لجائزة
نوبل التي منحت له ، وإنما أيضا لأن الرئيس مبارك هو هو رئيس الدولة
الذي قلده قلادة النيل التي لا تمنح إلا لرؤساء الدول !

إننى على يقين أن الرئيس مبارك نفسه - لا يمكن أن يقول في حق هذا
المصرى المحترم ، شيئا مما سطرته بعض الأفلام من تهجم غشوم يذكر
بتصرف «الدبة» التي أصابت صاحبها !

من تراب (٣٧٣) صواب رؤية قديمة؟! (*) الطريق

وقعت في أضاير أرشيفي ، على سطور كنت قد كتبتها لإذاعة صوت العرب في أواخر ستينيات القرن الماضي ، عن كتاب صدر بطبعتين : إنجليزية ، وعربية .. للأستاذ هنري كتن Henry Cattan .. عنوان الطبعة الإنجليزية الموجهة أساسا إلى الغرب ، The Palastine Arabs and Jsrael . The search for justice

وعنوان الطبعة العربية : فلسطين في ضوء الحق والعدل .
والأستاذ هنري كتن ، ولا أعرف أين هو الآن ، وهل هو لا يزال حيًا أم لاقى ربه ، محام فلسطيني الأصل ، ينتمى إلى أسرة عربية عريقة من أسر بيت المقدس .. درس القانون ثم قام بتدريسه بعد ذلك بمدرسة الحقوق بالقدس ، ومارس المحاماة بفلسطين قبل النكبة ، فلما اضطر للنزوح عاش ومارس المحاماة في سوريا ، ثم في لبنان ، وانتقل بعد ذلك إلى انجلترا ، حيث زاد إتقانه للغة الإنجليزية التي كتب بها الطبعة الإنجليزية في خطاب موجه إلى العالم ، وهو ما رأيناه في كتابات جبران خليل جبران ، والمفكر العربي الفلسطيني الأصل الدكتور إدوارد سعيد ..

(*) المال ٢٠٠٩ / ١٢ / ١٥

اجتمعت للأستاذ هنرى كتن خبرات ، ملكات انعكست فى مادة هذ
الكتاب الذى يحرك الأشجان .. فقد امتلك العقلية القانونية التحليلية ، وألم
بعناصر القضية التى عاش أحداثها يوم ما يوم ، وشارك فى الدفاع عن الحق
العربى كممثل لعرب فلسطين أمام الأمم المتحدة ضمن وفد لها لبحث
القضية مع الكونت برنادوت ، فضلا عن تمكنه من اللغة الإنجليزية التى
خاطب بها الضمير العالمى فى الطبعة الإنجليزية للكتاب !

مما شدنى فى هذا الكتاب الضافى ، واستحضره الآن - ما رأيناه يحدث
ضد الأقلية الإسلامية فى سويسرا ، ونراه فى حالات التمييز ضد الدين
الإسلامى فى بعض الدول الغربية .. شدنى فى انكتاب نبأ لجنة كنج -
كرين (١٩٢٩) وما أعربت عنه من أنه من المشكوك فيه أن يستطيع
اليهود أن يبرزوا أمام المسيحيين أو المسلمين بوصفهم حراسا صالحين
على المقدسات فى مدينة الأديان .. سبب عدم الصلاحية أن الأماكن المقدسة
المسيحية والإسلامية غير مقدسة عند اليهود ، بل هى مكروهة لديهم !

هذه البدهية غابت الآن عن العالم الغربى ، مع أنه يستحضرها كل
يوم ما تجريه وتحيكه إسرائيل حول وتحت المسجد الأقصى .. فاليهود
ينكرون الإسلام ، وهم أيضا ينكرون وأنكروا المسيح عليه السلام ،
ولا يحول - الآن ! - بينهم وبين المقدسات المسيحية فى القدس ، سوى
احتياجهم اليوم للغرب !

على انقيض من ذلك ، نجد الإسلام يقر باليهودية والمسيحية ولا
ينكرهما ، وتنعم المعابد اليهودية والكنائس المسيحية بالأمان والرعاية

في المجتمعات الإسلامية ، ورأينا ونرى أبراج الكنائس بجوار مآذن المساجد في مصر وفي كثير من البلدان ذات الأغلبية الإسلامية .. ولم يحدث في مصر ما رأيناه يحدث في سويسرا بذريعة استفتاء لا تقره فكرة النظام العام .. الداخلي أو الدولي .. فالباطل لا يدلى إلاً بباطل ، وما دام المراد باطلاً منافيا للنظام العام الذي ترتضيه الجماعة الإنسانية ، بات محظورا إقراره - أي الباطل - بقرارات أو بقوانين أو استفتاءات !! وإلاً لاختلط الحابل بالنابل ، وانفرط عقد المجتمع الدولي وتحول إلى غابة تفعل فيها كل دولة ما تراه. خلافاً للمواثيق والأعراف الإنسانية والدولية بذريعة أنها استفتت الشعب عليها ، بينما هو استفتاء باطل يصطدم بحقوق الإنسان وبمبادئ القانون الدولي !

عدم التمييز بين الأديان - ينبع من «عقيدة» الإنسان .. وأزمة اليهود أنهم لا يقرون بل ينكرون - أفصحوا أم أخفوا - أي دين نال للديانة اليهودية .. وهي أزمة غير موجودة لدى المسيحيين ، لأن «المحبة» هي الدعوة الحاضرة في الأناجيل .. تجب فكرة التمييز ضد الآخرين .. لذلك رأينا سويسريا مسيحيا يقيم برجا كالمئذنة فوق مؤسسته احتجاجا على استفتاء يرى أنه «العار» .. ورأينا منظمة «هيومن رايتس ووتش» تندد بحظر المآذن وتعتبره انتهاكا لحقوق المسلمين في التعبير وفقا لمعتقدهم الديني .. بينما الأزمة التي تواجه اليهود لا وجود لها أصلا في العقيدة الإسلامية ، لأنها تقر بل وتوقر وتجل كافة الأنبياء والرسل ، وتعتبر الإيمان بهم وبرسالاتهم جزءا لا يتجزأ من

الإيمان بالإسلام .. فيورد القرآن المجيد : ﴿ قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن دُونِهِمْ وَأَنصَحُوا وَأَتَوْا بِأَوَّلِ رِزْقٍ لَّهِمْ وَبِأَوَّلِ رِزْقٍ لَّهِمْ وَبِأَوَّلِ رِزْقٍ لَّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

لذلك رأينا ما كان من احترام عمر بن الخطاب للكنيسة في بيت المقدس ، ورأينا ونرى المعابد اليهودية وأبراج الكنائس قائمة في المجتمعات الإسلامية لا يمسها المجتمع بسوء ، ولا يسمح لأحد بالمساس بها .. وهو هو ما تشهد به سيرة الإسلام في المدينة المقدسة على مدى أربعة عشر قرناً ، لم يهدم فيها معبد أو تحرق كنيسة كالتى حُرقت في إبان الاحتلال الصهيوني للمدينة المقدسة !

إضافة لحق الفلسطينيين في وطنهم ، وفي القدس عاصمة له ، فإن العقل والحكمة يقتضيان ألا تترك المقدسات الإسلامية والمسيحية في قبضة الدولة الصهيونية .. زمان ، كان بمستطاع لجنة غربية ، كلجنة «كنج - كرين» ، أن تفصح للعالم عن شكوكها في أن تترك المقدسات المسيحية والإسلامية لعقيدة متعصبة تنكر المسيحية والمسيح كما تنكر الإسلام ورسوله !!

من تراب الطريق

قضية ديوان قضيتي؟! (*)

(٣٧٤)

(١)

في أوليات القرن الماضي كانت الصحافة مطاردة وملاحقة ، تدرك سلطات الاحتلال والأذئاب أنها الخطر الحقيقي الفاعل في إيقاظ الوعي وتنبيه الشعب بحقوقه والأخطار المحدقة بالوطن .. توالى الإنذارات والمصادرات والإيقافات على الصحافة الوطنية ، وتحملت صحافة الحزب الوطنى (القديم) : « اللواء » وفروعها أو بدائلها أوفى نصيب من هذه الملاحقة ، ونالت المطاردة صحيفة « المؤيد » التى كان يصدرها الشيخ على يوسف ، كما نالت الشيخ عبد العزيز جاويز الذى حوكم مرتين ، الأولى فى يوليو / أغسطس ١٩٠٨ بتهمة نشر أخبار مثيرة عن السودان ، والثانية فى يونية ١٩٠٩ عن مقاله : « ذكرى دنشواى » .. وكانت إعادة قانون المطبوعات تستهدف مزيدا من تطويق الصحافة والمصادرة عليها !.. وصادف حصار الحكومة وسلطات الاحتلال أن شجر خلاف بين ورثة مصطفى كامل على ملكية جريدة « اللواء » ، وعين يوسف المويلحى حارسا قضائيا على شركة الجريدة ، وذهب فى ٢٨ فبراير ١٩١٠ لتنفيذ الحكم بعد ثمانية أيام من اغتيال بطرس غالى ، واستلم

(*) المال ١٦/١٢/٢٠٠٩

إدارة «اللواء» بينما كانت مطاردة السلطات وقضيتها على الحزب الوطني وجرائده قائمة على قدم وساق ، وأراد الحارس القضائي أن يتدخل في سياسة التحرير ، فرفض الأستاذ محمد بك فريد .. وأعلن أن الجريدة لم يعد لها علاقة بالحزب الوطني في ظل هذه الحراسة القضائية ، وسارع إلى إصدار جريدة «العَلَم» لتكون لسانا معبرا عن الحزب الوطني إلى أن تزول الغمة عن جريدة «اللواء» ، فصدر أول أعداد «العَلَم» في ٧ مارس ١٩١٠ وأقبل عليها الشعب إقبالا كبيرا ، وأحلها فور صدورها محل «اللواء» المفروض عليها الحراسة ، بيد أن السلطات لم تطق صبرا على «العَلَم» مثلما لم تطق صبرا على اللواء ، فأصدرت الحكمية قرارًا في ٢٠ مارس بإيقاف الجريدة شهرين بذريعة أنها خرجت في كتاباتها عن حد الاعتدال !!!

لم يتراجع المحامي الفارس محمد بك فريد ، ولم يرتض انحباس صوت الحزب الوطني لسان حال الشعب ، فأصدر في اليوم التالي جريدة «الشعب» ثم «العدل» و «الاعتدال» ، ودبح محمد فريد في جريدة الشعب مقالاً نارياً ، وأعاد إصدار «العَلَم» فور انتهاء مدة الإيقاف ، حتى لا يسكت لسان الشعب يوماً واحداً !

ولكن السلطات أمعنت فيما تريده من حصار وتطويق ومحاربة للحركة الوطنية ، فأصدرت الحكومة في ١٦ يونية ١٩١٠ القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ الذي تضمن إحالة تهم الصحافة إلى محاكم الجنايات بعد أن كانت من اختصاص محاكم الجنح ، رامية بذلك إلى تغليب فرصة إجراء

المحاكمة الصحفية على درجتين «جزئية واستثنائية» ، وسنت هذا القانون بذات يوم ١٦ يونية ١٩١٠ القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩١٠ بتعديل بعض نصوص قانون العقوبات للمعاقبة على الاتفاقات الجنائية ولو لم تدخل حيز التنفيذ ودون أن تتوافر فيها أركان الاشتراك في ارتكاب الجريمة ، كما تناول التعديل أيضا منع نشر المرافعات في القضايا الجنائية إذا رأت المحكمة في نشرها بالصحف إضرارا بالنظام العام ، كما أقامت المسؤولية الجنائية في حق رؤساء تحرير الصحف عما ينشر فيها ولو لم تتوافر في حقهم أركان الاشتراك الجنائي ، وهو ما يسمى بالمسؤولية الافتراضية التي قضت المحكمة الدستورية العليا (فيما بعد في ١/٢/١٩٩٧) بعدم دستورتها لمخالفتها مبدأ شخصية المسؤولية والعقوبة !

لم يسكت الأستاذ محمد بك فريد فارس الوطنية وسليل المحاماة ، فكتب مقالا ناريا بجريدة «الشعب» اللسان الجديد للحزب الوطني تحت عنوان : «سياسة الشدة» .. انتقد فيه بشدة هذه التعديلات ، ونعت مشروع القانون بأنه يشبه «قانون المشبوهين» الذي فرضته الحكومة الثورية في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر للانتقام من كل من يخالف سياستها ، ولتكميم الأفواه وإلجام الألسنة بهذه القوانين الاستبدادية التي تعاقب على اتفاق لم يدخل حيز التنفيذ !

سارعت السلطات إلى ضربة رادعة ، انتهزت فيها صدور ديوان «وطني» للأستاذ على الغاياتي المحرر «باللواء» في يوليو ١٩١٠ ، بتقديم (سابق الكتابة) من محمد فريد الذي لم يطالع الديوان وكان بخارج البلاد

عند صدوره ، وكان قد حرر هذا التقديم سابقا قبل سفره ، كما قدمه أيضا الشيخ عبد العزيز جاویش ، فرأت السلطات أن هذا الديوان فرصة لضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد ، بقالة إن بعض قصائده تنطوى على تحييد الجرائم والتحريض على ارتكابها فضلا عن إهانة هيئات الحكومة ، وكانت النيابة العامة قد غضت عنه النظر لسابقة نشر جميع قصائده في الصحف ، إلا أن الحكومة طفقت توعد إلى النيابة بالتحقيق فيما ورد بالكتاب ، فأمرت بمصادرته وشرعت في التحقيق مع الشيخ على الغياتى والشيخ عبد العزيز جاویش ، وأرجأت الأمر بالنسبة لمحمد بك فريد لحين عودته من خارج البلاد ، وأحالت كلا من المؤلف الشيخ على الغياتى والشيخ عبد العزيز مع آخرين بتهمة مدح وإطراء الكتاب إلى محكمة الجنايات !!



من تراب (٣٧٥) قضية ديوان وطنيتى؟! (*) الطريق

(٢)

نظرت قضية كتاب أو ديوان «وطنيتى» فى أغسطس ١٩١٠ أمام محكمة الجنايات برئاسة محمد مجدى بك ، وعضوية على ذو الفقار بك ، والمسيو سودان ، وجلس فى كرسى النيابة محمد توفيق نسيم بك رئيس نيابة الاستئناف فى ذلك الوقت (الباشا فيما بعد ورئيس الوزراء أكثر من مرة) ، وجرت محاكمة الغاياتى غيايا لأنه كان قد سافر متوجسًا قبل المحاكمة إلى الآستانة ثم سويسرا ، بينما حوكم الشيخ عبد العزيز جاويش حضوريا ، فنهض بالدفاع عنه فارسان من فرسان المحاماة والحزب الوطنى (القديم) : أحمد بك لطفى الذى كان فى مقدمة المترافعين عن إبراهيم الوردانى فى قضية اغتيال بطرس باشا غالى ، ومحمد على علوبة بك (باشا) المحامى الذى توالى ظهوره من بعد فى المشهد المصرى فى العديد من المواقع والمواقف .

فى ٩ أغسطس صدر الحكم (غيايا) بحبس المؤلف الشيخ على الغاياتى لمدة سنة وحبس من أطرى الكتاب شهرين مع الإيقاف ، وحبس الشيخ عبد العزيز جاويش لمدة ثلاثة أشهر مع النفاذ جرى تنفيذها عليه فوراً

(*) المال ١٧/١٢/٢٠٠٩

لأنه الحكم الثانى عليه بالحبس ، ومع الاستياء الشعبى الشديد الذى
قوبل به الحكم ، أخذ الوطنيون ينتظرون ماذا سوف تفعل السلطات مع
محمد بك فريد حين يعود إلى البلاد ؟!

لم يكن فى المقدمة التى كتبها محمد بك فريد لديوان « وطنيتى » ما
يمكن أن يؤخذ عليه قانونا ، أما القصائد التى حواها الديوان فلم تكن
تحت نظر محمد بك فريد حينما كتب المقدمة فى فبراير ١٩١٠ ، فالشيخ
الغاياتى لم ينته من الديوان ولم يقدمه للطبع ولم يظهر إلا فى يوليو ١٩١٠
بعد أن كان محمد فريد قد سافر فى مايو ١٩١٠ إلى أوروبا ، ومع ذلك
اعتبرته التهمة - لكتابته المقدمة ! - شريكا للغاياتى فيه ، تضمنه الديوان ،
وجعلت السلطات تربص عودته إلى البلاد لمحاكمته .. فما كاد يصل فى
أواخر ديسمبر ١٩١٠ ، حتى أخذت النيابة العمومية فى التحقيق معه ،
واستجوبه رئيس النيابة آنذاك محمد توفيق نسيم بك (باشا) فى ٤ يناير
١٩١١ ، حيث أحيل إلى محكمة الجنايات بتهمة أنه حسن وامتدح ديوان
« وطنيتى » فى المقدمة التى كتبها له قبل سفره !

نظرت القضية فى ٢٣ يناير ١٩١١ ، حيث انعقدت محكمة الجنايات
برئاسة المستر دلبر وجلى ، وعضوية كل من : أحمد ذو الفقار بك ، وأسين
بك على ، ومثل النيابة رئيسها محمد توفيق نسيم بك ، وصمم الأستاذ
محمد بك فريد على ألا يصاحبه أحد من زملائه المحامين ، مقدرا و متمسكا
بأن أقواله مبدأة بحجتها فى التحقيق ، وبأن التهمة داتها لا تحتاج إلى دفاع
حالة كونها ظاهرة البهتان ولا أساس لها من الحق والقانون !

ولا نعتقد أن محمد بك فريد فارق الحيلة أو الحذر حين أثر أن يقف أمام المحكمة بمفرده بغير محام ، فالحق في الدعوى أبلج واضح كفلق الصبح ، لا يخفى على المحكمة إن أرادت الحق ، فإن أرادت غيره فلن يجدى دفاع أيا كان ، وتكون الوقفة بغير محام أجدى في كشف النقاب وفضح المستور أمام الأمة !

وقد كان !!

بعد بضع دقائق لا تكفى للمراجعة والموازنة والتقدير بعد سماع مرافعة النيابة التي لم تسمع المحكمة غيرها ، أصدرت المحكمة حكمها بحبس الزعيم محمد فريد ستة أشهر مع النفاذ !! .. أما محمد فريد ، فقد تلقى الحكم بقلب ثابت ، رابط الجأش ، لم يفارقه هذوؤه وانطلق مع الحرس إلى السجن .. لم يطلب سوى بعض الكتب لمطالعتها، مودعا في ثبات دموع الوطنيين الذين صدمهم الحكم ، مشجعا إياهم على الحق والصبر والثبات .

على عكس ما قدرت السلطات ، كان حبس محمد بك فريد باب تأليب وإلهاب للمشاعر ، لم يفت في عضد الحركة الوطنية ، وزادها اشتعالا !! .. قدرت السلطة محاذير هذا الالتهاب ، وتزايد شعبية محمد فريد والحزب الوطنى والحركة الوطنية بعامة ، فدفعت الخديو للالتفاف حول محمد بك فريد متسرلة بالعطف وهى لا تبغى سوى إفقاده شعبيته ! .. أوفد إليه الخديو

بمحبسه بسجن الاستئناف بباب الخلق - عثمان بك غالب ، عارضاً عليه استعداد الخديو لقبول طلبه بالعفو عنه ، ملحاً عليه برجاء الخديو أن يتقدم بالطلب مؤكداً له قبوله ، ورغبة الخديو السامية في إصدار العفو عنه ، بيد أن الفارس محمد بك فريد رده بعتاب يشبه النوم ، مؤكداً أنه لا يطلب عفواً ، ولا يسمح لأحد بأن ينوب في طلبه ، مؤكداً رفضه وعدم قبوله إن صدر .. قال له محمد فريد فيما حفظته مدونات التاريخ : «أنا لا أطلب العفو ، ولا أسمح لأحد من عائلتي أن يطلبه عني .. وإذا صدر العفو فلن أقبله» !

هكذا كان الرجال ، وبهم سطرت مصر صفحات تاريخها الوضاء !



من تراب (٣٧٦) كيف كنا . والام صرنا ؟! (*) الطريق

قرأت حديث مطولا في الدستور ١٧ ديسمبر الجارى ، عن الفرق بين إعلام صوت العرب في عهد عبد الناصر ، وفضائيات ٢٠٠٩ ، للأستاذ أحمد سعيد أول رئيس لإذاعة صوت العرب ، والتي تولاه من بعده الأساتذة الكبار محمد عروق وسعد زغلول نصار ثم أمين بسيونى ومن تلاه في عقد فريد نهض بهذه الإذاعة التي ظلت لسنوات طويلة معقل العروبة وأملها .. وقد عاصرت شخصا إذاعة صوت العرب كاتباً ومتحدثاً لسنوات طويلة منذ أول الستينيات .. شدنى إليها رسالتها الكبرى ومادتها الرصينة المتميزة التي نهضت على رعايتها كتيبة من أخلص الإذاعيين الذين آمنوا بالقومية العربية ونذروا كتاباتهم وبرامجهم وأدائهم الإذاعى لها .. كتبت فيما قدمت لها : أضواء على الفكر العربى ، من التراث العربى ، أدب وأدباء العرب ، سيوف الله ، الموسوعة العربية ، المجلة الثقافية ، على طريق الهدى والإيمان ، من هدى القرآن ، ذلك الكتاب لا ريب فيه ، من هدى النبوة ، نضال شعب ، حطين : معركة الجهاد الأكبر ، العهد العمرى ، الصمود العربى بمعركة الزلاقة بالأندلس فى بداية الغروب بعهد ملوك الطوائف ، بطولات عربية ،

(*) المال ٢٠٠٩ / ١٢ / ٢١

تراجم وسير عربية ، اقتصاديات عربية ، معركة المصير ، نساء عربيات خالديات ، ومئات البرامج والأحداث التي طَفَقَتْ على مدار سنوات ترنو إلى الأمل العربي وتناضل في سبيله ..

طاف بى شريط الذكريات ، وأنا أقرأ للأستاذ أحمد سعيد مقولة الرئيس جمال عبد الناصر: «صوت العرب ما يتحاسبش على اللى بيقوله ، يتحاسب بس على نتيجة ما يقوله» .. ينقل عن الزعيم مقولاته في حماية الإعلام التثويرى الهادف ، الثابتة في مضابط مجلس الأمة (الشعب الآن) والهيئة البرلمانية : «صوت العرب كان في رمضان بالليل بيذيع حاجات أنا مشن موافق عليها .. إنما ده صوت العرب ما اقدرش أقول له اتكلم في المربع ده .. يموت صوت العرب وتضيع قيمة صوت العرب .. لازم يحس إنه عنده فرصة ينطلق ويعبر عن نفسه» .. ولما نقل إليه على صبرى تشكى البعض من سياسات صوت العرب ، قال له : «يعنى عاوزين إيه ؟!» صوت العرب ما يتحاسبش على اللى بيقوله .. يتحاسب على نتيجة اللى بيقوله» .. كان هذا يتفق مع مذكرة إنشاء صوت العرب (١٩٥٣) التى جاء فى أحد بنود صلاحياته «أن يتناول سياسات الحكومات العربية المختلفة بما فيها حكومة الثورة فى مصر - لاحظ فى مصر - تأميننا لعنصر المصادقية اللازمة له حِرَفِيا إعلاميا عند الشعوب العربية» .

كان لإعلام صوت العرب هدف يلتقى مع الأمل العربى والقومية العربية مع طموحات الجماهير والشعوب ، وظل صوت العرب يؤدى هذا الدور القومى الذى هو حكمة وغاية إنشائه .. تذكرت هذا كله

وأنا أراجع الموقف الغريب جدا للسيدة انتصار شلبي الرئيسة الجديدة للإذاعة ، حين أقدمت من أيام - بلا مناقشة وفي غياب الرئيسة الحالية لإذاعة صوت العرب اننى كانت تؤدى فريضة الحج - أقدمت على «إلغاء» برنامج «حديث الذكريات» الذى يقدم بخريطة صوت العرب من عشرات السنين ، ويشارك فيه نخبة نجوم الشبكة ، وينهض به الآن الإذاعى المخضرم أحد رواد صوت العرب الأستاذ الكبير عادل جلال ، جزاءً غريباً على حديث أداره معى ومع غيرى حول الأزمة المصرية الجزائرية الأخيرة ، وما لابسها من ممارسات خاطئة ، ابتعدت عن روح الرياضة ورسالتها ، وضربت دون أن تدري مقومات القومية العربية والعلاقات المصرية الجزائرية التى ينبغى أن تكون مصالحها العليا حاضرة فى جميع الأحوال . ما قيل فى الحديث - وكنت مشاركا فيه - يتفق مع رسالة صوت العرب الذى لا يزال لحنه المميز يصدح فى الافتتاح وفى الختام بصوت حسنى الحديدي : «أمجاد ياعرب أمجاد» .. ويتفق أيضا مع المنظور الصحيح الذى استيقظت وعادت إليه الممارسات فيما بعد ، حين استخلص الحكماء مصالح الوطن من برائن الحماقة والتعصب والغلو والاندفاع الأعمى البعيد عن روح الرياضة وما ينبغى الحفاظ عليه فى العلاقات بين الشعوب والدول العربية .. من أسابيع قبل احتدام هذا الشغب الضريع ، ولأننى لمست مقدماته التى أُنذرت بانحراف البوصلة ، كتبت مقالا لجريدة المال (١٥ / ١٠) بعنوان : «إنها مباراة رياضية وليست معركة حربية !» .. قرعت فيه الأجراس ، ونهت إلى خطل وانفلات

المعالجات التى بدأت تشرب ، وذكّرت النقاد والمحتقنين بالرياضة ورسالتها ، وكيف أنها جعلت للصداقة بين الناس والشعوب والدول ، وكيف من أجل الروح الرياضية يتصافح الملاكمون والمصارعون قبل كل جولة .. حول هذه المعانى ورعاية المصالح العليا لمصر والجزائر ، ومقتضيات القومية العربية ، وهى غاية صوت العرب وحكمة إنشائه ، دار الحديث مع الأستاذ عادل جلال فى حديث الذكريات ببرنامج سهرة الأحد .

لم يرق هذا الحديث للسيدة / انتصار شلبى الرئيسة الجديدة للإذاعة القادمة إلى المنصب من وراء الأفق ، فأصدرت بلا مناقشة قرارا عفويا بإلغاء برنامج أسبوعى ظل يزين خريطة صوت العرب لعشرات السنين ، يتناوب عليه نجوم هذه الإذاعة ويتعهده الآن بالرعاية والتقديم واحد من ألمع روادها المتميزين .. الإذاعى المخضرم الأستاذ عادل جلال .. شىء ممض يشعرك بالمرارة والإحباط حين تنشب الإدارة أظافرها فى قهر الإبداع أو فى وأد الأفكار والآراء ، فتُعمل فيها «القدوم» و«المنشار» بدلا من الفهم والتأمل والحوار .. شعرت وأنا أتلقي خبر فرمان الضيرير السكران بنشوة السلطة - أن ما صنعناه وبنينا عبر أجيال ، يتبدد وتذروه رياح الجهالة وغرور السلطة ! .. لو تمهل فرمان قليلا لأدرك أن ما تعجل القفز لمراضاته ، قد عدل عنه أصحاب الأمر ، واستبان لهم حق ما كان جاريا ، وأن الحكمة قد آبت بالراشدين إلى ذات ما جرى به التناول فى الحديث .. وليظل قائما السؤال الذى استحضره مقال الأستاذ أحمد سعيد : كيف كُنّا ، وإلام صرنا ؟!!

الذين يقابلونهم على أرضهم كما كان في سنة ١٩٤٨

تراب (٣٧٧) فماذا نفعل نحن؟ (*)

الطريق لهذا العالم هو طريق واحد، ليس له اتجاه

لما كادت الصحف ووكالات الأنباء، تخرج بنياً صندوق قرار من محكمة بريطانية في ١٣ اديسمبر الجاري، بتوقيف تسيبي ليفني وزير الخارجية الإسرائيلية السابقة، والزعيمة الحالية للمعارضة الإسرائيلية، بتهمة ارتكاب جرائم حرب وضد الإنسانية في العدوان الإسرائيلي الغشوم الأخير في شتاء ٢٠٠٨ على قطاع غزة، حتى انفجرت ردود أفعال متباينة، بين فرح واستبشار غربي، دغدغته المشاعر بما أعدته بشائر استيقاظ العالم من سباته العميق وضميره الغائب أو المغيب، وقرب الأمل في عودة بعض الحق والتوازن في النظرة الغربية إلى ما يجري كل يوم من عدوان وإبادة وتدمير وتجريف في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بينما انتابت الإسرائيليين حالة فرح وذعر من القضاء البريطاني، شملت فيمن شملت تسيبي ليفني ومعها كافة المسئولين الإسرائيليين الذين مناهم كثيرون منهم بنحو أو بآخر في العمليات العسكرية الغاشمة التي أديرت في قطاع غزة، وحصدت الأرواح، وحصدت فيمن حصدت أرواح الأطفال والنساء والشيوخ، ودمرت البنية الفوقية والتحتية، وأجاعت وأعطشت من أفلتوا تحت الأنقاض، وقطعت سبل الحياة

(*) المال ٢٢/١٢/٢٠٠٩

وأوقفت أجهزة الرعاية والإعاشة عن المرضى الراقدين بالمستشفيات ،
وأتت على الأخضر واليابس في القطاع !

ولكننا اكتفينا بالابتهاج والمسرة ، وانطلقوا هم هناك للعمل
والاعتراض ، والمصادرة والحصار الرسمي والسياسي والدبلوماسي
والإعلامي .. أوقفت ليفنى زيارتها المزمعة إلى المملكة المتحدة ، وفرضت
الحكومة الإسرائيلية حظرًا مذعورًا على سفر مسئولها إلى بريطانيا ،
وانطلقت آلة الإعلام الصهيونية في داخل وخارج إسرائيل ، وقامت
الخارجية الإسرائيلية باستدعاء السفير البريطاني لديها لتبلغه احتجاجها
الرسمي على القرار القضائي وعلى القضاء البريطاني .. وطفقت تل أبيب
تهدد وتتوعد لندن بأن قرارات القضاء في بريطانيا سوف تهدد عملية
السلام - هل تصدقون ؟! - في الشرق الأوسط .. وكأن ترتيبات السلام
جارية - مع هذه الجرائم ! - على قدم وساق ! . الأدهش هو موجات
التراجع البريطانية التي شفت عنها صحافة الدولة العظمى .. فقالت
صحيفة «الديلي تليجراف» إن العلاقات البريطانية الإسرائيلية قد باتت
في خطر ، وأنها تمر بأزمة عقب إصدار المحكمة البريطانية مذكرة اعتقال
الوزيرة الإسرائيلية السابقة ، بينما تراجعت الحكومة البريطانية ذاتها
تراجعًا مدهشًا لا يتفق مع التقاليد الإمبراطورية ولا مع هبة واستقلال
القضاء البريطاني ، فأعلن وزير الخارجية البريطانية : «ديفيد ملباند» -
استرضاءً لإسرائيل ! - أن بلاده بصدد اتخاذ خطوة طالبت بها تل أبيب في
الأزمة التي شجرت ، بل وأن حكومة الإمبراطورية التي لم تكن تغرب

عنها الشمس بسيلها لإجراء «إصلاحات» - يا أطف الله ! - على النظام
القضائى البريطانى ، لوضع حد لما أسماه الإجراءات القضائية التى تتم
دون علم الحكومة لإلقاء القبض على الشخصيات الإسرائيلية !! ومؤكداً
أن إسرائيل شريك استراتيجى وصديق قريب لبريطانيا !!

ونشرت الأهرام المصرية ، عن وكالات الأنباء ، أن رئيس الوزراء
البريطانى جوردن براون ، قد أجرى بجلالة قدره - اتصالاً هاتفياً
بنفسه ، بوزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيى ليفنى المأمور قضائياً
باعتقالها والقبض عليها ، مؤكداً للمتهمه بجرائم حرب وضد الإنسانية
فى قطاع غزة بفلسطين المحتلة - مؤكداً دعمه لها إزاء مذكرة التوقيف التى
أصدرتها المحكمة البريطانية بحققها .. وزاد سيادته فأبلغها - فيما أفصح
عنه مكتب ليفنى - بأنها مرحب بها فى بريطانيا فى أى وقت ، وأكد لها
تصميمه على تعديل القانون البريطانى - يا أطف الله !! - للحيلولة دون
حصول أى ملاحقات مماثلة مستقبلاً !!

طبيعى إذن أن تلتقط السيدة ليفنى الكرة ، وأن تتمنطق فتدعو هى
الأخرى إلى إصلاح القانون البريطانى ، وزعمت أن هذه الدعوة تجرى
بعيداً عن شخصها ، لأن القانون البريطانى - كذا !! - يهدد أى زعيم
سياسى ويهدد الضباط والجنود الإسرائيليين فى قتالهم ضد الإرهاب !!!
وتمنطق «نتن ياهو» رئيس الوزراء الإسرائيلى ، فأراد للعالم أن يصدق
أنهم أبطال أطهار يقاومون الإرهاب ، فطفق يقول إنه ينظر بخطورة
كبيرة إلى مذكرة الاعتقال التى أصدرتها محكمة بريطانية بحق الوزيرة

الإسرائيلية السابقة زعيمة المعارضة ، وأن سيادته لن يقبل - كذا !! -
اعتبار قادة وجنود الجيش الإسرائيلي كمجرمى حرب ، بينما هم يدافعون
عن المواطنين - يقصد الشتات الذى يحتل فلسطين ! - ضد عدو وحشى -
يقصد الشعب الفلسطينى المسلوب وطنه والجارى إبادة - وأن سيادته
يرفض كلياً هذه العبثية !!

ولا يدرى أحد ماهى «العبثية» حقاً ؟! هل العبثية فى أحكام
وقرارات القضاء المتفقة مع القانون والمواثيق الدولية التى ارتضاها
المجتمع الدولى ، أم العبثية فيما جرى ويجرى من إبادة لشعب فلسطين
بعد استلاب واحتلال وطنه ؟!

مشهد التراجع البريطانى الآن ، يذكرنا بنجاح الالتفاف الإسرائيلى
فى وقف ملاحقة القضاء البلجيكى لمجرم الحرب آريل شارون عن
جرائمه فى مذبحه صابرا وشاتيلا ، ومحاولة إسرائيل كف ملاحقة
المحكمة الوطنية الأسبانية عن النظر فى إدانة سبعة مسئولين فى الجيش
الإسرائيلى منهم بنيامين إيعازر وزير الدفاع الإسرائيلى السابق عن
جرائم الحرب التى ارتكبوها فى العدوان الغشوم الأسبق على قطاع غزة
فى صيف ٢٠٠٦ .

فهل تنجح إسرائيل بالتفافاتها وابتزازها فى إماتة الضمير العالمى ،
أو ضرب معاقل القضاء الذى طفق يتصدى - هنا وهناك - لما قعدت عنه
الحكومات ؟!

إن إسرائيل لا تنى ولا تهدأ فى تكريس عدوانها ، وفى محاصرة وإعاقة
محاسبتها عما ترتكبه من جرائم بحق فلسطين والفلسطينيين وبحق
الإنسانية ، فماذا نفعل نحن لحماية حقوقنا ؟!!

من تراب (٣٧٨) أين ذهبت الوحدة (*) الطريق وولت النخوة !؟

من أكثر من ألف عام ، في سنة ٢٢٣هـ ، وتحديداً في أرض الشام ، أطلقت امرأة عربية هاشمية صيحة استجارة من جنود الروم الذين هاجموا الشام ، وباغتوا إحدى مدنه الحدودية بجحافل جرارة بقيادة «نوفيل» إمبراطور الروم ، حيث أداروا بالمدينة - مذبحه بشعة هائلة - كمذابح صابرا وشاتيلا ! - نصبوها للأبرياء مع جموع من الصقالبة وغيرهم .. أشعلوا فيها الحرائق ، وأعملوا السيوف في الرجال والنساء والأطفال ، ومثّلوا ، وشوهوا ، وجرت بالمدينة أنهار من الدماء !!

«وا معتصماه» .. «وا معتصماه» !!

كانت هذه هي صيحة الاستجارة التي أطلقتها امرأة عربية هاشمية ، تنادى بها على «المعتصم بالله» الخليفة العباسي الموجود بعاصمة ملكه في بغداد ، على مسافة تربو على ألف كيلو متر !

تسامع الخليفة المعتصم (أخو الأمين والمأمون) - وهو من عظماء خلفاء الدولة العباسية ، تسامع بما تسامعت به جموع العرب بالهجوم الغاشم وبصرخة المرأة المستجيرة التي جعلت أصداءها تتردد في جنبات البلاد.. في العراق وبغداد ، كما في الشام ودمشق ، وكما في كل ربيع من

(*) المال ٢٣/١٢/٢٠٠٩

الأمصار العربية التى كانت آنذاك تحت راية الدولة العباسية .. فانتفض المعتصم يُجيش الجيوش لرد العدوان على حرمت الدولة .. لا كانت هناك أيامها إذاعات ، ولا فضائيات ، ولا آليات للإعلام ، ولا كانت هناك جامعة للدول العربية ، ولا الجيوش التى تصرف الثروة العربية - الآن - مئات المليارات على تسليحها بأحدث الأسلحة والطائرات لتضعها فى المخازن التى صارت كالمتاحف ! .. ومع ذلك ، اضطرت الحمية فى نفس المعتصم كما اضطرت فى نفوس الناس الذين انسبوا من كل أرض وفج ونجع ليتساندوا الرد الغزاة !!

. فى أيام قلائل ، تجمع حول المعتصم بغربى دجلة جيش هائل من المتطوعين يقال إنهم زادوا على مائتى ألف .. قسمهم المعتصم إلى ثلاثة فيالق - بتعابير اليوم .. انطلقوا على ثلاثة محاور على تخطيط بأن يتلاقوا بعد إنجاز المهمة التى اضطلع بها كل منهم .. التقى الفيلق الأول بجيش الإمبراطور «نبوفيل» وهزمه هزيمة منكرة فر الإمبراطور على أثرها يبكى سوء متقلبه ، وتوغل الفيلق الثانى فى حملة تأديبية بداخل الأراضى البيزنطية حتى تمكن من دخول أنقرة ، وعلى مشارف «عمورية» التقت الفيالق الثلاثة لتحيط بالمدينة وتحاصرها من كل جانب ..

يروى التاريخ أن المدينة كانت حصينة ، يحيط بها سور شاهق ، تحميه أبراج ضخمة محصنة بلغت (٤٤) برجاً موزعة على السور ، وحوله خندق دائرى عميق ، ومنسوب على أعالى الأبراج عدد ضخم من المنجنيقات لترسل حممها على المحاصرين !!

سوف تشدك صفحات البطولة التي سطرها هؤلاء الأسلاف ،
وحولوا بها الهزيمة إلى نصر مؤزر دفعوا به العدوان عن بلادهم .. فعلنا
ذلك حين خرجنا من قاع نكسة ١٩٦٧ إلى عبور القناة وتحطيم واجتياز
خط بارليف الحصين في رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ .

فما الذى حدث لنا بعد ذلك حتى فرطنا في نتائج ما أنجزناه ، وما هو
سر الموات الذى نشب في شعوبنا العربية حتى استسلمت أو تكاد لحالة
الاعتصاب المستمرة الجارية على فلسطين .. الوطن والشعب .. والغارات
التي تضرب في الوطن هناك وفي الناس ، وتسلب وطننا بأكمله وتعمل
الإبادة في شعبه .. ما سبب هذا الانفراط الذى أحل التنافر والتصادم
محل الأمل القومي الذى كنا نرنو الخروج به من وهدة ما أحاط بنا ..
لماذا سكتنا ونسكت عما يجري في فلسطين ، ولماذا مَنَعْنَا بث الأغاني
التي كانت تحفز على الدفاع عنها ؟! ولماذا سكتنا بل وناصر بعضنا
الغزو الأنجلو / أمريكى للعراق الذى دمروه وأخرجوه من رصيد
«القوة» العربية ، ويديرون فيه وحوله ما يكبله ويكبلنا ويسخرنا لتحقيق
الأهداف الإسرائيكية في المنطقة - ومع ذلك لا يزال بعضنا يصانع ،
ويهرول ويطبّع ويتعامى عما يحاك لنا ؟!!
أين ذهبَت الوحدة والأمل ، وكيف ولَّت النخوة ؟!!

من تراب (٣٧٩) يا صاحب الجلالة ! (*) الطريق

هذا العنوان ، عنوان عريضة خطها فارس المحاماة فى الزمن الجميل ،
الأستاذ الكبير مصطفى مرعى ، وقدمت إلى الملك فاروق الأول فى ١٨
أكتوبر ١٩٥٠ .. وقعها مع مصطفى مرعى لفيف من عظماء المحاماة ،
بينهم إبراهيم عبد الهادى ، ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد ، وحافظ
رمضان ، وعبد السلام الشاذلى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وإبراهيم
الدسوقي أباطة ، ورشوان محفوظ ، وعلى عبد الرازق وغيرهم من
شوامخ القامات المصرية .. طفق مصطفى مرعى وصحبه يخاطبون بها
ملك البلاد فى ذلك الزمان قائلين ..

«يا صاحب الجلالة :

«إن البلاد لتذكر لكم أياما سعيدة كنتم فيها الراعى الصالح
والرشيد ، وكانت تحف بكم أمة تلاقت عند عرشكم آمالها ، والتفت
حول شخصكم قلوبها ، فما واتها فرصة إلا دلت فيها على عميق
الولاء والوفاء ، وما العهد ببعيد بحادث القصاصين ، وقد أنقذكم الله
من مخاطره وهو أرحم الراحمين .

«واليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخها الحديث ،

(*) المال ٢٤/١٢/٢٠٠٩

ومن أسف أنها كلما اتجهت إلى العرش في محتتها ، حيل بينه وبينها ، لا لسبب إلا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا في الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون هذا الشرف فأساءوا النصح وأساءوا التصرف ، بل إن منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هي الآن مدار التحقيق الجنائي الخاص بأسلحة جيشنا الباسل ، حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العدالة ستقصر حتما عن تناولهم بحكم مراكزهم ، كما ساد الاعتقاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور ، وأن النظام النيابي قد أضحي حبرا على ورق ، منذ أن عصفت العواصف بمجلس الشيوخ فصدرت مراسيم يونيه سنة ١٩٥٠ التي قضت على حرية الرأي فيه وزيفت تكوين مجلسنا الأعلى ، كما زيفت الانتخابات الأخيرة من قبل تكوين مجلس نوابنا !

«ومن المحزن أنه قد ترددت على الألسن والأقلام داخل البلاد وخارجها أنباء هذه المساوي وغيرها من الشائعات الذائعات ، التي لا تتفق مع كرامة البلاد ، حتى أصبحت سمعة الحكم المصرى مضغة في الأفواه ، وأمست صحافة العالم تصورنا في صورة شعب مهين ، يُسام الضيم فيسكت عليه ، بل ولا يتنبه إليه ، ويُساق كما تساق الأنعام ، والله يعلم أن الصدور منظوية على غضب تغلى أراجله ، وما يمسكها إلا بقية من أمل يعتصم به الصابرون !

«يا صاحب الجلالة

«لقد كان حقاً على حكومتكم أن تصارحكم بهذه الحقائق ، ولكنها درجت في أكثر من مناسبة على التخلص من مسئوليتها الوزارية ، بدعوى

«التوجيهات الملكية»، وهو ما يخالف روح الدستور، وصدق الشعور . ولو أنها فطنت لأدركت أن الملك الدستوري يملك ولا يحكم . كما أنها توهمت أن في رضا الحاشية ضمانا لبقائها في الحكم . وسترا لما افتضح من تصرفاتها . وما انغمست فيه من سيئاتها - وهى هى لا تزال أشد حرصا على البقاء في الحكم وعلى مغانمها منها على نزاقتها - ولهذا لم نربداً من أن ننهض بهذا الواجب فنصارحكم بتلك الحقائق ابتغاء وجه الله والوطن ، لا ابتغاء حكم ولا سلطان وبراً بالقسم الذى أديناه أن نكون مخلصين للوطن والملك والدستور وقوانين البلاد ، وما الإخلاص لهذه الشعائر السامية إلا إخلاص الأحرار الذى يوجب علينا التقدم بالنصيحة كلما اقتضاها الحال .

«يا صاحب الجلالة

«إن احتمال الشعب مهما يطل فهو لا بد منته إلى حد ، وإننا لنخشى أن تقوم في البلاد فتنة لا تصيب الذين ظلموا وحدهم ، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالى وسياسى وخلقى ، تنتشر فيها المذاهب الهدامة ، بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد ..

«لهذا كله ، نرجو مخلصين أن تصحح الأوضاع الدستورية تصحيحاً شاملاً ، وعاجلاً ، فترد الأمور إلى نصابها ، وتعالج المساوئ التى تعانيها مصر على أساس وطيد من احترام الدستور ، وطهارة الحكم ، وسيادة القانون ، بعد استبعاد من أساءوا إلى البلاد وسمعتها ، ومن غضوا من قدر مصر وهيبته ، وفشلوا فشلاً حقيقياً فى استكمال حريتها ووحدتها

ونهبستها ، حتى بلغ بهم الفشل أن زلزلوا قواعد حكمها وأمنها وأهدروا فوق إهداره اقتصادها القومي ، فاستفحل الغلاء إلى حد لم يسبق له مثيل ، وحرموا الفقير قوته اليومي .

«ولاريب ، أنه ما من سبيل إلى اطمئنان أية أمة لحاضرها ومستقبلها ، إلا إذا اطمأنت لاستقامة حكمها ، فيسير الحاكمون جميعا في طريق الأمانة على اختلاف صورها ، متقين الله في وطنهم ، ومتقين الوطن في سرهم وعلنهم .

«والله جلت قدرته هو الكفيل بأن يكلاً الوطن برعايته ، فيسير شعب الوادى قدما إلى غايته»

يوم صاغ مصطفى مرعى ووقع مع من وقعوا هذه الوثيقة ، لم يكن يملك دبابه ولا مدفعا ، ولم يكن ينتمى لحزب أو لآخر ، ولم يكن عضوا بجماعة تحميه ..

لقد وقع معه هذه الصحيفة نفر من شوامخ رجالات مصر .. بيد أنه سيبقى لمصطفى مرعى أنه كان الوحيد ممن وقعوا العريضة ، الذى لا يتدرع بجماعة أو بحزب يحميه .. حسبه أنه كان مصطفى مرعى المحامى الفارس وكفى !!

من

تراب (٣٨٠) إهدار أحكام القضاء ! (*)

الطريق

الثأر عادة ضالة عمياء ذميمة ، فليس حسبها أنها في عماها تخالف القانون ، وتعطيه ظهرها ، وإنما هي في عماها لا تميز بين مذنب وبريء ، بل هي تختار للثأر من تكون الوجيعة فيه أكثر فداحة وأشد ألماً .. لا تلقى بالآ حتى إلى الدين ، ولا تبالي بقول القرآن المجيد : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْفَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء: ١٣] ، ولا بقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٥ ، فاطر: ١٨] .. ولا تبالي بالعقل الذي يأبى أن تتجه بالانتقام إلى من لم يرتكب في حق المنتقم إثماً ، ولم يصبه بضر !!

وعرفت ضلالة الثأر ، إلى جوار القتل الضريع ، عرفت الاتهام الكيدي ، ففتجه به عالمة مدركة إلى من توقن أنه ليس الفاعل ، مادام إتهامه يوجع إجماعاً أشد ، ويصيب أهله وذويه وقبيلته بحسرة قد لا تصيبهم إذا أقيم الاتهام على الفاعل !!

وقائع أو جرائم الثأر ، هي سجال ضرير بين الأسر والقبائل لا بين أشخاص ، بل هي تتجاوز الأشخاص وتعنى بضرب الأسرة أو القبيلة .. لذلك تتعدد في الثارات الاتهامات الثأرية إلى جوار القتل الثأري ! .. وعبر رحلة طويلة في رحاب القضاء والمحاماة ، صادفتني وقائع عديدة

(*) المال ٢٨/١٢/٢٠٠٩

عجيبة في عماها الضريع .. قُتل فيها أبرياء ، وأُتهمَ أبرياء ، وأحيانًا ما يخيل الكيد والتلفيق على العدالة ذاتها ، فيُضام من لم يرتكب وزرا ، ويفلت الفاعل أو الفعلة الحقيقيون من عقاب القانون ، لتتراكم جبال الثأر ، وتمضي هذه الآفة الضالة في طريقها غارقة في بحور العماء !!

وكلت من نحو عام ، في جنائية محالة إلى محكمة جنايات الأقصر .. أقيم الاتهام فيها ضد أربعة بقتل المجنى عليه ، وثلاثة آخرين بأنهم شركاء لهم بالاتفاق والمساعدة .. الغريب الذي لفتنى أن أسرة المجنى عليه قد وجهت سهامها ضد سبعة اختارتهم بعناية ، قدمت على رأسهم والد قتيل أتهمَ سلفًا في قتله أربعة منها ، وجارى محاكمتهم على هذه الجريمة من أكثر من سنتين .. لا بد إذن أن يتوجه الاتهام الثأرى إلى والد القاتل الجارى المحاكمة عن قتله .. ولكن أسرة المجنى عليه لم تكتف بوالد القاتل ، فأضافت إليه شقيقه وعمه وخاله وثلاثة من أولاد عمومته المباشرة .. ليتلى والد الذى قُتلَ سلفًا بأمس ، بأنه قد صار متهمًا - بعد فقد ابنه قتلاً - هو وابنه الآخر وشقيقه وأولاد أشقائه وصهره شقيق زوجته !!

قدمت الأسرة شاهدين منها ، لم يشهدا الواقعة المستشهد بهما عليها ، ولكنها لُقنا خطة رسم أدوار الاتهام بعناية .. أن المتهمين الأربعة الأول ، قد جاءوا إلى مسرح الحادث في سيارة ميكروباس يقودها أحدهم ، ويتربص بداخلها ثلاثة يحملون بنادق آلية ، اختص أحدهم ، وهو خال القاتل السابق ، بإطلاق النيران على المجنى عليه ، بينما قام الآخرون : والد القاتل السابق وعمه ، بإطلاق النيران من السيارة لمنع أى تدخل ، مع أن

رواية الشاهدين أنه لم يوجد على مسرح الحادث سواهما والمجنى عليه ،
وأ أنهم كانوا بلا سلاح !

اقتضى الإخراج المتفق عليه أن يُتهم الثلاثة الباقون ، شقيق القاتل
السابق وولدى عمه ، بأنهم مروا على موتوسيكل قبل (١٠) دقائق
للمراقبة والتأكد من وجود المجنى عليه أمام منزله ، وزاد والده فنسب
إليهم أنهم كانوا يطلقون النيران من طبنجات يحملونها ، ولأن عمل
الناضورجية لا يتم فى هذا العلن وبهذا الأسلوب ، وإلا كان تحذيراً
لا توطئة لاصطياد ، فإن الشاهدين المستشهد بهما نفيًا قصة الطبنجات
والإطلاق ، واقتصرا على ترديد المرور بالدراجة البخارية ، بينما صمم
الأب على أن لهم دورا فى الجريمة ، فافترض الاتهام افتراضا ، أن هذا
المرور العابر ، يشكل اشتراكا فى جريمة القتل مع المتهمين الأربعة الأول !

الشيء الذى فات هذا التدبير ، أن الأدلة المادية والفنية يمكن أن
تكشف زيف الدليل القولى .. وأن ذلك وارد مهما كان التحايل فى
اصطناع الأدلة .. فلا توجد الجريمة الكاملة .. والتلفيق جريمة تتجه
إلى إدخال الغش على العدالة .. وقد شاءت عناية السوء التى لا تنام ،
أن يأتى دليل فنى لم يكن فى الحسبان .. فقد قُدم إلى النيابة أثناء المعاينة
ما عدده (١٢) فوارغ طلقات ، وجزء من مقذوف .. واقتضى التحقيق
إرسال المقذوف وهذه الفوارغ إلى المعمل الجنائى ، الذى وإن لم يستطع
تحديد عيار المقذوف لتفتته ، إلا أنه قطع بأن جميع الفوارغ مطلقة من
بندقية واحدة لا من بنادق ثلاث ، فانهار بذلك السيناريو الذى طُرِح

تلفيقًا وكيدًا ، سواء عن إطلاق النيران من داخل السيارة بثلاث بنادق آلية ، أو قصة الأب التى نفاها الشاهدان - أن ركاب الدراجة البخارية التى مرت قبل (١٠) دقائق - كانوا يطلقون النار من طبنجات !!

ليس مقصدى هنا أن أروى لك تفاصيل المرافعة التى امتدت قرابة ساعتين لإعادة قراءة ما بين ووراء السطور ، ولا صواب الحكم الذى قضى ببراءة جميع المتهمين السبعة ، وإنما أريد أن أروى لك ما تلا صدور الحكم من تعقيب بوليسى ينطوى على إهدار خفيف لأحكام القضاء .. فقد امتنعت السلطات البوليسية عن الإفراج عن المحكوم ببراءتهم ، وزادت على ذلك فاستصدرت قرارًا باعتقالهم ، وشحتهم شحنًا من سجن المحافظة الذى كانوا فيه ، إلى معتقل لا علم لذويهم - حتى الآن ! - به !!

هل فكر قرار الاعتقال فى حال أب قُتِلَ ابْنُهُ غيلةً من عامين ، ثم يُشْحَنَ اعتقالًا برغم حكم البراءة هو وابنه الآخر ، وشقيقه وصهره وأولاد شقيقه ، إلى معتقل لعله فى الواحات أو وادى النطرون ، دون ذنب جناه ، ودون احترام لحكم قضائى بالبراءة أصدرته محكمة من كبار المستشارين بعد البحث والتمحيص والتثبت والاستيثاق !!

أفهم دواعى التحسب للاشتعال بين الأسرتين ، بيد أن ذلك لا يبرر إهدار أحكام القضاء ، ولا توقيع اعتقال له العديد من البدائل التى تكفل تفادى الاحتقان .. ولكننا نأخذ دائمًا بأقصر الطرق ، دون أن ندرك أثر إهدار أحكام القضاء على هيئة الدولة واحترام القانون !!

من

تراب (٣٨١) أدب الاختلاف؟ (*)

الطريق

لم تعجبني العبارات الفظة ، فضلا عن المنطق المغلوط ، الذى تصدت أو ردت به بعض الأقلام الحكومية ، فى تهجم غير لائق ، على كل من أبدى رأيا مخالفا فى مسألة الجدار الفولاذى العازل الجارى زرعه فى رفح على الحدود المصرية مع قطاع غزة ، الباقى - للآن !! - من فلسطين .. لم أجد ضرورة تربط بين مظاهرة الحكومة وبين شتم كل من يتحفظ على الجدار الفولاذى العازل لمنطق يراه أو حجج يتبناها .. هناك من يرى - وللأقلام الحكومية أن تختلف معه ما شاء لها الاختلاف - أن هذا الجدار يعبر عن منطق مقلوب ، تحول به الإخوة والأصدقاء إلى أعداء ، فيما بدا أنه يصادف أو يصادق ما يريده الأعداء الذين يتحقق لهم بالجدار العازل إحكام الحصار على (٥ ، ١) مليون فلسطينى حبسا وتجويعا وحرمانا من أبسط لوازم الحياة !

الجارى شتمهم والتطاول عليهم مواطنون مصريون ، وفيهم قادات عالية ، وأصحاب فكر ومنطق ، يبارسون حقا مشروعا ، أو دعنى أقول يؤدون واجبا مطلوبًا لا يجوز أن يضيق به أحد ، ناهيك عن أن يتحول القلم فى يده إلى قاعدة صاروخية لإطلاق قذائف الإهانة

(*) المال ٢٩/١٢/٢٠٠٩

والتحقير !! .. لماذا انبهت المعايير وتاهت البوصلة ؟! وأين إن كان هناك سبب حقيقى وحجة للاختلاف - أين أدب الاختلاف وأدب الحوار ؟! لماذا نبادر إلى ترك الموضوع وحججه وعناصره ومنطقه ، لندوس على القيم ونحقر ونهين من لا يرى ما نراه ؟!

ترى ماذا سوف توجه هذه الأقلام من قذائف إلى شخصية دولية بالأمم المتحدة رأت ما يراه المتحفظون في مصر على الجدار الفولاذى العازل الذى يحول الأشقاء إلى أعداء ، وزادت أن دعت إلى فرض عقوبات على إسرائيل على حصارها الجائر على الفلسطينيين في قطاع غزة .. فقد نقلت الأهرام بصفتها الأولى ١٢/٢٥ الجارى ، عن وكالات الأنباء ، أنه لأول مرة - فيما قالت - يهدد مسئول تابع للأمم المتحدة بفرض عقوبات على إسرائيل ، إذا ظلت على إصرارها في فرض الحصار غير القانونى على قطاع غزة (والجدار الفولاذى العازل يكرسه أراد أم لم يرد !) ، حيث طالب ريتشارد فولك مقرر الأمم المتحدة الخاص بالأراضى الفلسطينية - طالب حلفاء إسرائيل في أمريكا وأوروبا بالعمل على رفع هذا الحصار الجائر (الذى نزيده جورًا !!) ، ووصف الحصار على (١,٥) مليون فلسطينى في غزة دون اعتراض دولى رسمى (ناهيك بالتكريس !!) - وصفه بأنه مأساة تمثل فشلاً ذريعاً تتحمله حكومات العالم والأمم المتحدة ، مما يوجب عليها أن تتحمل مسؤولياتها لرفع هذا الحصار ، وتطبيق توصيات اللجنة الدولية لتقصى الحقائق «جولدستون» بشكل سريع وكامل .

ترى هل ستمنطق الأفلام التى سببت وحقّرت المصريين ، فتكيل
لمسئول الأمم المتحدة ما كالتة وتكيله لكل من اجترأ من المصريين على
إيداء تحفظه أو حجج اعتراضه على سلبيات زرع هذا الجدار الفولاذى
العازل بيننا وبين الأشقاء الفلسطينيين المحاصرين أصلاً حصاراً إسرائيلياً
محكماً ومريعاً فى قطاع غزة ؟!

إن الآراء التى تحفظت على زرع الجدار الفولاذى العازل ، لم تنطلق
من فراغات ، وإنما أبديت مقرونة بأسباب منها انعكاساته على قبائل
سيناء وهم مصريون ، ورد الفعل الشعبى فى مصر ذاتها فضلاً عن
المنطقة العربية التى تمثل مصر حجر الزاوية الريادى فيها ، ومنها أنه
التبس بالجدار مساهمة أمريكية بخبرات ومعدات وتمويل وإشراف
أمريكى ، وأن مبررات العزل يمكن تحقيقها بوسائل بديلة غير جدار
يكرس الحصار الإسرائيلى المريع على أشقائنا الفلسطينيين فى قطاع غزة
الذى ظلت مصر مسئولة عنه حتى نكسة ١٩٦٧ ، وأن هذا العازل يخدم
المخططات الإسرائيلية أكثر من أن يكون إجراءً لمقاومة تهريب ، وأن
هذا الإجراء قد استقبل بسخط بين كثير من المصريين وصل بعضها إلى
بيانات عاجلة فى مجلس الشعب !

فى تحليل للأستاذ الكبير سلامة أحمد سلامة ، بمقاله بالشروق
١٢/٢٥ الجارى ، أن الحجة التى تتساند إليها الإدارة المصرية فى زرع
هذا الجدار - أنها تدافع عن أمنها وحدودها وسيادتها ، لا تعطى ذريعة
لزرع هذا الجدار الفولاذى العازل ، فهو يسهم فى تكريس الحصار

الإسرائيلي - وتتخلى به مصر كلية عن واجباتها وتترك قطاع غزة لقمة سائغة لإسرائيل ، بينما توجد أمام الإدارة المصرية بدائل تستطيع بها تأمين حدودها من أى عمليات للتهريب أو حفر الأنفاق ، من هذه البدائل التوسع فى معبر رفح مع وضع وتنفيذ ضوابط وإجراءات صارمة تكفل لمروور الأشخاص والبضائع أن يكون تحت رقابة محكمة ، خاصة أن إسرائيل قد أغلقت باقى المنافذ !

ظنى أن المسألة أبعد كثيرًا من أن تؤخذ على أنها محض تأمين حدودى أمام عمليات تهريب ، فوسائل مقاومة ومنع التهريب متاحة ولا تقع تحت حصر ، ويمكن تطويق عمليات التهريب لا تطويق القطاع ! - بأداء نشط يستعين بالتقنيات الحديثة ويكفل تنفيذ ضوابط محكمة لما يسمح أو لا يسمح بعبوره خط الحدود .. أما زرع الجدار الفولاذى العازل ، الذى ترددت أنباء عن مساهمة أمريكية فيه ، فإنه يبدو إمعانًا لا شفيع له !! - فى تكريس الحصار الإسرائيلى الجائر على قطاع غزة ، وحرمان الفلسطينيين من سبل العيش والحياة ، ويضع الإدارة المصرية - أرادت أم لم ترد - فى معسكر واحد مع العدوان الجارى بلا انقطاع ، قد تتعدد صورته وأشكاله ، وقد تظهر إبادة الفلسطينيين واستلاب وطنهم فى مقدمة الشاشة ، بيد أن غاية إسرائيل بعيدة بعيدة ، تستوجب النظر إلى مقتضيات أمن مصر القومى بمنظور آخر يصنف الأمور تصنيفًا صحيحًا !

من

تراب (٣٨٢) رأيت فيما يرى النائم! (*)

الطريق

رأيت فيما يرى النائم الحالم ، أنه قد صارت بيدي الأمور في مصر المحروسة ، فماذا تراني فاعلا لإصلاح الأحوال ؟! رأيتني أحلم بتشكيل هيئة تأسيسية من فقهاء القانون والدستور ، وخبراء السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والثقافة ، لتضع المبادئ العامة ثم تصوغ دستورا للبلاد يتفاعل تفاعلا حقيقيا مع الواقع وعناصره ويستشرف المستقبل وما يستلزمه ، ويضع الأسس لجمهورية تتوازن فيها السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، ويكفل حرية الرأي والفكر والتعبير ، وحرية الصحافة وإصدار الصحف ، وحرية تكوين الأحزاب بلا وصاية تحت أى شكل ، ويوفر الرقابة القضائية للانتخابات الرئاسية والتشريعية ، ويرسى مبدأ سيادة القانون وخضوع الدولة له ، والمساواة الحقيقية بين المواطنين ، وحقوق المواطنة وما يكفلها ، واستقلال القضاء استقلالاً حقيقيا لا يعطى هوامش - أي هوامش - لتدخل السلطة التنفيذية أو المساس بأي صورة باستقلال القاضي ، وتحديد رئاسة الجمهورية بمدتين لا ثالث لهما إلا بعد انقطاع يشغله رئيس آخر في ولاية أخرى ، وحماية هذه الجذود من التعديل بنص في الدستور يحظر - إن حدث تعديل - سريانه على من يكون بالمنصب عند إجرائه ، ويقرر عدم جواز الترشح

(*) المال ٣٠/١٢/٢٠٠٩

لمن كان قريبا للرئيس حتى الدرجة الثانية إلا بعد ولاية لرئيس آخر ، ورأيت فيما يرى النائم الحالم أن هذا الدستور قد كفل حقيقةً لاشعارًا ! - سيادة الشعب وأنه بالفعل مصدر السلطات لا يُفْتَأَت منها عليه ، ويكفل المقومات الاجتماعية والخلقية والاقتصادية ، ويوازن موازنة دقيقة بين الحريات والحقوق والواجبات العامة ، فيجعل الكل أمام القانون سواء ، ويكفل الحرية الشخصية ويصونها من أى مساس ، ويحظر الاعتقال بدون أمر قضائي يعاد عرضه تلقائيًا على القضاء كل ستة أشهر على الأكثر ، ويقيد مدته بحد أقصى لا تتعده وإلا وجب الإفراج ، ويقرر جدارًا حقيقيًا لحماية حرمة الحياة الخاصة ، ويقوم نظامه البرلماني على مجلسين لهما سلطة تشريعية أولى وثانية كمجلسى النواب والشيوخ ، وأسس ونظام للمحكمة الدستورية العليا يحقق لها الاستقلال الكامل ويحميها من الاختراق !

ورأيت فيما يرى النائم الحالم ، أن الهيئة التأسيسية قد عرضت المبادئ العامة على الشعب فى استفتاء عام بتفصيل يسمح بتفريد الاختيارات ، ثم عرضت بذات النظام صياغة المبادئ على الشعب بما يتيح له التعبير عن إرادته تعبيرًا حرًا خاليًا من أى التباس !

ورأيت فيما يرى النائم الحالم أنه قد قامت فى مصر أحزاب حقيقية متفاعلة مع الشعب تعبر عن تياراته وتوجهاته تعبيرًا يصادف الواقع ، وتقوم فيها أبنية بكوادر حقيقية يجرى فيها تداول السلطة باختيارات حرة ، وأن هذه الأحزاب قد طفقت تتنافس بالديمقراطية على ولاية

الحكيم في ظل الدستور الذى ارتضاه الشعب صاحب السيادة ومصدر السلطات ، ورأيت فيما يرى النائم أن الانتخابات صارت تجرى بشفافية تحت إشراف القضاء بلا تدخلات ولا تزوير ، ويأتى تشكيل مجلسي البرلمان وفق إرادة الناخبين ، معبرا تعبير حقيقيا عن الشعب ، ينتخب كل مجلس من بين أعضائه الرئيس والوكيلين ورؤساء ومقرري اللجان ، وأن تداول المواقع بالمجلسين صار هو السنة الجارية وفق اختيارات الأعضاء ، وأنه لم يعد ممكنا وفق هذه الآلية الديمقراطية أن يعمر أحد في موقعه ، وكذلك الوزراء ، صار كل منهم تعبيراً عن مكانة تفرض نفسها في الحزب الذى فاز بأغلبية حقيقية فشكل الوزارة باختيارات تعبر عن كوادره التى يعرف كل منها قيمته ووزنه وإمكاناته ، ويملاً مكانه كوزير سياسى فعلا يصدر فيما يراه عن رؤية نابعة منه غير ممالة عليه !

ورأيت فيما يرى النائم الحالم أن الصحافة قد تحررت من كل القيود ، وصارت بالفعل مملوكة للشعب من خلال شركات مساهمة تحدد فيها حصص المساهمات على نحو لا يسمح بالاستحواذ ويكفل للقاعدة العريضة حرية الاختيار للأصلح للإدارة ورئاسة التحرير ، وأن هذه الصحف قد جعلت تتقدم إلى الصحافة وتؤدى رسالتها بحرية تامة وفى استقلال حقيقى لخدمة المجتمع والتعبير عن اتجاهات الرأى العام والإسهام على نحو صحي فى تكوينه وتوجيهه فى إطار الأسس والمقومات التى ارتضاها الشعب فى الدستور الجديد .

ورأيت فيما يرى النائم الحالم تواصلًا حيا بين الأجيال ، تمتزج فيه خبرة الشيوخ مع حماس الشباب ، في تداول للمواقع لا تتصاغر فيه الاختيارات أو تنحى القامات المخلصة القادرة على العطاء بعلمها وخبراتها وصدق توجهها للوطن ومصالحه لا للسلطان وما يريده ، ورأيت فيما يرى النائم أن صلاح وعدالة الإدارة ، قد انتشل الفقراء من الفقر المدقع ، ودفع بهم للإسهام الكريم في صناعة الحياة ، وانتهى تحالف المال مع السلطة ، وصار المال في خدمة المجتمع ، ورأيت فيما يرى النائم الحالم أن قيمة الفرد قد صارت فيه ، لا بحسبه ولا بنسبه ولا بهاله ، وإنما بقدراته وعطائه وبذله في خدمة المجتمع ، وأن التعليم قد صلح حاله وطقف يفرز ويقدم للوطن متعلمين حقيقيين يمتزج علمهم بعملهم في شتى المواقع ، فدارت بهم عجلة الحياة ، وتراجعت الأمية ، وأشرقت الصحة على الوجوه التي كانت ضامرة للفقراء والمعوزين ، ورأيت فيما يرى النائم الحالم أننا قد أزلنا العشوائيات في إطار خطط تسكين تدريجي ، وأنها قد أعدنا هيبة القانون وجففنا منابع وأوكار الفساد ، فاستقام أداء الإدارة ، وأصبح كل مواطن شاعرًا بالمساواة والأمان .

ورأيت فيما يرى النائم الحالم ، أن مبادئ الدستور قد كفلت حقوق المواطنة للجميع ، وأنه بكفالتها قد زالت الحساسيات والاحتقانات مع اتساع الوعي باتساع التعليم وانتشار الثقافة وسيادة الاعتقاد بأن الدين لله والوطن للجميع ، وتحققت الفرص المتكافئة في التعليم والعمل ، وفي رعاية صحية مكفولة للفقراء والأغنياء ، وأن العملية التعليمية

بأضلاعها الثلاثة قد طفقت تقوم برسالتها في بناء الأجيال ، وأن حرية الفكر والتعبير قد دفعت بالحكماء والمثقفين الى الإسهام بدور فاعل في بناء المجتمع وتوجيه الرأي العام ، وأن الرياضة قد صارت أسلوب حياة وصلحت أحوالها واستخلصت نفسها من بثر التعصب وسطوة الممارسات الضريرة ، وطفقت تفرز صحة في الأبدان والعقول ، وتفيض بروحها الرياضية على العلاقات والتعاملات بين الناس ، وأن السياسة الاجتماعية قد طفقت تدفع السياسة الضريبية الى اتجاه تصاعدي يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتوالى تقديم الرعاية للطفولة والشيخوخة إعدادا للمستقبل ووفاء بحق من أدوا أدوارهم وأن لهم أن يخلدوا إلى راحة كريمة ، وأن ذلك كله قد أخذ يثر في تحقيق تكافل اجتماعي حقيقى يصير به الكل في واحد والواحد للكل !

رأيت فيما يرى النائم أحلاما كثيرة تتحقق بها وفيها عناصر المدينة الفاضلة لمصر المحروسة ، وأصابني الذعر حين استيقظت وأدركت أن ما رأيته كان أضغاث أحلام ، ثم ردنى إلى بعض الطمأنينة أننا سوف نكون بخير حين نقدر على الحلم ، وأن الخطر كل الخطر يكمن في فقدان هذه القدرة التى هى بداية الطريق لتحويل الأمانى إلى واقع تعود به الحياة إلى بر مصر !

من تَرَابِ (٣٨٢) المنقذ من الضلال! (*) الطريق

بين الإمام ، حجة الإسلام ، أبى حامد الغزالى (١٠٥٩ / ١١١١ م)
وكتابه : «المنقذ من الضلال» ، وبين الدكتور مصطفى محمود وكتابه :
«رحلتى من الشك إلى الإيمان» - قرابة ألف عام .. سوف تشعر حين
تقرأ : «المنقذ من الضلال» - أن الدكتور مصطفى محمود قد استقى منه
الفكرة ، وسار قريبا من دربه حتى خرج بمحاولته من هواجس الشك
إلى أمان اليقين ..

كان الغزالى وتجربته فى المنقذ من الضلال ، حاضرين فى ذهنى وأنا
أتابع رحلة الدكتور مصطفى محمود وما عبر به عنها .. رويت لك فى
(٨ / ١١ / ٢٠٠٩) بعضا منها ، ثم رأيتنى مشدودا إلى الإمام الغزالى
وتجربته فى كتابه الأسبق بنحو ألف عام : «المنقذ من الضلال».

فى تصدير طبعة هذا الكتاب سنة ١٩٧٣ ، كلمات رشيقة للأستاذ
أنيس منصور ، يقول فيها عن الكتاب : «إننى أقرأ فيه أجمل وأروع ما
كتبه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى كتابه المشهور «مقال فى المنهج» ..
فهو يبدأ بالشك ثم ينتهى إلى اليقين . ولكن الغزالى أبسط وأروع وأعمق ..
تجرد من كل شىء ليؤمن بكل شىء .. نزل إلى كل بحر ، وطاف كل محيط ..

(*) المال ٢٠٠٩ / ١٢ / ٣١

ليرسو على بر الأمان بالعلم والإيمان .. لقد هدانى الغزالي ، وثبتت الأرض تحت قدمي ، وثبتت الدنيا كلها أمامي .. هنا السماء وهنا الأرض . هنا العقل وهنا النقل . هذا الكتاب وهنا الحديث وهنا الاجتهاد» .

أريد اليوم أن أحدثك عن الرحلة التي قطعها الإمام الغزالي من قرابة ألف عام .. غاص في بحور ولجج ، وطاف بين العلوم والأفكار ، مدفوعاً بأشواق قوية لمعرفة الحق والخروج من هواجس وتخيلات الضلال إلى شاطئ وأمن اليقين !

يفصح الغزالي في بدايات الرحلة ، أن اختلاف الناس في الأديان والمثل ، بحر عميق غرق فيه كثيرون ، ولم ينبج إلا قليلون . وأنه منذ عنفوان شبابه خاض في لجج هذا البحر ، وتوغل في كل اتجاه ، وتفحص في عقيدة كل فرقة .. دافعه التعطش إلى إدراك الحقيقة .. بدأ بالتخلص من قيود التقليد والخضوع للموروث ، فكل مولود يولد على الفطرة ، ويتابع ما يتلقاه من والديه فينشأ على دينهما ، إلا من يطلب الحقيقة ويسعى جاهداً لاكتشافها ..

فتش الغزالي في العلوم ، فقال لنفسه في البداية إن الأمل في المحسوسات ، فهي التي تقيه مغبة الغلط ، ولكنه حين استعرض ما صادف إبراهيم الخليل عليه السلام حين استبان أن الكواكب والقمر والشمس جميعها تأفل بعد بزوغ ، أدرك أن الثقة بالمحسوس قد تتعلق بفرغ أو أوهم ، فتبطل الثقة إلا بالعقليات .. فالعقل هو الذي كذب

لديه ظنّه في المحسوسات .. والضرورات العقلية أوثق للوصول إلى
الأمن واليقين .

ولكنه نظر فوجد المتطلعين إلى نور العقل ، قد تفرقوا بين أربعة فرق :
المتكلمون ، والباطنية ، والفلاسفة ، والصوفية .. فأى من هذه الفرق
أهدى سبيلا في الوصول إلى الغاية .. لاحظ أن علم الكلام الذى درج
عليه المتكلمون - علم وافٍ بمقصوده ، ولكنه غير وافٍ بمقصود الغزالي
في الاهتداء إلى المذهب الصحيح بلا تشويش .. فأهل الكلام قد صرفوا
جهودهم لبيان مناقضات الخصوم ومقارعتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذه
المقارعات لن تكفيه للخروج كليةً من ظلمات الخيرة .. فهل تفى الفلسفة
والمفلسفون في تحقيق مراده ؟! .. بذل الغزالي غاية جهده لدراستها لنحو
ثلاث سنوات ، فخلص إلى أن معظم ما اطلع عليه منها فيه خداع وتلبيس ،
افترقت سبله بين الدهريين والطبيين والإلهيين ، فرأى الدهريين
يزعمون أن العالم لم يزل موجودًا بنفسه بلا صانع ، والطبيين برغم
بحثهم في عجائب صنع الله تعالى وبدائعه ، أكثروا الخوض في تشريح
أعضاء الحيوانات ، فأخذهم ذلك إلى الظن بأن قوة الإنسان العاقلة تابعة
لمزاجه ، وتبطل ببطلانه ، وذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا
الآخرة والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب ،
ولا للمعصية عقاب .. فلما ترك هؤلاء وأولاء إلى الإلهيين ، وراجع
سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ، ثم الإسلاميين كابن سينا والفارابى
وأمثالهما ، وجد أن اللاحقين يتبرأون مما رآه السابقون ، ووجد علومهم

قد جرت في اتجاهات طفق الغزالي يراجعها ويعرضها ، حتى خلص إلى مجمل رأيه في الفلسفة التي حمل عليها حملة ترى تفاصيلها - إن أردت - في كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة» ، والذي رد عليه ابن رشد في «تهافت التهافت» .. ويبدو أن حملة الغزالي على الفلسفة والفلاسفة في «المتقذ من الضلال» - كانت مخافة التأثير على العقيدة التي أراد من رحلته الوصول إليها خالصة مصفأة .

خرج الغزالي من الفلسفة إلى الصوفية ، وإلى عالم وكتب ومأثورات الحارث المحاسبي والجنيد والشبلى والبسطامي وغيرهم ، ويعد هذا الفصل أجل ما في كتاب «المتقذ من الضلال» .. فيه أبان حقيقة التصوف الذي انتهى به إلى أعلى درجة في هذا المضمار .

لن تسبغ وأنت تتابع الغزالي في رحلته الباحثة عن الإيمان اليقيني بالله تعالى وبالنسوة وباليوم الآخر ، وكيف استقر به المقام بعد بحث عميق وتأمل طويل إلى مرفأ الأمان ، وكيف وجد سعاده في التقوى وكف النفس عن الهوى ومجافاة الغرور ، وكيف لم يعد يشغل نفسه إلا بالخلوة والرياضة والمجاهدة وتركية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وبعد ، فليس في وسعي أن أغنيك في هذه السطور - عن متابعة الغزالي في رحلته الشيقة ، المتأملة الممتعة ، وهو يبحث عن الحقيقة ، حتى اهتدى إلى شاطئ الأمن واليقين .

من تراب (٣٨٤) نداء الواجب (*) الطريق وعناية السماء

أويت عصر الأحد ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٩ إلى فراشى لائذا به من إجهاد يوم طويل ، فمنت على خلاف العادة نوما طويلا عميقا كان أقرب إلى الإغماء .. استيقظت منه شاعرًا براحة وعافية لم تطل ، قطعها وخز في مكان لم أعد أخطئه على مر السنين منذ اعتل القلب أو شرايينه التاجية في أوائل السبعينيات ، وداويت وصلات هذه الشرايين التاجية عبر جراحة كبرى أجراها الجراح الأمريكي العالمى «جورج رول» في مستشفى القديس لوقا في هيوستن بالولايات المتحدة الأمريكية في ١٦ يوليو ١٩٩٠ .. نعمت بالهدوء والسلامة لعشر سنوات ، قبل أن تعاود الشرايين التاجية أنينها من وقت لآخر .. أتاحت عناية السماء وتقدم الطب تلبية ندائها بقسطة تشخيصية / علاجية كل ستين تقريبا ، مشفوعة في كل مرة بدعامتين للتوسيع وتسليك مجرى الدم في الشرايين ، فلما لاحقنى الوخز مساء الأحد ٢٢ نوفمبر ، تداركته بقرص فآخر لدواء الآيزورديل (Isordil) تحت اللسان ، ولكن الألم لا يزال مقيما يحمل نذيره في إلحاح .. هل أضع القرص الثالث ؟! كان لابد من استشارة الصديق العزيز الأستاذ الدكتور جلال السعيد الذى يرعانى منذ عام ١٩٨٩ .. ما إن

(*) المال ٤ / ١ / ٢٠١٠

تلقي الاتصال الهاتفي حتى أمر بالذهاب فوراً إلى مستشفى البرج .. هناك تلقفنى ملائكة الرحمة بعناية موصولة ، فظننت أن الإقامة بالمستشفى لن تستطيل وأنى سوف أغادر فى الصباح ..

فى صباح الاثنين ، زارنى الدكتور جلال ، وسمعنى ، ثم فجأنى بإصراره على أن أجرى فى نفس اليوم قسرة تشخيصية من المحتمل أن تتحول إلى تداخلية لإجراء التوسيع البالونى وتركيب دعامات إذا لزم الأمر .. رجوته أن يدع لى الاثنين والثلاثاء ، واعدًا أن أكون تحت أمره من صباح الأربعاء .. فاستفسرنى مندهشاً .. ولم يستطع أن يخفى صدمته الشديدة حين أفصحت له عن أنه من المتعين أن أقف صباح باكر الثلاثاء أمام محكمة جنايات الجيزة إلى جوار موكل لجأت إلى أسرته بعد أن حبس احتياطياً من ١٩/٦ مع تأجيل نظر دعواه إلى ٢٢/١١ .. قلت له مترافعاً عن ملتمسى - إننى لا أستطيع أن أتخلف عن هذا الرجل وعن أسرته التى علقت آمالها على حضورى ودفاعى وما سوف أبدية فى طلب الإفراج عنه .. لم يستطع الدكتور جلال أن يحجب تعجبه أو دهشته التى أخذت تتزايد وأنا أبدى له مرافعتى الحارة لأنال موافقته .. سمعنى بصبر، ولكن أعقبه نذير بأن قياس الأنزيمات قد جاء قاطعاً بأننى أعانى من ذبحة صدرية غير مستقرة ، وأن مغادرتى المستشفى ناهيك بالتوجه إلى المحكمة ، خطر داهم على حياتى ! ولكن صداقتنا دفعتنى إلى المزيد من الإلحاح ، مبدياً فى صدق أنه ليس بمستطاعى أن أخذل من تعلقت آمالهم بى ، وطفقت ألح فى إصرار لم يملك إزاءه إلا أن يستخدم آخر سهم ، أنه لن

يسمح بخروجه إلا بأخذ إقرار منى أو على بأننى أخرج رغم تنبيهى إلى خطورة الحالة على حياتى .. ظننت لوهلة أن الصديق يضغط لإثنائى ، وأن الأمور لن تصل إلى أخذ هذا التعهد الكتابى ، ولكنى فوجئت بعد نصف ساعة بأحد مساعديه يأتى ليستوقعنى باستلام تقرير ينص بعد توصيف الحالة - على أنه تم شرحها لى وبيان خطورتها تفصيليا ، وأننى رغم ذلك طلبت الخروج - الذى لا يوافق عليه الطبيب ! .. وأن خروجى يجرى على مسئوليتى .. وقعت الإقرار ثم غادرت المستشفى فى الحادية عشرة ظهر الاثنين لأعود لإجراء القسطرة المطلوبة صباح الأربعاء ١١ / ٢٥ ليلة وقفة عيد الأضحى !

لا أخفى أننى خرجت يصاحبنى قلق ، سارعت به فور وصولى إلى منزلى ، بطلب معمل الألفاسكان لإجراء تحليل آخر للإنزيمات ، عسى أن تكون معدلاتها المرتفعة قد عادت إلى الهبوط ، ولكن جاءت النتيجة تحمل نذيرا مضاعفاً ، أن الأنزيمات ارتفعت أرقامها إلى ضعف ما كانت عليه .. سارعت بالاتصال بالدكتور جلال مخبرا إياه ، متوجسا أن يأمرنى بالعودة فورا إلى المستشفى .. ولكن تفهم الإنسان لم يفارق خبرة النطاسى البار ، فهدأ من روعى مطمئنا إياى أن الأنزيمات تظل فى الارتفاع فى الأربع والعشرين ساعة التالية للذبحة الصدرية ، وأنه ليس على إلا أخذ أقرص مهدئة وتفادى الإجهاد والانفعال أمام المحكمة فى اليوم التالى ! فى صباح الثلاثاء كنت أول الواصلين من زملاء مكتبى إلى قاعة المحكمة ، ظلمت إلى موعد انعقاد المحكمة والنداء على القضية ، أغوص

فى أوراقى وأرتب حججى .. لن أستطيع أن أصف لك سعادتى ورضائى وأنا أقف أمام المحكمة مليئاً نداء الواجب ، مؤيداً بتوفيق لم يخالجنى شك فى أنه مشمول بعناية ربانية ظلت ترعانى حتى أدت مهمتى راضياً بما فعلت وأنجزت ، ولكن عناية الله أبث إلا أن تراضينى أكثر ، حين تلقيت وأنا فى طريق العودة اتصالاً هاتفياً بأن قرار التأجيل لتنفيذ الطلبات التى أبديتها - قد صدر مشفوعاً بالإفراج عن المتهم وإخلاء سبيله !

فى صباح اليوم التالى ، كنت أرقد بسلام ممزوج بالرضا والإيمان ، فى غرفة العمليات بالمستشفى ..

أتابع مستيقظاً - كنظام القسطرة - خطوط مسارها حتى استقرت عند موضع الاختناق بالوصلة الخلفية للشرابين التاجية ، فتداركته بتوسيع بالبالون ، وبدعامة طفقتُ أرقب كيف اتسع بها مجرى الشريان ، وكيف عادت الوصلة التاجية تمرر الدماء فى سلاسة ويسر إلى القلب الذى لى نداء الواجب وسلم مقاديره إلى الله فأنعمت عليه عنايته بالمرضاة والنجاة .

من
تراب (٣٨٥)
الطريق

الجنة والنار (*)
عند المتصوفة

(١)

قال الجنيد ، كنت نائما عند أبى الحسن سرى السقطى ، فنبهنى وقال :
يا جنيد رأيت كائى قد وقفت بين يديه فقال لى يا سرى قد خلقت الخلق
فكلهم ادعوا محبتى ، فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقي
معى العشر ، وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقي معى
عشر العشر ، وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر ،
فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر عشر
العشر ، فقلت للباقيين معى : لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من
النار هربتم ولا من البلاء فررتم ، فماذا تريدون ؟ قالوا إنك سبحانه
لتعلم ما نريد ، فقلت لهم إنى أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما
لا تقوم به الجبال الرواسى - أتصبرون ؟ قالوا : إذا كنت المبلى فأفعل ما
شئت .. فهو لاء عبادى ..

(٢)

قيل لعبد الواحد بن زيد ، ها هنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقَصَّده
فقال : حبيبي أخبرنى عنك فهل قنعت به ؟ قال لا .. فقال : هل أنست

(*) المال ٢٠١٠ / ١ / ٥

به ؟ قال لا .. فقال : هل رضيت عنه ؟ قال لا .. قال فإنما أمرك منه الصلاة والصيام ؟ قال نعم .. فقال : لولا أنى أستحي منك لأحدثك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة !

(٣)

وقال ابن عطاء الله السكندري : « من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة منه ، فما قام بحق أو صافه » !

(٤)

عمل العاملين لأجل حصول الجزاء أو فرارا من عقوبة الولي - مدخول معلول .. ليس من شأن الخاذقين المحققين ، لأن قيام العبد بحق أو صاف مولاة يقتضى أن لا يعمل لأجل خطه من جلب ثواب أو دفع عقاب .. لأن مولاة يستحق عليه كل شيء ، ولا يستحق هو عليه شيئا .. وهذا من أعلى المحبة لله تعالى ، لأن المحب مجتمع بهم بأمر محبوبه .. فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته ، فإن خالف هذا وعمل على طلب حظه ، لم يقم بحق صفات مولاة . قال سهل بن عبد الله التستري : « ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض ، إلا وهم جهال بالله تعالى ، إلا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودينه وآخرته » .

(٥)

وقال أبو مدين : شتان بين من همته الحور والقصور ، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور !

(٦)

وفيا نقل عن وهب بن منبه من الزبور : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار . لو لم أخلقجنة ولا نارا - ألم أكن أهلاً لأن أطاع ؟!

(٧)

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد احترقوا من العبادة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن عباد الله . فقال : لأى شىء تعبدتم ؟ قالوا : خوفنا الله من ناره فحفظنا منها . قال : حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه . ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال لهم : لأى شىء تعبدتم ؟ قالوا : شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجوها . فقال : حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم . ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : المحبون لله .. لم نعبده خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته - ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله . فقال : أنتم أولياء الله حقاً . معكم أمرت أن أقيم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين : مخلوقاً خفتم ومخلوقاً أحببتم ، وقال للآخرين أنت المقربون .

(٨)

قال الشيخ أبو طالب المكي وممن روى عنه هذا أقول وأقيم فى هذا المقام - جماعة من التابعين بإحسان منهم أبو حازم المدنى .. كان يقول : إني لأستحى من ربى أن أعبدته خوفاً من العذاب فأكون مثل عبد السوء ، أنه إن لم يخف لم يعمل .. وأستحى أن أعبدته لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء ، أنه إن لم يعط أجر عمله لم يعمل .. ولكن أعبدته محبة له سبحانه ..

(٩)

وقال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنا يا أبا محفوظ أى شىء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق .. فسكت . قيل له : ذكرت الموت ؟ فقال وأنى شىء الموت . فقيل له : قد ذكرت القبر ؟ . قال : وأنى شىء القبر . قيل له : خوف النار ورجاء الجنة ؟ قال : وأنى شىء هذا .. إن من ملك هذا كله إن أحببته أنساك جميع هذا ، وإن كان بينك وبينه معرفة كفالك جميع هذا .

(١٠)

قال أبو طالب المكى : رويانا عن رابعة العدوية ، وكانت إحدى المحبين وكان سفيان الثورى يجلس بين يديها ويقول : علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة ، وكانت تقول له : «نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا» ، وكان يعترف لها ويسلم بقولها ، وكان عالما زاهداً إلا أنه كان يؤثر الحديث والإقبال على الناس وهى أبواب الدنيا . وقال لها الثورى : لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدت الله خوفاً من النار فأكون كعبد السوء إن خاف عمل ، ولا حبا فى الجنة فأكون كالأجير السوء إن أُعطيَ عمل ، ولكن عبدته حباً له وشوقاً إليه .

من
تراب (٣٨٦)
الطريق

الباطن والظاهر (*)
عند المتصوفة

(١)

من حكم ابن عطاء الله السكندري : ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول . وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا في الوصول !

(٢)

وقيل : ينبغي للعبد ألا ينظر إلى صور الأشياء ، ولينظر إلى حقائقها ..
فصور الطاعات لا تقتضى وجود القبول ، ووجود صورة الذنب لا تقتضى إلا الإبعاد والطرْد !
وقيل : رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صاحبه الجنة .

ذلك أن من عمل بالطاعة يعجب بها ويعتمد عليها وقد يتكبر بفعلها ويستصغر من لم يفعلها ، وهو عند وقوعه في الذنب يصحبه اللجوء إلى الله تعالى والاعتذار إليه واستصغار نفسه وتعظيم من لم يقع في مثل ذنبه .

(٣)

وقال أبو حازم : إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها وما خلق الله من سيئة أضّر له منها ، وإن العبد ليعمل الحسنة تسوؤه وما خلق الله من حسنة أنفع له منها .

(*) المال ٦/١/٢٠١٠

وقال ابن عطاء الله السكندري : «معصية أورثت ذلًا وافتقارًا - خيرٌ من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا» !

وقال أبو مدين : « انكسار العاصي - خيرٌ من صولة المطيع » !
وكان أبو العباس المرسى كثير الرجاء لعباد الله ، الغالب عليه شهود وسع الرحمة ، وكان تبرم الناس على قدر ريبتهم عند الله ، حتى إنه ربما دخل عليه المطيع فلا يعبأ ، وربما دخل عليه عاصي فأكرمه . لأن ذلك الطائع متكبر بعمله ناظر لفعله ، وذلك العاصي دخل عليه بكثرة معاصيه وذل مخالفته !

(٤)

قال الحارث المحاسبي : إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعًا لقلوبهم ، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو العاصي وذُلَّ هيبةً ، فهو أطوع لله من العابد أو العالم .

قال أبو طالب المكي : ومن أفضل ما غذانا به الله - نعمة الإيمان . فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا في الذنوب ، ولو قلب قلوبنا في الشك والضلال ما يقلب نياتنا في الأعمال ، فأى شيء كنا نصنع ، وعلى أى شيء كنا نعول ، وبأى شيء كنا نطمئن ونرجو؟!

فالعبد مضطر إلى الله أبدًا ، ولا يزيل العبد هذا الاضطراب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها .

وهذا هو حكم الحقائق ، إذ لا يختلف حكمها لا في الغيب ولا في الشهادة ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .. فالعلم صفته الكشف ، أى علم

كان في أى وقت كان ، والإرادة صفتها التخصيص ، أى إرادة كانت في
أى وقت كان ، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطرابه .
ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم - سلط الحق
الأسباب المثيرة للاضطراب ليُعرف قهر ربوبيته وعظمة إلهيته .

(٥)

كتب يوسف بن الحسين الرازى إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك ،
فإنك إن ذقتها لاتذوق بعدها خيراً أبداً !

(٦)

وقال الشيخ أبوعلی الدقاق : «من سكت عنه هواجس نفسه بصدق
مجاهدته ، نطق بيان قلبه بحكم مجاهدته» . وقال : «من زين ظاهره
بالمجاهدة ، حَسَّن الله سرائره بالمشاهدة» .

(٧)

قال الواسطى : استحلأ الطاعات سموم قاتلة ، وقال ابن عطاء الله
في «لطائف المنن» : صدق الواسطى ، فأقل ما في ذلك أنه إذا فتح لك باب
حلاوة الطاعة تصير قائماً فيها متطلباً لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص
في سهو منك ، وقد تحب دوامها لا قياماً بالوفاء ولكن لما وجدت من
الحلاوة والمتعة ، فتكون في الظاهر قائماً لله ، وفي الباطن إنما قمت لحظ
نفسك ، ويخشى أن تكون حلاوة الطاعة جزاء التعجل في الدنيا فتأتى
يوم القيامة ولا جزاء لك .

المطلوب من العبد إقامة الأمر في الظاهر والتعلق بالله فى الباطن ،

والاستغناء به عن غيره ، فإذا رزق العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه
نعمة ظاهرة وباطنة .

(٨)

قال أبويزيد البسطامي : اطلع الله على قلوب أوليائه ، فمنهم من لم
يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة .

وقال أبوالعباس الديثوري : إن الله عبادًا لم يستصلحهم لمعرفة
فشغلهم بخدمته ، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفة .

وقال ابن عطاء الله السكندري : قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم
اختصهم بمحبته ﴿ كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ
رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] .

(٩)

قال ابن عطاء الله السكندري : «قطع السائرين له الواصلين إليه ، عن
رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم . أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق
مع الله ، وأما الواصلون فلأنه غيبتهم بشهوده عنها» .

«السائلون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق والبراءة في
الدعوى ، فهم أبدًا متهمون لأنفسهم في توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم .
والواصلون قطعهم شهودهم له في حضرة قربه .. ومن شاهده لم يشهد
معه غيره ، إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه !

(١٠)

وقال ابن عطاء الله : «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن
وجودك إلى فضاء شهودك» .

وقال : « ما حجبك عن الله وجود موجود معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه » ..

وقال : « لولا ظهوره في المكونات ، ما وقع عليه وجود أبصار ، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته » ..

وقال : « أظهر كل شيء لأنه الباطن ، وطوى كل شيء لأنه الظاهر » .
فاسم الظاهر يقتضى بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه فينطوى
حيثئذ وجود كل شيء .

واسم الباطن يقتضى ظهور كل شيء حتى لا باطن معه فيظهر إذ ذاك
وجود كل شيء بالحق تعالى الموجود بكل اعتبار .
« الأكوان ثابتة بإثباته ، محوأة بأحدية ذاته » .

من

تراب (٣٨٧)

« وكلهم آتيه » (*)

الطريق

يوم القيامة فردا»

استحضر انتباهي آية في القرآن الكريم تنذر المنكرين والكفار والمعاذين ، بقول الحق جل علاه : ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] ..

ومن يقرأ القرآن المجيد ، يلاحظ كيف أن النذير القرآني قد أتى في كل مواضعه بالغ الحكمة شديد الوقع نافذ الحجة ، أينما يتابعه في الكتاب المبين ، يلمس هذه الخصائص مجتمعة ، فالحق سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وفي سورة آل عمران : ﴿لَا يَغْرَنَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١١٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨] ، وكما ترد البشارة والوعد ، يأتي الوعيد في موضعه منذرا بالعذاب الأليم ، وربك سبحانه لا يظلم أحداً ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون .. ومع غفرانه وتوبته سبحانه وتعالى على من يتوب إليه ، فإن الآيات المبينة تقرر شدة العقاب

(*) المال ١١/١/٢٠١٠

بغفران الذنب وقبول التوبة ، فيقول جلّ شأنه في مستهل سورة غافر :
 ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴾
 [غافر: ٣] .. ونرى في آيات سورة مريم - بعد أن عددت صوراً من عناد
 المنكرين أو ادعاءات المدعين ، وتناول البعض وتمنيهم الأمانى أنهم
 سيرزقون في الجنة أموالاً وولداً ، وكفرهم بآيات الله ، واتخاذ بعضهم من
 دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ، وزعم بعضهم أن الملائكة بنات الله ، أو
 أنه سبحانه وتعالى قد اتخذ ولداً ، ترى الآيات لا تكتفى ببيان ما في ذلك
 من منكر وفضاعة وبهتان ، وإنما جاء النذير في آيتين من سورة مريم بالغ
 الدلالة في تقرير المعاندين واستحضار انتباههم إلى ما يفوتهم ويغيب عن
 حسابهم ، فتقول الآية (٩٣) من سورة مريم : ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ .. فقد أحصاهم تبارك وتعالى وعدهم عدداً ،
 ثم تقول الآية (٩٥) : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴾ .. قمة الحجة
 والبلاغة والمزاوجة بين العبودية التي لا يعز عليها مخلوق إلا ويأتى إلى
 الرحمن - ولاحظ صفة الرحمة التي أوردتها الآية هنا ! - إلا ويأتى إليه
 عبداً خاضعاً ذليلاً لا يملك شيئاً مما كان يتباهى أو يفاخر به أو يومئ إليه
 أو يعاند فيه .. الكل بلا استثناء عباده ، لا يعز منهم أحد على حساب ربه
 الذى أحصاهم عدداً وأحصى ما صدر عن كل منهم ، ومع ذلك تقرن
 الآية هذا الوعيد والنذير بصفة رحمته تباركت أسماؤه .. في هذا اليوم لا
 ظهير لأحد لا نصير ، ولا عزوة ولا قبيلة ولا أحزاب ولا عصبية ، وإنما
 يأتى الجميع فرادى .. فرداً فرداً .. لا مال يعينه ويؤازره ، ولا نصير يؤيده

ويدهمه ، ولا ملاذ له في عصابة أو قوة أو أسرة أو قبيلة أو قوم .. فالكل آت إلى الله تعالى يوم القيامة فردًا .. حسابه أمامه سبحانه وتعالى على ما قدمت يدها وسلك في دنياه .. ففي القرآن المجيد : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣] .

شخصية المسئولية ملمح قرآني بالغ الحكمة ، فالإنسان مسئول في شريعته عما يفعل وعما يدع ، يثاب وينجو بعمله لا بوساطة ولا بشفاعه الكهان أو الأحبار والرهبان .. يأتي إلى ربه فردًا لا نصير له من مال أو جاه أو منصب أو عزوة أو قبيلة أو حزب ، مصيره معلق بسجله وفعله ، يأتي منسلخا من كل ما انتصر به أو تجبر أو اعتز أو اغتر في دنياه .. طائره في عنقه لا في عنق سواه ، عبد فرد خاضع ذليل إلى ربه ، لم يخرج من الدنيا برصيد البنوك أو تلال الثروة أو سجلات المجد والفخار ، أو صفحات التجبر والطغيان ، أو أضغاث الأوهام .. لا يحمل إلا كتابه بيمينه أو بشماله ، فيها وصفه القرآن المجيد وصفا بليغا يحمل بيانه لمن يعتبر .. فيقول عز وجل : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْتَبُ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءُ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٣) وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَأُرْوِيَ كِتَابِيَةَ (٢٤) وَلَئِنْ أَدْرِمَ مَاجِسَاءُ بَلَيْتَنَاهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٥) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي (٢٦) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٧) خَذُوهُ فَعُوهُ (٢٨) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٢٩) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٠) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ١٨-٣٣] .

من تراب (٣٨٨) شهيد العشق الإلهي (*) الطريق

شهيد العشق الإلهي الذي أريد أن أحدثك عنه ، هو السهروردي
المقتول شهاب الدين .. حكيم القرن السادس الهجري ، وشاعر الصوفية
وأديبها المفوه الطائر المحلق في رحاب الفكر والتأمل .. قتلته الكلمات كما
قتلت الحلاج ، والقتلة أشباه ونظائر في كل عصر وأوان .. هم بالأمس
القريب كما كانوا بالأمس البعيد ، وهم اليوم كما كانوا في كل ماض قديم
أو غابر سحيق !

في بلاط الملك الظاهر الأيوبي بالشام ، كما في كل بلاط ، ذهب الحقة
ليوغروا صدر الملك على الصوفي العاشق ، ويثيروه لإهدار دمه بزعم
أنه يفسد العقول ويزعزع العقائد .. يأبى الملك إلا أن يحتكم إلى ثقة
وتقدير الشيخ افتخار الدين شيخ المدرسة الحلوية الذي عرف بمحبته
للسهروردي وتقديره له ، فأفرغ الشيخ كل ما في جعبته من علم
وإنصاف ، حتى رد الحقة عن بلاط الملك الظاهر مفحمين خائبين !!

في ماخور من مواخير التآمر ، اجتمع الحقة يدبرون كيف السبيل
إلى بلوغ الغاية وتنحية السهروردي من طريقهم .. إن الملك الظاهر
يحبّه ويؤثره ، والشيخ افتخار الدين قواه وأيد حسن رأيه فيه . أما

(*) المال ١٢/١/٢٠١٠

وقد خاب مسعى الدس لدى الملك الابن ، فلا عليهم إلا أن يتقلوا
إلى إيغار صدر الملك الأب : صلاح الدين الأيوبي .. فهو يكره الفلسفة
والفلاسفة ، ويسير أن تُحمل صوفية السهروردي على أنها ضرب من
ضروب الفلسفة ، ولا بأس لزوم التأليب من تحذير صلاح الدين من أن
السهروردي سوف يفسد عقيدة ابنه الملك الظاهر !!

جاء خطاب صلاح الدين آمراً بإبعاد السهروردي ونفيه ، ولكن
الملك الظاهر لا يسرع إلى تنفيذ الأمر ، يترأخى ويتمهل بحثاً عن مخرج
لإنقاذ الصوفي الحكيم من شر تدبير الحاقدين الذين جعلوا يلحون عليه
كل يوم ، فلا يجد مناصاً بعد شهور ، من عقد مجلس للمناظرة بينهم وبين
الحكيم المفترى عليه ..

كانت أشعار السهروردي في العشق الإلهي ، هي تعلتهم للضرب
فيه ، متجاهلين رموز الصوفية في الإلماح إلى الذات العلي وأسلوبهم في
المناجاة لنور الأنوار .. جعلوا يحرفون حنينه إلى رب العزة ، وأشواقه
للاتصال بالذات الإلهية ، ويصورونه على أنه بوح بمحبة معشوقة في دنيا
الناس ، وتعبير عن ألم العشق وجوى عاطفة مشبوبة !

بيد أن السهروردي لا يجزع ولا يبالى بأنباء المؤامرات التي جعلت
تأتيه بما يُحَاك ضده .. وكيف يجزع وهو الصوفي صاحب النزعة الإشراقية ..
ولكن أقلية على رأسها الشيخ افتخار الدين جعلت ترد سهام الحقدة أمام
الملك الظاهر ، وتستشهد بأبياته القاطعة بأن العشق الذي تتنادى به هو
للذات الإلهية ..

يا صاح : ليس على المحبِّ ملامة
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى
سمحوا لأنفسهم وما بخلوا بها
ودعائهم داعى الحقائق دعوة
ركبوا على سنن الوفا ودموعهم
والله ما طلبوا الوقوف ببابه
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
حضرُوا فغابوا عن شهود ذواتهم
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن للاح في أفق الوصال صباح
كتماهم ففنا الغرام فباحوا
لما درّوا أن السّاح رباح
فغدوا بها مستأنسين وراحوا
بحرّ ، وحادي شوقهم ملاح
حتى دُعوا وأتاهم المِفْتاح
أبداً فكل زمانهم أفرّاح
وتهكوا لما رأوه وصاحوا
إن التشبه بالكرام فلاح

كان الخطاب مختلفا ، كما كانت الأهداف متباينة ، في المناظرة التي عقدت ببلاط الملك الظاهر ، السهروردي لا يبالى بالمداهنة ، ولا يستهدف سوى بيان وتجليّة منطقته وتسامى روحه المترفعة عن الدنيا والشروع ، بينما كانت هذه الدنيا والشروع هي موضوع وغاية من تجمعوا عليه .. مضت المناظرة وهو يفحمهم فيها بعلمه ومنطقه ونصاعة بيانه وحجته ، وهم يتراجعون منهزمين حتى أوشكوا على التسليم ، لولا أن أسعفهم واحد من لثامهم فقال للسهروردي : « ألم تذكر في بعض تصانيفك أن الله قادر على أن يخلق نبيا ؟! » .. وفي ثقة غير وجلّة ، يجيبه السهروردي : « نعم . ذكرت ذلك » .. فعاد اللثيم يقول : « أما علمت أن

هذا أمر مستحيل؟! «. سأله السهروردي : «وما وجه استحالته ؟ . فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شئ» .. سارع الحقدة المتآمرون لتلقف هذه الإجابة مقاطعين مشوشين على السهروردي ومصادرين عليه حتى لا يتم عبارته التى تفرق وتميز بين الممكن فى ذاته ، وبه تتعلق قدرة الله التى لا يحدها حد ، فأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وبين الممكن الذى أخبر القرآن المجيد أنه لن يقع ، لأن هذه هى إرادة الله القادر ..

انتهزها المغرضون فرصة ، بعد أن صادروا عليه ، لرحمه بالكفر وكتابة وثيقة بإهدار دمه .. فلا يبالي السهروردي ، ويختار أن يموت صبراً فى محبسه ممنوعاً عنه الطعام والشراب ، فلما استهول الملك الظاهر وجزع على الرجل من هذا الطريق الذى اختاره ، فوجئ والحاضرون بالسهروردي يقول للملك : «لا عليك .. ان ذلك أقرب إلى طبيعى ، وأصلح لتعبدى . وتهيئى للقاء ربى» !

سمعه القريبون منه يتمتم لنفسه فى مناجاة .. «واشوقاه إلى السرادق القدسي .. ووا أسفاه على العالم العقلى» ! .. وفى محبسه ، كان الحراس يتسامعون من وقت لآخر إنشاد شهيد العشق الإلهي ..

قل لأصحاب رأونى ميّناً	فبكونى إذ رأونى حزنّاً
لا تظنّونى بأنى ميّتٌ	ليس ذا الميّت واللّه أنا
أنا عصفورٌ وهذا قفصى	طرّثُ منه فتخلّى رهنّا
وأنا اليوم أناجى ملا	وأرى الله عياناً بهنا

فَاخْلَعُوا الْأَنْفُسَ عَنْ أَجْسَادِهَا	تَرَوْنَ الْحَقَّ حَقًّا بَيْنَنَا
لَا تَزْعَمُ سَكْرَةُ الْمَوْتِ فَمَا	هِيَ إِلَّا كَانْتِقَالٌ مِنْ هُنَا
مَنْ رَأَى فَلْيَقُوْهُ نَفْسَهُ	إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى قَرْنِ الْفَنَاءِ
وَعَلَيْكُمْ مِنْ كَلَامِي جُمْلَةٌ	فَسَلَامُ اللَّهِ مَدْحٌ وَثَنًا

من تراب الطريق

(٣٨٩) ليس من الإسلام (*)
قتل الأبرياء !

(١)

ما حدث في نجع حمادى عشية عيد الميلاد المجيد ، يدينه الإسلام ويشجبه ولا يقره ولا يسمح به ويعتبره خروجاً عن واحة الدين وما أمر به القرآن الحكيم .. وليس يبرره أو يشفع فيه أن يكون شاب مسيحي - فيما يقال ! - قد اغتصب فتاة مسلمة بإحدى القرى هناك من شهرين .. فجريمة الاغتصاب تلحق بالمغتصب ، وعقوبته مغلظة تصل للمؤبد في القانون الوضعى وتصل إلى الإعدام في شريعة السماء .. ولكن جريرته لا تلحق ولا يجوز أن تلحق بسواه ، لا بأحد من ذوى قرياه ، ولا بأحد من ديانتته أو طائفته أو ملته .. بهذا أمر القرآن الحكيم ..

القرآن الحكيم هو الذى علمنا تفديس الروح الإنسانية .. فى المسلم وفى غير المسلم .. فالكرامة وقدااسة الروح هى لكل بنى الإنسان .. ففى القرآن المجيد : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] سبحانه وتعالى هو الذى ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] .. سبحانه خلق الإنسان فسواه وعدله ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَهُ ۖ

(*) المال ١٣/١/٢٠١٠

أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿ [الروم: ٢٠] .. ويقول جل شأنه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠] هذه الأرواح خلقها الله ، وأمرها له سبحانه وتعالى ، وروح الواحد هي روح الناس جميعا ، وفي القرآن الحكيم يقول رب العزة : ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] ، فهذه الحياة هبة ربانية مقدسة ، لكل إنسان بل وفي الحيوان .. وفي صحيح البخارى ومسلم من حديث رسول القرآن عليه السلام : « ليس من نفسٍ تُقتل ظلما - إلا كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفيل من دمها ، أنه أول من سن القتل » ، وفي الحديث أيضا : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق » . « وأن قتل النفس التى حرم الله - من السبع الموبقات » !

يعلمنا الإسلام ، الذى قدس الروح الإنسانية ، أن قتل الأبرياء - ناهيك بقتلهم غيلة - من أشد الموبقات ، ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ، وعلمنا أن المسئولية فى الدنيا وفى الآخرة لا تلحق بأحد إلا عن فعله هو لا عن فعل أو عمل غيره .. لا مجال فى شرعة الإسلام لأن يتحمل أحد أو يُحمل بوزر أو خطيئة غيره حتى لو كان من أقرب ذوى قرياه .. ففى القرآن الحكيم : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيقَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣] ، وفيه أيضا : ﴿ وَكُلُّهُمْ عِندَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥] .. من مبادئ

المسئولية في شرعة القرآن الحكيم أن لا تترز وازرة وزر أخرى ، فيقول الحكم العدل : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٦ ، فاطر: ١٨] ، وفي سورة النجم ، قال عز من قائل : ﴿أَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿ [النجم: ٣٨ ، ٣٩] .. لا يُمنح الثواب ، ولا يقرر الجزاء ، إلا لقاء العمل الشخصي .. خيرا أو شرا .. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨] .. لا يعرف الإسلام عقوبة تصيب بريئا ، ولا شهادة تجامل قريبا ، أو شنانا يبرر تحاملا .. فالشاهد لا يشهد إلا بالحق ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] ، ولا يبرر له شنان فرد أو جماعة أو قوم أن يحيد في عمله أو سلوكه أو شهادته عن العدل أو الحق ، فإنصاف الشانئ نفسه واجب ، ولا يسقط شنانه واجب العدل والتزام الحق معه ، بل يجب على المسلم أن يعدل معه في كل الأحوال ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] .

فالله سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩] ، وهو سبحانه الذي أمر رسوله بأن يبلغ الناس رسالة ربه بأنه عز وجل ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] ، وأنه تعالت حكمته : لا يقبل الظلم لأحد ، مسلما كان أو غير مسلم ، ويقول في كتابه المبين : ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] .

من تراب الطريق

(٣٩٠) ليس من الإسلام (*)
قتل الأبرياء !

(٢)

الذين حصدوا حصدا عشوائيا - أرواح الإخوة الأقباط الخارجين من
الدير وفي موقعين تجاريين في نجع حمادى ، قد ارتكبوا إثما كبيرا وأتوا أمرا
إدّا تشجبه وتدينه شريعة الإسلام ، ويخرج عن مبادئ وأحكام وعقيدة
هذا الدين الذى كرم الروح ورعاها في كل مخلوق حتى في عالم الطير
والحيوان .. وفي الحديث : « من قتل عصفورا عبثا عجز إلى الله يوم القيامة
يقول : يارب ، إن فلانا قتلنى عبثا » !!

إن قتل الأبرياء بغير حق ، لا يتفق والدين ، ولا يصحح خطأ ، ولا
يسمى غليلا .. الجانى المتهم باغتيال عرض الطفلة واغتصابها ، لا يزال
حيّا يرزق ، ينتظر حكم القانون .. والذين اغتالوا الأرواح البريئة ،
وأدموا الشكالى والأرامل والأطفال الذين يتموا ، لم ينجزوا بجريمتهم
النكراء عملا ، ولا أقروا عدلا ، ولا حققوا غاية يقرها العقل والعقلاء ..
الشيء الوحيد الذى أنجزوه ، هو بث الاحتقان وإشعال النيران على
غير حجة أو منطق !!! من الحمق أن يدفع الأبرياء ثمن جرم لم يرتكبه ، ومن
العماء الضرير أن يُحسب خطأ أو جريمة فرد على أبرياء لمحض الاتفاق

(*) المال ٢٠١٠/١/١٤

فى الدين .. تُرى ماذا كان الثائرون فاعلين لو كان الجانى الذى اغتصب
الطفلة المسلمة - مسلماً؟! هل سيحملون الأسلحة ليعملوا القتل
والاغتيال فى المسلمين ، وماذا لو وقع اغتصاب من مسلم على مسيحية ،
هل تقبل سنن الحق والعدل ويقبل العقل أن يشرع المسيحيون الأسلحة
لقتل المسلمين لأن واحداً منهم جمع وأخطأ واركب إثماً كبيراً هو الذى
يجب أن يحمل جريرته فى الدنيا والآخرة!!؟

لا معنى لهذه الجريمة البشعة يمكن أن يقره عقل ، ناهيك بالدين
وأحكامه .. فهذا العمل الضريع لا ينطلق إلا من مجرد اختلاف ديانة
الجانى والمجنى عليها ، وهو أمر حدث وسيظل يحدث ما بقى الشر
والخطيئة عالقين بالآدمى .. أيا كانت ديانتته وديانة المجنى عليها .. وليس
من الحق ولا من العدل ولا من العقل أن تحمل طائفة بأسرها ، مسلمة
كانت أو مسيحية ، مغبة جانح خرج على شريعة دينه ذاته حين استباح
عرضاً لطفلة بغير حق .. خطأ الجانى جنوح شخصى ، لا هو خطأ دينه
ولا هو خطأ الطائفة التى ينتمى إليها أو يحسب عليها !

هل معنى اختلاف الدين تبادل العداء على غير حجة أو منطق أو
عقل؟! والقرآن المجيد هو الذى قال : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] .. وفى القرآن دلالة على الأصل
الواحد لجميع الأديان ، يقول الحق جل وعلا : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِنَّا لَمُخْلِطِينَ وَإِنَّا لَمُتَّبِعِينَ وَمَا أَوْفَى
مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْفَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ ﴿ [البقرة: ١٣٦] .. والقرآن الحكيم هو الذي جرت آياته على ما يحفظ العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، فقال تعالت حكمته :

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَهِيمَ فَقَدْ حِطَّ حِطَّةً عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥] .. أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها ويبقى هو على دينه ، لها كل ما للزوجة المسلمة من حقوق سواء بسواء .. ولم يتحدث كتاب عن السيد المسيح عليه السلام بمثل الحديث البليغ الرائع الذي ورد في القرآن : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٥٥ ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] .. والقرآن المجيد هو الذي خص النصارى بإشارة خاصة لما بينهم وبين الإسلام والمسلمين من مودة ورحمة فقال تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَرُفَعَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢ ﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ [المائدة: ٨٢، ٨٣] .

والإسلام منحوت اسمه من لفظ السلام ، وتحيته هى السلام ،
والسلام مهجة وروح الإسلام ، تحية الله للمؤمنين تحية سلام : ﴿يَحْيَتُهُمْ
يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤] ، ومستقر الصالحين
- دار أمن وسلام : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] .. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] ..
والأمن والأمان هما غاية الإسلام .

من أميز ما فى الإسلام ، أن جميع المبادئ والأحكام التى قررها تصب
فى آليات تحقيق الأمن والأمان المجتمعى التى يحرص عليها الإسلام ،
لأمان الإنسان - كل إنسان - على روحه ونفسه وعرضه وماله ، فهذا
الأمان هو مهجة وعمود وغاية كل المبادئ والقواعد والأحكام الإسلامية ..
وليس أجزى للإنسان ، وأمان مجتمعه ، من دين يطوى الناس جميعا فى
أسرة إنسانية واحدة ينعم فيها الكل بالأمان ، ولا تفاضل فيما بين أفرادها
إلا بالتقوى والعمل الصالح .. وصدق تبارك وتعالى إذ قال فى كتابه
المبين : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] .

من تراب الطريق

(٣٩١) احترام الموت! (*)

ما من إنسان إلا ويخشى الموت ، ويخاف لحظة النهاية ، ويعمل لها ألف حساب .. إن شغلته الدنيا وحظوظها أو همومها عن الموت ، لفته إليه رحيل الأحباب ، أو ذكرته به صفحة الوفيات ، فإن هرب منها استدعاه الخطاب الدينى بما يحمله من نذير إلى جوار البشارة .. فإن رزق نعمة العقل والتأمل ، وجد الموت رفيقاً حاضراً يعظه بما تعجز عنه الكتب والحادثات .. شخصياً صدمنى الموت برحيل الأحباب .. الأب والأم والأخ والأخت .. والعم والخال .. وأولاد العمومة والخؤولة .. فضلاً عن قطار الأصدقاء الذى يتوالى بين فترة وأخرى فراق واحدٍ منه ، إن لم يكن بالموت ، فربما بالجحود أو النكران أو الخيانة .. وهى أنواع من الفراق يغدو الموت أرفق بنا منها ، لأنه على الأقل لا يحرمنا من أنس الذكرى ويحفظ لنا صفحات الذكريات معطرة بما تخللها من أريج المحبة والإخلاص والوفاء ..

تعلمت أنه لا بد من التسليم بما ليس منه بد ، وجعلت أحاول استقبال الموت بما يجب من التسليم مادام هو نهاية كل حى ، بل ومنه تولد الحياة .. ومع ذلك يبقى الخوف من المجهول ناشباً يظهر من وقت لآخر فى

(*) المال ٢٠١٠ / ١ / ١٨

حنايا القلب الواجه الذى لا تغره الدنيا مهما علا صخبها عن انتظار لحظة الرحيل .. ربما ساهمت أحوال المدافن المصرية المبعثرة فى أطراف القرى أو بين أحياء المدن فى إضفاء المزيد من الرهبة .. تعلمت بالمجاهدة ورياضة النفس أن أزيلها بإحلال الرضا والتسليم محلها .. وهىء لى أن أبني مدفنًا - وقد فعلت - يسهم برواء مبناه - على خلاف ما اعتدناه ! - فى إزالة أو تخفيف هذا الحاجز النفسى الذى يفصل بيننا وبين الموت ومفارقة الحياة الدنيا إلى غير رجعة .. ظللت أتابع البناء الذى شد كثيرين من رواد المقابر فى ٦ أكتوبر ، وجعل بعض الأصدقاء الذين زاروه معى أو طالعوا صورهم - يداعبوننى بأنه : «يردّ الروح» !

حضرت لحظة احتضار أبى رحمه الله رحمة واسعة ، وكان أول مشهد أراه للاحتضار ، فلفتنى فى جزعى الشديد أنه تلقى الموت فى رضا وتسليم ، متبها إلى أنه يموت ، يوصى أمى فى الخفقة السابقة على صعود روحه إلى بارئها بعمتى التى كانت تعيش معنا منذ تنكر الزوج الذى أعطته عمرها ومالها ، فأبى والذى رحمه الله أن تعود إلى بيت أبيها ، فبقيت معنا أمّا ثانية تعيش وأمى - رحمهما الله - متآخيتين متحابتين .. طالما عدت لأتأمل طويلاً فى لحظة هذا الاحتضار والسكينة التى رأيتها على وجه أبى ، وملامح ابتسامة رضا وتسليم لم تفارق محياه .. أخذه الموت بالأزمة القلبية فى لحظة لم تسمح بما جرى عليه الناس من محاولة صدّ الموت وإعاقة سبيله بكل وسيلة وحيلة !

قرأت هذا الأسبوع للدكتور محمد المخزنجى مقالاً فى الشروق بعنوان «الحكمة قبل التحكيم فى طب المنصورة» . أريد أن أدخل معك مباشرة إلى الموضوع الذى فتحه الطبيب الأديب المفكر فى ثقة وعلم وإيمان ، أن ما يشغله هو تأليف مرجع يكاد يكون فريضة غائبة فى دراسة وممارسة الطب فى مصر ، ويتعلق بموضوع العناية الجسدية والنفسية والروحية بالمرضى فى المراحل المتأخرة التى تتضمن الاحتضار والموت ، بالإضافة إلى دعم المحيطين بهم فى مواجهة المشاق النفسية والجسدية فى هذه الرحلة الأليمة ..

رأيت شيئاً كثيراً من هذا فيما سبق رحيل شقيقتى - يرحمها الله - التى فارقت دنيانا فى أكتوبر الماضى بعد رحلة قاربت عامين .. عانت فيها وعانينا كلنا معها - تغول السرطان وخبث حركته المدمرة المتقلبة بين أعضاء وأحشاء البدن ، وتعلقنا ونحن نخفى عنها حقيقة ما بها - تعلقنا بالأمل وبلطف ورحمة الله ، كانت شهوراً عصيبة عانتها جاهدنا معها فيها وقاومنا استشرى المرض الخبيث بكل السبل .. لم يكن ذلك معاندة لإرادة الله ، وإنما تخفيفاً بقدر ما يمنحه الطب من علاج .. لكن هذا العلاج الطبيعى شىء ، والإجراءات الطبية التى يصفها الدكتور المخزنجى «بالمتعسفة» - شىء آخر .. إن الموت هو خادم للحياة فى توالى أجيالها ، ونحن أحياناً - فيما أبدى فى مقاله الرائع - نعمن فى إذلال الحياة بوسائل متعسفة نتصور أنها تدافع عن الحياة وتوقف زحف الموت الذى حان أوانه .. يروى لنا الدكتور المخزنجى تجربة شخصية له مع أمه احترم فيها جلال الاحتضار حتى وافتها المنيّة مقرونة بالراحة والسكينة ، ويتوقف فى المقابل عاتباً على الإجراءات المؤلمة التى تلقاها الأستاذ نجيب

محفوظ تحت عنوان مقاومة الجوع ومضاعفاته بعد أن عاف الرجل الطعام والشراب ، ودخل مرحلة نورانية يضيق فيها بما يُفرض عليه من أوجاع جلسات التدليك العنيف وهو يصيح بمرمضيه : «أرجوكم سيونى بقى .. انتو بتعملوا فى كده ليه ؟!» .

لا يعترض الدكتور المخزنجى على العناية بل والعناية الفائقة بالمريض . وإنما أراد أن يقول إن الوسائل الميكانيكية تكاد تكون بلا معنى ولا فائدة لروح نورانية أعلنت أنها أكملت حياة الحب التى عاشتها بـ «حب الموت» الذى أشرفت عليه بلا رفض أو معاندة ..! تطيب الاحتضار واحترام الموت ، ليس أقل أهمية من تطيب الحياة .. وهذا يستحضر وجوب الالتفات إلى معرفة كيف يموت الناس فى كل حالة مرضية بعينها ، ووضع بروتوكول طبي وخبرة فى تناول المتخصصين والمحيطين - تقى المحتضر من عذاب لا مبرر ولا معنى له ، ويمنحه مساحة سلام تتيح له الإحساس بمحبة من يحبه ويحبونه ، وتؤهله لدواع الدنيا فى ارتياح ورضا وتسليم .. هكذا أحب أنا أن أفارق حين تحين ساعتى ، لا أرهق الجسد ، ولا أرهق من حولى بمعاندة سنن الحياة ، فجلال الموت يقتضى أن نقدم بين يديه الاحترام ، وأن نتقبله راضين بأكثر مما أقبلنا على الحياة الدنيا .. قد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الموت ابتلاء واختباراً كم جعل الحياة امتحاناً ، بل ذكر الموت قبل أن يذكر الحياة ، فبقول الوارث الباقي فى قرآنه المبين : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾﴾ [المالك : ١ ، ٢] .

من تراب الطريق

(٣٩٢) الدين محبة (*)

الدين الذى أعنيه ، هو كل دين ، إسلاما كان أو مسيحية أو يهودية .. لم تنزل الأديان لبذر العداوة أو الكراهية أو الشقاق بين الناس .. الأديان دعوة ربانية للإخاء والمحبة ، والإخلاص والود والوفاء والرحمة .. فالإنسانية أسرة واحدة ، تنتمى إلى جذور واحدة ، وإلى أصل واحد .. وتدين كلها مهما اختلفت أديانها إلى رب واحد هو رب العالمين ..

تنتمى الإنسانية إلى نفس واحدة خلقها الله تعالى وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. وفى خطاب موجه إلى الناس كافة ، لا إلى أبناء دين بعينه ، يقول القرآن المجيد : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ويقول عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] .

يلتقى السلام والمحبة فى رسم صلة الإنسان فى الإسلام بأخيه الإنسان .. فلفظ «السلام» هو تحية الإسلام ، ولفظ الإسلام ذاته : عنوان الدين ، منحوت من مادة «السلام» ، لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير

(*) المال ١٩ / ١ / ٢٠١٠

الأمن والطمأنينة والسكينة لبنى الإنسان .. فرسول القرآن عليه السلام :
«رحمة مهداة» .. وهو آخر عناقيد شجرة الأنبياء والرسل الذين بعثهم
الله تعالى هدية من السماء إلى العالمين .. وبذلك أرسل صفيه محمداً عليه
السلام ، فيقول له الحق عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
[الأنبياء: ١٠٧] .. وكان عليه السلام يقول للناس : «إن الله تعالى جعل
السلام تحية لأمتنا» .. ويقول : «السلام قبل الكلام» ..

المحبة هى الجسر الذى يؤلف بين القلوب ، ويفشى السلام ، ويطهر
النفوس من أدران الحقد وأسباب البغضاء والعداوة .. لا إيمان بلا محبة ،
ولا محبة بلا تآلف ومودة .. وفى حديث رسول القرآن عليه السلام : «لا
تؤمنوا حتى تحابوا .. ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ ، أفشوا
السلام بينكم» ..

وفى الحديث الشريف : «إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ،
يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من الله تعالى . قالوا : يا
رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام
بينهم ، ولا أموال يتعاطونها . فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور
.. لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» .. لذلك كان
المؤمن آلف ومألوف ، ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف . وقيل أيضاً :
«ما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ، وما خرج من شىء إلا شانه» ، «إن الله
- سبحانه وتعالى - رفيق يحب الرفق فى الأمر كله» ..

لم تنزل الأديان السماوية لبث العداوة والكراهية ، وإنما لإيمان وهداية

الناس .. والإيمان معرفة بالله وثقة به ويقين فيه سبحانه ، ومحبة وعطاء ومنفعة للناس .. لا يوجد في الأديان أسباب ولا حض أو تحريض على الكراهية والعداء .. فالمصالح والأهواء والمآرب والعداوات صناعة آدمية ، وليست ولا يمكن أن تكون دعوة إلهية ..

وكما رأينا دعوة الإسلام للإخاء والمحبة ، نرى ذلك حاضرا أيضا في المسيحية : ديانة المحبة .. كان مجد المسيحية الحقيقي الهداية والمحبة ، دعت وتدعو إلى ملكوت السماء في الضمير والوجدان ، ويقول السيد المسيح عليه السلام للناس : «لن تربح شيئا إذا كسبت كل شيء وخسرت نفسك» !.. لا تبال هداية المسيح بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن ضميره .. مجده الحقيقي هذه الدعوة الهادية إلى نقاء السريرة ، وإشاعة المحبة .. من على الجبل يلقي عليه السلام موعظته إلى جموع الناس فيقول لهم : «طوبى للمساكين بالروح ، فإن لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحرزاني ، فإنهم سيعززون . طوبى للودعاء ، فإنهم سيرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، فإنهم سيشبعون . طوبى للرحماء ، فإنهم سيرحمون . طوبى لأنقياء القلب ، فإنهم سيرون الله . طوبى لصانعي السلام ، فإنهم سيدعون «أبناء الله» . طوبى للمضطهدين من أجل البر ، فإن لهم ملكوت السماوات . طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم ، وقالوا فيكم من أجل كل سوء كاذبين . افرحوا وتهللوا ، فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة . فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم» ! (متى ٥ : ٣-١٢) .

مثلاً يقرأ المسلم فى القرآن المجيد، قول الحق جل وعلا : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٢٤] ، فإن المسيح يقرأ من موعظة السيد المسيح على الجبل : «سمعتم أنه قيل للأقدمين : لا تخالف قسمك .. أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا أبداً» (متى ٥ : ٣٤ ، ٣٥) .. «وسمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم ، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطغهدونكم» (متى ٥ : ٤٣ - ٤٥) .. يمضى المسيح فى قراءة الأناجيل فىرى فيما يراه قول السيد المسيح عليه السلام : «لا تدينوا لثلاث تدانوا . فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم » (متى ٧ : ١ - ٣) .. هذه الباحة الإنسانية الفياضة المعطرة بالمحبة والود والتسامح والإخاء ، تقيم جسور المودة بين المسيحى وبين غيره من أبناء الديانات .. هذه المودة التى تحدث عنها القرآن المجيد ، وبذها النجاشى ونصارى الحبشة للمسلمين ، حتى حزن نبي القرآن عليه السلام حزنا شديدا حينما بلغته وفاة النجاشى عرفانا بما قدمه للمهاجرين من كرم الضيافة وصدق المودة وعطر المحبات .. وكما لا يوجد فى الإسلام دعاوى للإثم والعدوان ، فإنه لا يوجد بمدونات المسيحية ، لا فى الأناجيل ، ولا فى الرسائل الملحقة بالعهد الجديد ، ما يورى بعداوة مضمرة للأغيار ، ولا حض على كراهة أو مقت أو عدا .. العداوات صناعة آدمية ، أما الأديان والمدونات المقدسة فتفيض بعطر المحبة والإخاء .

من تراب الطريق

من تانى : الى عاوزه البيت (*) يحرم على الجامع !

من الأمثال السيارة التى تملأ حياة الناس ، فى الريف والحضر فى بر مصر ، المثل السائر : «الى عاوزه البيت ، يحرم على الجامع» ! تذكرت هذا المثل وأنا أتابع قضية تصدير الغاز المصرى إلى إسرائيل وبأبخس الأثمان ، وتابعت القضية الوطنية الشريفة التى قادها السفير السابق - المحامى الحالى - إبراهيم يسرى ، وأدهشتنى الحرب المضادة والحملة الغشوم التى شنت على الرجل رغم «وطنية» قضيته ، واستقامة مقاصده ، وضربه مثلاً رشيداً لدعوى «الحسبة» التى ضلت ضلالاً بعيداً فى ممارسات البعض ، دون أن تتحرك آليات الإدارة لمواجهتها مواجهة فعالة ، مع أن المشرع قام بما عليه ، وأصدر القانون رقم ٣ لسنة ١٩٩٦ ، ثم القانون رقم ٨١ لسنة ١٩٩٦ !

كان العجيب المدهش ، ولا يزال ، أن الإدارة المصرية لفظت فى عنجهية حلاً قضائياً جاء بحكم يعفيها من مغبة الرجوع فى اتفاق طائش جرى .. أبسط ما يقال عنه أنه كان بلا تفتن للمصالح المصرية وحقوق ومقتضيات الأمن القومى .. وأبت إلا الطعن فى الحكم الذى صدر فى الواقع لصالحها الذى تراه كل رؤية بصيرة متبصرة ، وقرنت الطعن بشن

(*) المال ٢٠/١/٢٠١٠

حملة ضروس على السفير السابق الذى مثل مصر فى العديد من الدول الكبرى ، فلم يشفع له سجله المشرف الوضاء ، ولا شفعت له سلامة ونظافة وطهارة وسواء مقاصده ..

يُحمد لهذا السفير المحامى الفارس ، أنه لم يهن ، ولم يضعف ، ولم يتردد .. أتابع فى إعجاب وتقدير إصراره على المضي فى دعواه التى يبدو أن القضاء فى النهاية سينصفه وينصف مصر فيها .. ولكن الأدهى والغريب أن الإدارة المصرية لا تريد أن تنصف نفسها ، وتأبى إلا اللجاجة واستمرار المضي فيما فرط منها ، ثم يكشف الغطاء عن أمرين خطيرين تسرب أمرهما تباعا عن طريق بعض الصحف الخاصة أو المعارضة ، حين فاح أن كميات الغاز المصرى التى يتم تصديرها إلى إسرائيل فى طريقها للزيادة بنسبة ٥٠٪ خلال الأشهر القليلة القادمة عبر مجموعة من الإجراءات التى تتبعها شركة غاز شرق المتوسط E.M.G المسئولة عن توصيل الغاز إلى إسرائيل ، وتهدف إلى زيادة كميات الغاز المصدرة إلى إسرائيل تدريجيا خلال السنوات القادمة ! حيث كشفت مصادر عن أن محطة ضخ الغاز بقرية «الشلاق» التابعة لمدينة الشيخ زويد الحدودية ، والتى تتولى ضخ الغاز المصرى إلى محطة مائثة - بمدينة «عسقلان» الفلسطينية الواقعة - الآن ! - تحت الاحتلال الإسرائيلى الاستيطانى ، قد خضعت - أى محطة الضخ المصرية - لعملية تطوير موسعة خلال الأشهر الماضية ، لزيادة قدرة خط التصدير الحالى بنسبة ٥٠٪ عن طريق إضافة توربينة ضخ جديدة للمحطة ، فضلا عن رفع قدرة وحدة الضخ بالكامل !

والطامة الثانية ، أنه مع تسرب هذه الأنباء وما أكدته المصادر عن أنه من المقرر انتهاء عملية التطوير بحلول شهر يوليو ٢٠١٠ للبدء في زيادة كميات الغاز المصدر إلى إسرائيل ، تتسرب أنباء عن أن الإدارة المصرية في سبيلها «لاستيراد الغاز» لزوم الاحتياجات المصرية من الخارج .. ولدى الصدمة الأولى - أعنى صدمة نفشى الخبر على غير ترتيب سابق - كان الإنكار هوردة الفعل الأولى ، مضت أياما قبل أن تستفيق الإدارة إلى أنه لا رجاء في إنكار ما لا معنى لإنكاره .. لأنه إن لم يتفش اليوم فسوف يذيع خبره باكر في الدنيا بأسرها ، إن لم يكن من خلال عاملينا وصحافتنا ، فمن خلال المصادر الخارجية التى ستلبى احتياجاتنا من الغاز الذى نصدره - بلا عقل ولا منطق - إلى إسرائيل ، ويضمن بخس ، ثم نستدير لنستجدى استيراده من العالمين !!!

ما معنى هذا ، وما معنى «الإصرار» الذى أعلنه السيد وزير البترول على المضى فى هذين فى النقيضين المتعارضين المتهاجرين : أن نصدر الغاز المصرى إلى إسرائيل ، ويضمن بخس يقل كثيرا عن الأسعار العالمية ، ثم نرتد لنمد أيدينا إلى العالم طالبين إليه أن ينعم علينا بتصدير الغاز إلينا - وبداهة بالسعر العالمى - لأن إنتاجنا من الغاز ، بعد ما صدرناه ونصدره إلى إسرائيل ، لا يكفينا أو لم يعد يكفينا ؟!

لا أريد ولا يتسع المجال للحديث عما تَحْمَلُهُ تشغيل محطات الكهرباء المصرية من أعباء كبيرة نتيجة تصدير الغاز المصرى إلى إسرائيل ، ولا للحديث عن التعلات المطروحة للاستيراد وأسعاره ، سواء من العراق

التي لم تجاوب ، أو لا تستطيع ، أو من قطر التي تمر علاقتها بمصر
بأسوأ مراحلها .. وربما تناولت هذا تفصيلا في وقت لاحق ، ولكن ما
أريد أن أقوله إن هذه القضية أبعد غورًا من أن تُترك للتصرف خارج
دائرة مقتضيات الأمن القومي والمصالح العليا للبلاد .. وظنى أن هذه
الاعتبارات أبعد كثيرا من رؤية واختصاص قطاع البترول : العام
والخاص !!

من تراب الطريق

(٣٩٤) اللغة والحياة ! (*)

يبدو أن الوظيفة الأولى والأخيرة لأية لغة ، هى أن تنقل ألفاظها وتراكيبها المصطلح عليها معانى الأفعال والأشياء حسب سياقها - إلى من يستعملونها عادة أو أحياناً .. وليس يلزم أن يكون المعين المتواضع عليه - صحيحاً فى ذاته ، أو موجوداً فى الواقع .. إذ يكفى أن يكون كذلك فى المحيط .. فإن كانت الألفاظ والتراكيب لا تحمل معنى محدداً معيناً معهوداً عند الناس ، فإنها تكون تجميعاً لأحرف وأصوات من أجل أغراض آخر غير غرض النقل والبيان والتعريف الذى هو عمل اللغة .. إذ لا سبيل مهما تكن الألفاظ والتراكيب فى الأصل منتسبة إلى اللغة - لا سبيل لأن تكون صالحة لضبط وتحديد أى معنى لغوى ، لا عند من يستعملها ، ولا عند من يخاطب بلسان هذه اللغة .. وذلك لتخلف وجود شىء فى حياة الناس العادية يمكن أن تتحدث عنه بالفعل تلك الألفاظ والتراكيب .

ولكن آدميين عرفوا من قديم الحيل البلاغية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية وغيرها لتقوية إحساس السامع أو القارئ بمراد المتحدث به ، وترحيب السامع أو القارئ العادى بما يستحسنه من تلك

(*) المال ٢١/١/٢٠١٠

المحسنات البيانية في النثر أو في الشعر ، التي جرى انتنافس عليها في عصور غير قليلة .

كذلك استعملوا ألفاظ اللغة وتراكيبها في عرض وتسجيل الفروض الفكرية الصرف والنظريات المبنية عليها .. وقد أقام الحكماء والفلاسفة المذاهب والمدارس ، وتابعهم تلاميذهم ، في الاشتغال بأصل العالم والطبيعة والكون والفساد والجوهر والعرض والأزلى والفانى والكامل والناقص إلى غير ذلك مما لا سبيل إلى مواقته وإمكان ضبط صحة النظرية فيه .. وذلك لأن استعمال اللغة رسم محض الأفكار والتصورات والفروض والنظريات والمذاهب المتعلقة بها ينطوي دائما على تجاوز لوظيفتها ، وهو يعطى كل مفكر حرية التصرف في ألفاظها وتراكيبها .. وابتداع المسميات والاصطلاحات والفروق والأصول والفروع - بغير مقيد . ولم يعترض سواد الناس على هذه المجازفات ، لأنها ابتداء وانتهاء لم تمس مصالحهم مباشرة ، ولم تزد أو تنقص حياتهم شيئا واعتبروها من خصائص أهل الحكمة والعلم وحدهم يداولونها فيما بينهم فقط ولا شأن لها بعموم الخلق .

وللحد من الخلط والخطب والاضطراب ، وضع فولتير المعجم الفلسفي ، ووضع بعده العديد من المعاجم الفلسفية في فرنسا وغيرها ، وفعل ذلك أستاذ الفلسفة المصرية الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى ، فصنف بمفرده معجما كبيرا للفلسفة .. على أن هذا العمل ظل مقصورا على الفلاسفة والأساتذة الكبار ، ولم يتحرك خلق الله العاديون لوضع

شئ من ذلك إيجاباً أو سلباً .. وقد وضعت في أيامنا معاجم متنوعة للعلوم والفنون والتجارة والقانون والسياسة - لضبط مصطلحات هذه الفروع لدى المشتغلين بها أو القارئ لكتبها ومؤلفاتها ونشراتها .

ومن النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، بدأت عملية جمهرة الثقافة والمعرفة في الانتشار ، وبدأت أعداد غير قليلة تلوك ألفتها العديد من مصطلحات وعبارات الفلسفة والعلوم والفنون والقانون والصناعة والسياسة والآداب والمسرح وغيرها .. ونتيجة انتشار التعليم العام والخاص والثورة الصناعية والتطور الهائل في وسائل الاتصال والنقل - نتيجة لذلك انتشرت الصحف والصحافة في كل مكان ، وكثرت وازدهرت دور الطباعة والنشر ، والإقليمية والدولية ، وأصبح عميلها الرئيسى الفعلى من سواد الناس العاديين ، وليس فقط من المتخصصين وأشباه المتخصصين .. ودخلت مع هذا التغيير الجسيم - عبارات ومصطلحات الفلسفة والعلوم والفنون وغيرها ، بغير ضابط أو رابط في اللغة الجارية ، وأفسدت ما في لغة الآدمى العادى من فطنة وبقظة عبر مرور الأجيال وتتابع الحظوظ المختلفة .. واعتاد الجمهور هذا التجديد سماعاً واستعمالاً - دون اعتراض أو احتياط . بل وبنى على أساسها صيغ مذاهبه السياسية والاجتماعية ، ورددتها مراكز وفروع الأحزاب والطوائف والجماعات والجمعيات ، وقامت وقعدت بها صحافتها ونشراتها وصراعاتها وتطاحناتها على مقاعد المجالس النيابية وكراسى السلطة والحكم !

والمهم أن دليل ثقافة المتحدث أو الكاتب في بلاد الغرب والبلاد التى

تأثرت بها - يأتي أو يستعمل في معالجة ما يتصدى لمعالجته من شئون الدنيا - بوفرة من تلك العبارات والمصطلحات ، ويجعلها من المحاور الرئيسية لمنطقه الأنيق المزود بالأسانيد .. غير مبال على الإطلاق بالإبهام والاضطراب اللذين تحملهما تلك الإضافات الفارغة - إلى الموضوع المعين الذي يحاول معالجته . وقد بات هذا التقليد لدى جمهور المستنيرين كما يحلو لهم أن يدعوا أنفسهم - بات نوعا من أفيون اللغة السائدة ، لا سبيل إلى مقاومة الإدمان عليه .. وهذا المخدر الخطير يزداد انتشارا بين جمهور القارئ والكاتبين في بلاد الشرق الأدنى .. تلمسه واضحا في أحاديثهم ومقالاتهم وكتبهم ، وتراه واضحا فيما يردده عن هؤلاء - الناقلون عنهم .. لا تشهد عين العاقل العادى الطبيعى لديهم في أية مشكلة حقيقية فعلية تواجههم بكل صرامتها وصراحتها - إلا الحرص الشديد من جانبهم على إبعاد ما هو جوهرى ، بل ما هو صلب وعصب المشكلة إلى أقصى حد ، مهما يكن عنيفا حادا أو بشعا مفرضا .. وتقديم ومحاولة تطبيق المصطلحات الباهتة الناقصة المهمة التى لم ولن تتوافر لشرائط انطباقها أو تطبيقها فى أى وقت .. لأن أية مشكلة فعلية منشؤها دائما أو غالبا واقع قديم وواقع عارض ، ولا تعالج إلا بواقع فعلى جاهز لمواجهتها ، إما بإطفاء واقعها العارض الذى هو الشعلة التى ألهبتها ، وإما بعلاج واقعها القديم الذى هو بيت الداء ، وإما محاولة علاجها بالصيغ والاصطلاحات والفصاحات والتمنيات والمأمولات .. فحيلة العاجز لستر عجزه وإخلاء ذمته من تلك المشكلة وأطرافها وما تنتهى إليه إذا لم تلق العلاج الناجع المجدى ممن يملكه ، ومن هو مستعد لتقديمه فى حينه !

من تراب الطريق

(٣٩٥) المرجان! (*)

المرجان عنوان قصيدة طويلة من ستة أحاديث ، للمحامى الفقيه الأديب الشاعر ، محمد عبد الله محمد .. فى ديوانه العارف .. استغرقت من صفحات الديوان ٢٨ ورقة .. وهى ككل أشعاره تفيض حكمةً وتضرب فى الأعماق وتتأمل فى أحوال الإنسان .. تبدأ القصيدة الحديث الأول فيما يبدو أنه لفت لمن تاه به غروره ، وملاً الدنيا صخباً وضجيجاً ، وغره التيه بنفسه حتى ظن أنه يمتلك الدنيا بما يحدثه من تأثير فى النفوس والمهج .. فهل دام له هذا التوهج ، أم غربت شمسهِ وصار عصفه صخباً بلا طحن ولا تأثير ..

يمضى شاعرنا الحكيم محمد عبد الله محمد - يمضى فى القصيدة متابعاً ما تقلب فيه من أحوال ، دون أن يمنعه ما ألم به من اتصاله بحبل الله واللجوء إلى رحابه - فهل بقى على لياذه بواحة الرب ، أم ناداه عناده ليخوض اللجج ويترك كل سبيل دون أن يبلغ الشاطئ الذى يريد ..

لَمْ يَعُدْ عَصْفُكَ إِلَّا صَخْبًا وَرَدَّاذًا مِنْ فَمِ ذِي عَوَجٍ
بعد أن كنت تَهْزُ المَهْجَا بحديثٍ يَنْتَهِي فِي المَهْجِ

(*) المال ٢٧ / ١ / ٢٠١٠

حَامِلُ الْعُمْرِ عَلَى كَاهِلِهِ يُؤْتِرُ الْوَحْدَةَ خَوْفَ الْحَرَجِ
لَزِمَ الشَّطَّ عَلَى خِبْرَتِهِ لَمْ يَعُدْ أَهْلًا لِحَوْضِ اللَّجَجِ

ذَلِكَ الْفَجْرُ جَدِيدٌ دَائِمًا جَدَّةُ الْمَلُودِ عِنْدَ الْمَوْلِدِ
وَيَدُ الْخَلَاقِ مِنْ مَكْمَنِهَا تُوقِظُ الْمَوْعِدَ قَبْلَ الْمَوْعِدِ
عَقْلُكَ الْهَشُّ أَشَاعَ السَّامَا وَلَغَا مَا شَاءَ حَوْلَ الْمَقْصِدِ
يَرْقُبُ الْإِبْدَاعَ فِي مَغْرِبِهِ وَبَحُورَ الْوَهْمِ مِلْءُ الْمَوْقِدِ

طَالَ يَا رِيحُ مُرُورُ السُّحْبِ أَمْطَرْتَ أَرْضًا وَجَارَتْ غَيْرَهَا
وَالْتِ جَارَتْ شَكَّتْ أَبْيَضَهَا وَالتِ جَادَتْ بَكَتْ أَخْضَرَهَا
غَلَطَةُ الرِّيحِ وَكَمْ تَفْعَلُهَا حَيْرَ الرِّيحِ الَّذِي سَيَّرَهَا
أَيُّهَا الْمُحْتَارُ فِي حِكْمَتِهِ غَلَبَ الْحَيَزةَ مِنْ صَابِرَهَا

ذَاكَ فِعْلُ الرَّبِّ لَا فِعْلِي أَنَا قَدْ تَنَبَّهْتَ لِحِلْمِ الْحَالِمِ
لَمْ تَعُدْ نَفْسِي حَوَالِي وَفِي دَاخِلِي تَمَلَّا شُقُوقَ الْعَالَمِ
أَشْهَدُ الدُّنْيَا وَلَنْ أُمْلِكَهَا عَرَفَ الْقِصَّةَ فَهَمُّ الْفَاهِمِ
وَأَنَا بِالْوَدِّ لَوْ أَمْنَحُ أَخَذِمُ الْقِصَّةَ - طَوَعَ النَّاظِمِ

ذلك المشلول صَلَّى الْمَغْرِبَا قَبْلَ إِطْبَاقِ الظَّلَامِ الْحَالِكِ
وَجَّهَ الْحَمْدَ إِلَى اللَّهِ بِلَا آهَةِ الْعُنْبَى وَيَأْسِ الْهَالِكِ
مَا اسْتَطَاعَ الْعَجْزُ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ أَدَاءِ الْحَقِّ نَحْوَ الْمَالِكِ
ذَلِكَ الْمَشْلُوقُ فِي وَحْدَتِهِ عَانَقَ الرَّحْمَنَ قَبْلَ النَّاسِكِ

يَا شُجَاعَ الْوُدِّ لَا يَحْذُلُهُ كَمْ يَذِلُّ الْعَقْلُ فِي الْوُدِّ الذَّلِيلِ
أَنْتَ أُعْطِيتَ الَّذِي تَمْلِكُهُ أَيُّهَا الْمُعْطَى كَثِيرًا مِنْ قَلِيلِ
رُبَّمَا لَأَمَلَكَ شَيْخٌ لَسِنْ يَنْتَقِي الرَّدَّ وَيَخْتَارُ الدَّلِيلِ
لَمْ تَذُقْ طَعْمَ الرِّضَا مَهْجَتُهُ فَهُوَ يِعْتَاضُ بَدِيلًا بِبَدِيلِ

انْتَقَى دَوْرًا لَهُ يَلْعَبُهُ بَعْنَادٍ قَدَعَى ذَا خُلُقٍ !
يَقْطَعُ الْعُمَرَ عَلَيْهِ دَرَقٌ كَالسَّلْحَةِ مَشَتْ فِي دَرَقِ
لَمْ يَطْرُ شَوْقًا مَعَ الْمُنْطَلِقِ أَوْ يُطْرَفُ فِي طَيُوفِ الْغَسَقِ
يَحْسَبُ الْحِكْمَةَ رِسْمَ الطَّرِيقِ وَيَظُنُّ الرَّبَّ إِحْدَى الطَّرِيقِ

مَا الَّذِي يَجْرِي بِهَذَا الْمَسْرِحِ ذَلِكَ الْقَتْلُ وَذَاكَ الْفَزَعُ
السَّمَاءُ تَجْمَدُ عَيْنَاهَا فَلَا يَرْتَقِي فِيهَا أَسَى أَوْ جَزَعُ
وَكَأَنَّ الْحُزْنَ لَا يُحْزِنُهَا وَكَأَنَّ الْأَرْضَ لَا تَصْطَرِعُ
وَكَأَنَّ الْخَلْقَ فِي مَسْرِحِهَا لِلْمُعَانَاةِ عَلَيْهَا مُجْمَعُوا

لا تُبَالِغْ فِي اصْطِنَاعِ الْقِسْوَةِ لَنْ تَزِيدَ الْبَحْرَ مِلْحًا وَعَوَاصِفُ
 تَحْطِمُ الْأَمْوَاجُ فِي غِلْظَتِهَا قَامَةِ الْجَبَّارِ مَسْلُوبِ الْعَوَاطِفُ
 حَاجَةُ الْخَلْقِ لِمَنْ يَرْحُمُهَا لَيْدٌ مُدَّتْ لِمَحْزُونٍ وَخَائِفُ
 وَصَبُورٍ لَيْسَ يَبْرَى صَبْرُهُ قُدْرَةُ الْعَقْلِ عَلَى خَلْقِ الْمَخَافِ !!

لَمْ يَعُدْ يَنْبُحُ جُرْحُ نَابِحٍ أَسْكَتَ الْكَبْتُ صِيَاحَ الْأَلَمِ
 أَيُّهَا الْمُرْتَاخُ فِي خَلْوَتِهِ مَمَّ تَسْتَغْفِرُ يَا ذَا النَّدَمِ ؟
 فَاتَكَ الْعَطْفُ وَلَنْ تُنْمَحَهُ بَقِيَامٍ فِي الدَّجَى أَوْ كَلِمِ
 ذَلِكَ الْعَطْفُ الَّذِي تُهْمِلُهُ هُوَ قَلْبُ الدِّينِ عِنْدَ الْفَهْمِ

من تراب (٣٩٦) ماذا بات يجرى فى مصر! (*) الطريق

من المفزع أن يكون حصاد الحوادث فى بر مصر ، فى يوم واحد ، هذا الحصاد الهائل المؤسف الذى طالعه فى صفحة واحدة لجريدة الوفد ١٩ يناير الجارى .. سائق يقتل شقيقه وطفليه ويصيب الابن الثالث بالرصاص ، لماذا : لأن شقيقه المجنى عليه أشعل غضبه بهدم سلم ؟! .. انتحار زوجة بإلقاء نفسها من الطابق الثامن لخلافات زوجية ، لتسقط من شاهق جثة هامة ! .. سجن طالبتين لعشر سنوات لفضهما بالقوة - بآلة حادة - مع التعذيب ، غشاء بكارة تلميذة بالإعدادى عمرها (١٠) سنوات ! .. نجار يطعن صديقه الحداد بمطواة بجرح نافذ فى الصدر وآخر أسفل الإبط لأنه عاكس شقيقته ! .. طبيب أسنان يمارس الرذيلة مع ممرضته ومريضاته ويتحرش ويغتصب أخريات ويصور الجميع بكاميرا فيديو للابتزاز والإجبار على استمرار العلاقة .. يوم ١٥ فبراير : الحكم فى الكليب الفاضح للمطرب ... ! البحث عن لصين سرقا شقة رئيس محكمة كوم حمادة !! .. محام يذبح سائقًا فى سראى محكمة الجلاء أمام المتقاضين والجمهور !! .. سقوط (١٥) هاربًا من أحكام بالمؤبد فى حملة بالقاهرة !! .. ضبط (٢٩٥) أسطوانة غاز فى مصنعين للطوب الطفلى بالفيوم ! .. قطار أبو قير يدهس ربة منزل ! .. ضبط تشكيل

(*) المال ٢٨/١/٢٠١٠

عصابى أوهام عشرات الضحايا من السذج بفرص عمل بعد أن باع لهم الأوهام !! .. إحباط تهريب ٦٠ كجم «عاج» بمطار القاهرة الدولى ! .. إحالة الفيلم المسىء للرئيس السادات إلى القضاء الإدارى ! .. سايس يؤجر نجله المعاق لسيدة لتتسول به مقابل ٢٠٠ جنيه شهريا ! .. حادثان مأساويان فى ٦ أكتوبر : صديق يقتل صديقه بالرصاص فى مشاجرة ، فيشتري شقيقه سكيناً لا يقتل به القاتل وإنما يذبح والده الذى وجدته أمامه !! .. القبض على (١٨) تاجر مخدرات فى (٦) محافظات ! .. السجن (١٠) سنوات لـ (٩) أشخاص تخصصوا فى سرقة حصيلة عرق سائقي السيارات الأجرة والنقل بالإكراه !! زعيم العصابة موظف بمطار القاهرة !! .. على بعد أمتار من قسم شرطة حلوان ، يحاول ثلاثة مجهولين قتل طبيب تجميل اقتحموا منزله عند الفجر ، ولم تنقذه من بين أيديهم سوى صرخات زوجته التى أجبرتهم على الفرار قبل أن ينجزوا مهمتهم !! الحبس سنة لعجوز يتحرش بالفتيات بداخل أتوبيس النقل العام !! .. تتزوج من سباك عرفياً فيغدر بها ، والقضاء يرفض إثبات نسب طفلها ! تصاعد الأزمة فى «موفنيك» .. الأميرة تقدم بلاغاً لمباحث أكتوبر ضد الفندق الذى قطع المياه والكهرباء عن أجنحة الأمير وحاشيته لعدم سداد الفواتير التى بلغت ما يزيد على (٢٥) مليون جنيه !! شقى خطر يلقي مصرعه دهمته سيارة وهو جالس على أحد المقاهى بالبحيرة ! .. مباحث القليوبية تلقى القبض على أب تجرد من كل مشاعر الرحمة فألقى وليد ابنته التى حملته سفاحاً إلى المجهول ! .. مباحث ميناء الإسكندرية

تضبط محاولة تهريب ألف كبسولة منشط جنسى وأربعة آلاف قرص مخدر داخل إحدى الحاويات ! .. محكمة جنايات الإسكندرية تصدر حكما بمعاقة كل من استورجى ونجار مسلح بالسجن المشدد خمس سنوات لقيامهما بخطف واغتصاب ربة منزل ! (يا بلاش) !!

هذه بالقطع جزء من غلة يوم واحد .. هى التى وصلت إلى الصحيفة، وما خفى ولم يصل - هو بالقطع - أكثر وأعظم عدداً !! وهذه نسبة هائلة لم نرها قط فى أى أخبار للحوادث والقضايا بأى من صحف العالم الغربى أو الشرقى أو العربى .. ولا كانت هذه معدلات الجنوح والانحراف والجرائم فى بر مصر !! فما الذى حدث لنا حتى تفجر هذا الإجرام واستشرت هذه الجرائم التى ضربت فى كل اتجاه .. لقد باتت جرائم القتل ثأراً وبغير ثأر - ظاهرة ملحوظة ضربت فى صعيد مصر ووصلت فيه إلى معدلات بالغة الخطر ، ولم تنج الدلتا من ويلاتها وإن كان المعدل أقل ! .. فما الذى حدث للناس ، وأين ولت الأخلاق ، وماذا أفسد ما بين الصديق وصديقه ، بل بين الأخ وشقيقه وشقيقته ، بل بين الأب وبنه ، والأم وولادات أكبادها ؟! ما الذى فجر العداوات بدل المحبات ، ولماذا سكتنا ونسكت على «زنا المحارم» الذى ضرب فى العشوائيات بمعدلات نسفت القيم وضربت جدول القربات حتى نرى الخال قد صار أباً لابنة أخته منه ، والأب قد صار جدّاً وأباً لابنه من إبنته ، وهلم جرا .. إن ما وصلت إليه أحوال الناس فى بر مصر ينذر بأشد الأخطار ، ويهدم المجتمع ويقوضه تقويضاً لا قيام بعده ، ومن المدهش أننا نتفرج ونشاهد ونتابع

ولا يرمش لنا جفن ، ولا يتحرك لنا ضمير !! هذه المصيبة عار علينا جميعاً ..
حكاما ومحكومين .. لا يجوز لأحد أن يتنصل من جريرتها لمجرد أنه ليس
فاعلاً أو مشاركا فيها ، أو ليس ضمن المسؤولين عن ملاحقتها .. إننا
جميعا شركاء .. ليس فقط بالصمت ، وإنما أيضا بالإسهام الذى يمسك
بتلابينا دون أن ندري .. فمسئولية الجنوح الضارب فى كل إتجاه ، شائعة
بين الأسر والأحياء والخرابات والمدارس والمعاهد والورش والمصانع ،
ويتحمل أوزارها قطاعات التعليم والإعلام والثقافة والاجتماع والدعاة
ورجال الدين ، والمسئولون عن إفقار مصر وشعبها .. فقد تعانق الجهل
مع الفقر فى معادلة مخيفة طفقت تعصف بهل القيم .. السكوت على هذه
المظاهر المتفشية ، حماقة وقصر نظر .. ما نراه يدق نواقيس خطر داهم لا
نرى سوى نذره ، والأدهى لا يزال قادما فى الطريق من وراء الأفق ..
فهل انتبهنا إلى ما نحن فيه ، وداركناه بالتشخيص والعلاج ؟!

من تراب الطريق

بين دعر الدنيا (٣٩٧)
ونذير الآخرة (*)

لست أعرف أى شيطان أو وهم دعا أحد المنتظرين لمشاهدة مباراة كرة قدم للنادى الأهلى فى ستينيات القرن الماضى - بملعب مختار التش بالجزيرة ، إبان أن كانت تقام عليه المباريات ، دعاه لأن يصيح وهو ينظر إلى برج الجزيرة .. «البرج ييقع» .. بدأت الصيحة فى مدرجات الدرجة الثالثة ، وسرت كسريان النار فى الهشيم إلى باقى المدرجات .. وكنت ضمن الجالسين فى مدرج الأعضاء .. تصادف أن كانت سحابة تمر من خلف البرج ، فهىء للناظرين فى هلعهم المذعور - أن البرج يميل بالفعل ويقع ، فاندفعت الجموع بلا عقل تريد الفرار من مرمى وقوع البرج بارتفاعه الهائل .. لم تمض موجات الذعر طويلا ، فسرعان ما تصايح بعض العقلاء فردوا العقل والأمان للجماهير التى سادتها روح القطيع ، ولكن هذه المدة القصيرة كانت كافية لإصابة كثيرين على القمم المدبية للسور الحديدى أثناء محاولاتهم القفز من فوقه ، فضلا عن البشر الذين داستهم الأقدام أثناء الفرار المجنون .. وقيل يومها - ولم أتأكد - أن أحد المصابين توفى فيها بعد متأثرا بإصابة عميقة فى بطنه التى بقرت وظل معلقا منها وهو متشعبط يريد اجتياز السور الحديدى الذى يحول بينه وبين النجاة من الموت القادم من برج الجزيرة !

(*) المال ٢٠١٠/٢/١

تذكرت هذا المشهد بعد سنوات ، ذكرنى به الأستاذ العبرى الفذ يحيى
 حقى فى إحدى مقالاته المجموعة فى كتابه : «من باب العشم» .. كان قد مضى
 على الحادث زهاء عشرين عاما وأنا أقرأ يحيى حقى فى ٢٨ / ٥ / ١٩٨٨
 (كالتأشيرة التى وجدتتها كعادتى على الكتاب) .. ولكن ضراوة «الذعر
 الأعمى» التى وصفها يحيى حقى ، دعتنى لاسترجاع ضراوة ذعر مبصرة
 رواها القرآن الحكيم ، وأخرى رمزية متوقعة تحدث عنها ووصف بها ما
 سيحدث يوم القيامة !!

جاء بالقرآن بسورة العنكبوت : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ
 فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١١)
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿ [العنكبوت: ١٤، ١٥] ..
 ووصف فى سورة هود ما كان من أمر المغرقين حين فار الطوفان وصارت
 الأمواج كالجبال ، فأخذت نوحا عاطفة الأبوة فنادى ابنه وكان فى معزل:
 ﴿ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢] ، ولكن لاجابة
 وعناد الكفر أخذوا منه عقله ، فقال لأبيه فيما رواه القرآن : ﴿ قَالَ سَوَّيْ
 إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ
 وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣] .. فلما نادى نوح ربه
 أن ابنه من أهله وأن وعد الله حق وهو أحكم الحاكمين ، جاء الرد الذى
 ترويه الآيات : ﴿ قَالَ يَبْنُوهُ إِنَّهُ لَيَسْ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِينَ مَا
 لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] .

هين ويسير أمر الطوفان وما صاحبه من زعر المغرقين ، إذا ما قيس
 بذعر الكافرين يوم القيامة من هول ما سوف يرونه .. يقول الحكم الخبير
 في كتابه المبين : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴾ (٣٢) يَوْمَ يَقْرَأُ النَّارُ مِنْ آخِئِهَا (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
 (٣٥) وَصَحْبَيْهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ
 (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿ [عبس: ٣٣ - ٤٢] .

جزع يوم الهول الأعظم ، إذا جاءت الصَّاعَةُ ، وهى صيحة تصم
 الآذان يوم القيامة لشدتها .. جزع حقيقى مهول لا مريّة ولا خيال ولا
 شبهة فيه .. جزع يأخذ كل امرئٍ من خاصة أهله الذين تعلق بهم فى دنياه ..
 من أبيه وأمه اللذين كانا وسيلة الإتيان به إلى الدنيا ، وأوصاه بهم القرآن
 إحسانا ، ومن أخيه الذى منّ الله عليه به فكان سنده ورّدّه وعونه ، ومن
 صاحبتة التى عاش على حبها وأعطاه قلبه عواطفه وبرّه واهتمامه ، بل
 يأخذه الخوف والهلع فيفر حتى من بنيه الذين كان يباهى بهم الدنيا ،
 وعاش مشغولا بهم معنيا بأحوالهم صارفاً العمر والمجهود والمال فى تنشئتهم
 والنهوض بهم وإفساح المجال فى الدنيا لهم .. ولكنه حين تجيئ الصَّاعَةُ ،
 يأخذه الهلع من كل جانب ، فلا يَعدُّ ملتفتا إلّا إلى نفسه ، لا يرى سواها ، ولا
 يشعر بغيرها من هول ما يراه .. يفر من أبيه وأمه وأخيه ، ومن صاحبتة
 وبنيه .. أمام هول الحاقة ، تهون كل عذابات ومتاعب وأثقال وأوجاع
 الدنيا .. يروى لنا القرآن المجيد من أخذتهم الرجفة من كفار قوم صالح
 فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، ومن أخذتهم الرجفة من كفار مدين قوم

شعيب فصاروا كقوم صالح : موتى هامدين لا حراك لهم .. وقوم لوط الذين أبو إلاما يريدون ، فأخذتهم الصيحة وجعل الله تعالى عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل .. والذين قالوا إن هى إلّا حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا ولا بعث لنا ، فأخذتهم الصيحة بالحق وجعلهم الله تعالى هالكين كغناء السيل .. وعادّ الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق وظنوا أنه لم يوجد ولن يوجد من هو أشد منهم قوة ، فأرسل عليهم ربهم تبارك وتعالى ريحا صرّصرا وأذاقهم خزي الدنيا وتوعدهم بعذاب الآخرة ، وهو أخزى وأشدّ إذلا .. وثمود الذين هدامهم سبحانه وتعالى فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب المهين !!

يا لحال الإنسان فى عناده وتجبره وإعجابه بذاته وتيهه بنفسه وظنه فى قدراته .. وكم عبّد ويعبد الناس أوثان المال والجاه والسلطان ، وظنوا ويظنون بأنهم بمنأى عن تقلبات الأيام وبمنأى عن عذاب الله .. فى مثل هؤلاء قال جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَثُونًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] .. سبحانه وتعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ (١١) وَمَا أَنشُرْ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ [العنكبوت: ٢١، ٢٢] .

من تراب الطريق

(٣٩٨) جرائم تختفى
وأخرى تظهر!! (*)

فيما عدا الجرائم التقليدية التي تنطوي على صورة من صور الاعتداء على النفس أو العرض أو المال ، فإن الجرائم الاجتماعية - إن جاز التعبير - لا دوام لبقائها أو لحالها .. هناك جرائم جديدة تظهر ، وجرائم قديمة تختفى ، وثالثة تتراوح ظهورًا واختفاءً حسب تقلبات الأحوال .. من خمسين عاما كانت لافتة «شقة للإيجار» تملأ شوارع العاصمة وباقي مدن المحروسة ، ثم شحت الشقق ، فاختفت اللافتات ، وظهر التسابق مصحوبا بخلو الرجل الذي لم يجد المشرع بدءًا من تجريمه ، وأقبل المستأجرون على استغلال هذا التجريم بحفاوة لم تفتها في أحيان كثيرة - الكذب أو المبالغة في تحديد الخلو المدفوع أو المزعوم .. لأن المالك لم يكن يجد بدءًا من الصدوع ودفعه إلى المستأجر ، مسلمًا بما يدعيه ، اتفاقًا لشر المحاكمة والسجن البهذلة .. ومع الوقت تيقظ الملاك لما يتعرضون له من أخطار ، بالحق أو بالباطل ، فعدلوا عن التأجير إلى التمليك ، واشتعلت أسعار امتلاك الشقق حتى تمنى طلابها أن يجدوا شقة للإيجار ، ولو بخلو رجل ، فهو أرحم كثيرًا من الأرقام الفلكية التي طفقت تصاحب أسعار امتلاك الشقق .. وبحكم الزمن ، والتمليك وشجونه ، تراجعت جرائم خلو الرجل لتراجع بلاغاته .. عملاً بحكمة : «قضاء أخف من قضاء» !!

(*) المال ٢٠١٠ / ٢ / ٢

وتعلمنا في كليات الحقوق أن السرقة لا ترد إلا على مال منقول مملوك للغير ، فتنقل حيازته من مالكه إلى حيازة السارق .. بيد أن الأيام ، وحيل الفلاحين ، استنبتت صورة جديدة للسرقة طالت الأرض والأطيان .. بالتلاعب في الحدود الفاصلة بين الأراضى ، بنقل مسقاة أو ممر أو مدق تحت ستر الليل .. بصورة تخيل على الناظرين فلا يلحظها أحد في الصباح ..

تراجعت معدلات جرائم إيصالات الأمانة لتوالد عدم الثقة فيها وتزايد فرص التحلل منها بأنها صورية تخفى وراءها معاملة مدنية لا تستوجب جزاء ولا عقوبة جنائية ، بينما زادت معدلات جرائم الشيكات لأن الحكم فيها كالقضاء والقدر ، يحقق للدائن المستفيد في الشيك - ضمانة مؤكدة لم تعد تحققها إيصالات الأمانة التى اهترأت ضماناتها من كثرة الاستعمال عمال على بطلان !

من ينظر في باب جرائم المال العام ، يلحظ أن شهية التجريم قد اتسعت وزاد نهمها على مر الأيام ، فلم تعد تكتفى بالاختلاس والاستيلاء ، فجرمت تسهيله ، ثم انفتحت شهيتها لحماية المال العام ، فجرمت الإضرار العمدى به ، ثم جاوزت العمد إلى الإهمال ، فتعقبت بالتأثيم والعقاب التسبب إهمالاً في الإضرار بالمال العام أو ما في حكمه من الأموال التى جعلت دائرتها تتسع هى الأخرى على مر الأيام ، فلم يعد المال العام في إطاره الإصطلاحي الذى كان ، وجعلت دائرة «ما في حكمه» تتسع ولا تزال تتسع لتشمل أموالاً لم تكن بأمس في عداد الأموال العامة !

قديماً كانت البيعة حقاً يأخذه من يشاء ويدعه من يشاء ، ثم صار

الانتخاب واجباً يفرض القانون غرامة جنائية على من يتخلف عن القيام به .. وفى الزمن الغابر كان الناس يتحركون ويتنقلون بين البلدان .. يغدون ويحيثون بأنفسهم وبما يحملون ، بلا حواجز ! حتى فُرِضَت المكوس ، ثم الحواجز والرسوم والتعريفات الجمركية !!

قديماً كان الإنسان حرّاً فى نفسه يفعل بها ما يشاء ، لا تجريم ولا تأثيم بل ولا تثريب عليه فيما يفعله بها ، فجعل القانون يفرض عليه احترامها ويعاقبه على المساس ببدنه إذا أراد التخلص بذلك من الخدمة العسكرية والوطنية ، ثم رأى القانون أن الإنتحار جريمة قتل يعاقب عليها مادامت قد مست حق الحياة ، فتقيد النيابة واقعتها بوصف أنها جريمة قتل عمد ضد المنتحر ، وقصاراتها أن تحفظ لانقضاء الدعوى الجنائية بوفاة الفاعل !!

وقديماً كان الإنسان حرّاً فى أن يتعاطى ما يشاء من أنواع المخدرات .. فجعل القانون يتدخل شيئاً فشيئاً فيجزم الإتجار ثم الترويج ثم التعاطى ، ويوسع كل يوم دائرة المخدرات الطبيعية والمخلقة والمصنعة التى يعاقب على تجارتها وتعاطيها ، بل وعلى مجرد إحرازها أو حيازتها ، ولو بغير قصد الإتجار أو الترويج أو التعاطى أو الاستعمال الشخصى !

قديماً لم تكن هناك جرائم تموينية ، فجعلت تظهر وتُجرّم مع إرتفاع الحاجات وقلة أو عدم كفاية المعروض والتهاب الأسعار وشيوع النظريات الإجتماعية التى تقيم حاجزاً من الحماية الجنائية للمجتمع ضد كل تحكم فيه أو إضرار بحقوقه الأساسية .. ولأن المعروض من السلع يرتفع وينخفض حسب المواسم والفصول ، لجأت القوانين لما يسمّى بالتجريم على بياض ، وأعطت للسلطات حق إدخال وإخراج السلع

إلى الجداول الملحقة بقوانين التموين لتظهر جرائم وتختفى أخرى تبعاً لضرورات العرض والطلب ومستويات الأسعار !

حتى الملابس والأزياء ، التى كانت حرّة بلا أى قيود ، جعل بعضها يدخل حيّز التجريم والعقاب إذا كانت تشبّه بزى من الأزياء التى قصرها القانون على فئة من الفئات !!

أيّما نظرت فسوف تجد جرائم قد اختفت ، وأخرى قد ظهرت أو استحدثت ، وتجربيا كان ثم عدل عنه وبات من المباحات .. ذلك أن القانون لا يتدخل بالعقاب إلّا لتجريم التعدى على حقوق يراها جديرة بالحماية الجنائية ، وهذه الحقوق نسبية متغيرة سواء فى وجودها أو فى قدرها . القيم فقط هى الخالدة .

على أن الإفراط فى التجريم ، علامة قلق وقلة حيلة وتراجع أخلاقى فى المجتمعات .. ارتفاع المستوى الاقتصادى والثقافى والأخلاقى ، لا يحوج المجتمعات للتدخل بالتجريم والعقاب . ظنى أن الجرائم التموينية أو جرائم خلّو الرّجل وما يشبهها - لا وجود لها فى مجتمعات الرفاهية التى لم يضربها الفقر ولم تحاصرها الحاجة . حسبك أن تنظر فى المدونات العقابية لبلدان مثل سويسرا أو باقى دول أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة وغيرها - لترى أنها خالية تماماً من جرائم اضطرتنا الحاجة لاستحداثها والتمسك بها !!

متى نستطيع أن نعالج مشاكلنا برفع مستوى الوعى والأخلاق ، ورفع مستوى المعروض من السلع ليلبى مستوى الطلب ويغنى الاحتياجات .. يومها سوف يتقلص التجريم ، وسوف يقل عدد القضايا ، وسوف يخرج شعبنا من التوتر والاحتقان الذى أخذ يضربنا من كل إتجاه !!

من تراب الطريق

(٣٩٩) شهوة الكلام ! (*)

شهوة الكلام التى أعنيها ، ليست نصائح ومواعظ الدعاة ورجال الدين ، وليست كلمات الأدباء والمفكرين ، وليست مرافعات المحامين الشفوية والمكتوبة ، وإنما أعنى شهوة الكلام واللت والعجن فى غير موضعه .. قد نرى هذا كثيرًا فى دنيا السياسة ، وفى الخطب البرلمانية ، ولكن أستاذنا يحى حقى - وهو أستاذنا فعلاً لا تجيباً ، فهو حقوقى دفعه المرحوم أبى والأستاذ توفيق الحكيم الذين تخرجوا معاً دفعة ١٩٢٥ من مدرسة الحقوق الملكية حسب مسماها فى ذلك الزمان ، قبل أن تتحول إلى حقوق القاهرة ، ثم يتسلم مبناها المواجهة لمديرية أمن الجيزة الآن قسم الجغرافيا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، قبل أن يستولى عليه الحزب الوطنى حيث يقبع مختالاً فى المبنى العريق الذى يرجع لمائة عام مضت ، ولا زلت أحتفظ بصورة أبى رحمه الله مع دفعته وأساتذتهم والعميد على سلم المبنى إبان أن كان لكلية الحقوق تحت مسمى مدرسة الحقوق الملكية !

أعود إلى يحى حقى الذى يربطنى عشقى لشخصيته وأدبه ، قبل زمالته وأبى التى ذكّرت به يوم لقيته من أربعين عاماً فى فندق شبرد

(*) المال ٢٠١٠/٢/٣

مع المرحومة سميحة غالب والأستاذ الروائى محمد الحديدى ، ليوافق
لى على كتابة سيناريو وحوار لإحدى قصصه القصيرة لتجسيدها دراميا
ومناقشتها فى برنامج «قصة قصيرة» الذى كانت سميحة غالب تقدمه
للتليفزيون المصرى .. وهى بالمناسبة زوجة الصديق المرحوم الشاعر
صلاح عبد الصبور وأم وحيدتيه : مى ومعتزة .

فى مجموعة «من باب العشم» ، يورد يحيى حقى مقالا طريفا نشر
بجريدة التعاون بعددها ٤١٦ فى ٧/٢/١٩٧١ .. وبالمناسبة ، شىء
لافت فى الأستاذ يحيى حقى أنه كان راضيا بقليله رغم المكانة السامقة
التي يحتلها بين جيل الرواد ، وفى وزارة الثقافة ، ورئاسته لتحرير مجلة
المجلة التي فتح فيها أحضانه للعمالقة وللشباب أيضا من أصحاب
المواهب ، ومع ذلك لم يلح بمقالاته النفيسة على الصحف والمجلات
الكبرى ، فنرى معظمها منشورا إما فى جريدة المساء محدودة التوزيع ،
أو فى التعاون التي ربما جهل كثير من القراء أمرها ! .. المقالة التي أعنيها
كانت بعنوان : «واندلعت شهوة الكلام» .. يروى فيها يحيى حقى
شهوة الكلام الجارفة ، عمال على بطل ، فى أبواب فتحتها الصحف
تحت عناوين مختلفة لتلقى أسئلة ومشاكل واستفسارات القراء والإجابة
عليها .. ومع أن الفكرة تبدو نبيلة ، إلا أنها فتحت أبوابا على مصاريعها
لكل من هب ودب ، من الأصحاء والمرضى ، والشيوخ والصبية ،
والعجائز وبنات المدارس الابتدائية ، وصنوف وأعداد لا حصر لها من
الزبائن . يلجأ كل منهم صادقا أو مواريا أو مثالا أو مصطنعا حرفة

الأدب ، إلى باب اسألونى أو جراح القلوب أو أنت تسأل وأنا أجيب ..
بكلام معظمه لا يتعدى «طق حنك» ! .. الغريب أن يعرض أو تعرض
صاحب أو صاحبة المشكلة القلبية لأخص الأسرار الشخصية جداً ، مع
تعرية النفس بلا حدود ، ثم يقوى أو تقوى على طول الانتظار حتى يأتى
دور الرسالة ضمن أكوام الرسائل التى ترسل إلى باب القلوب ، فتأتى
الحلول والنصائح «الغالية» : التى فى معظمها هى الأخرى طق كلام - فيما
عدا القليل ومنه باب اسألونى الذى استثناء الأستاذ يحى حقى ، وكانت
تقدمه الأستاذة أمينة السعيد .. لا يخفى يحى حقى أنه رغم اعتراضه كان
مدمنا على قراءة هذه الأبواب ، ولا يملك القارئ المتابع إلا أن يتعجب
من كثير من الصور الدمية أو ما يشبه اللوثة العقلية التى تشم رائحتها فى
كثير من هذه الرسائل .. وقد ترى من ضمن السائلين «مجنون أدب» أو
«مهووس» بكتابة القصة - لا يجد مجالاً لنشر إنتاجه ، فيتحايل على نشره
بهذا الأسلوب فى شكل رسائل مصوغة إلى هذا الباب أو ذاك ، وينتظر
الشهور الطوال - وقد لا يفلح - ليرى رسالته ، أى قصته ، منشورة فوق
الحروف الأولى لاسمه الذى أعيته السبل فى الوصول به إلى عيون الناس !
أكثر هذه الرسائل ، ولا تزال للآن ، تلفيق فى تلفيق ، تتلذذ بعرض
النفس من المهد إلى اللحد (!؟) ، وتتنج بأسئلة لا تليق ، وعن سلوك لا
يليق أو مفضوح وشائن يستوجب اللوم والتقريع ، ومع ذلك فما كنت
تراه قديماً من إجابات حكيمة متفطنة كما كانت تفعل الأستاذة أمينة
السعيد - على سبيل المثال لا الحصر - لم تعد تراه الآن ، وترى بعض

الصحف والمجلات تعهد بهذه الأبواب من باب المجاملة إلى من يحتاج أو تحتاج إلى التفتن والفهم للحياة والناس .. ومع ذلك يستعير أو تستعير دور النطاسى البار الذى يدرس ويتمعن ويسبر الأغوار ويستطلع خفايا النفوس ليكشف ما يعز كشفه إلا على المتخصصين جدًا من علماء النفس والاجتماع !.. لتحول العملية كلها إلى « فراغة » مزوجة بالتفاهة وشهوة التعرى أمام الناس مع اندلاع شهوة الكلام بلا معنى ولا طهى !

ما هو ضمان صواب رؤية ونصبحة جراح القلوب الذى يحتاج أصلا إلى مشورة وربما إلى علام ؟!.. هل تذكرون الفيلم الكوميدي عن جراح القلوب لعبد السلام النابلسى ونادية لطفى ؟!.. أليست هذه الكوميديا تجسيدًا واقعيًا للحال « المائل » فى هذه الأبواب التى تأتى بغائها على كل القيم ، وتأخذ من العقل بسطحية أو جنوح ما تنشره لتفسح المجال للتفاهات الضريرة ؟!!

فماذا إذا عزَّ القضاء على شهوة الكلام المتغلغلة فى الأعماق ، ورفضت الصحف أن تتخلى عن تدبيج هذه الأبواب التى تجذب القراء وترفع نسبة التوزيع .. أليس أجدى للعقل أن تحول أبواب «جراحة القلوب» وأشباهها إلى أبواب «لآراء القراء» تنشر فيها تعليقاتهم على موضوعات تتخيرها الجريدة مسبقًا وتستطلع آراء وأفكار القراء .. أليس هذا أجدى لتقدم العقل بدلا من «فراغة» الكلام ؟!!!

من تراب الطريق

(٤٠٠) لا إيمان
لن لا أمانة له! (*)

أستأذنك اليوم في أن أوجه رسالة إلى زملائي المحامين ، عن ثقل الأمانة التي يحملونها ، والتي يجب عليهم أن يحفظوها ويقوموا بواجباتها في صدق وإخلاص .. والصدق صدق مع النفس ، وصدق أيضا مع الغير .. وكذلك الإخلاص ، فهو الإخلاص للواجب الذي على المحامي أن يكرس نفسه للقيام به ، والإخلاص في العطاء الذي تنتظره العدالة منه ، وتعطيه حجمه وقامته في الحياة والمحاماة على قدر صدقه وإخلاصه واحترامه لنفسه ومهنته ورسالته .

لأجل هذا عنيّت قوانين المحاماة ومدونات القوانين بعامة ، في مصر وفي غيرها ، بأن تسبغ مظلة أمان للمحامي تكفل له القيام بواجبه بلا خوف ولا قلق ولا توجس ، ومظلة أخرى تكفل أمان علاقته بموكله ، وحفظ ما يتلقاه من أسرار له للقيام برسالته ، وحمايته من ألا يُجبرَ على إفشاء ما لديه ، بل ولحمايته من النفس الأمانة بتقرير عقوبة على هذا الإفشاء لو وقع فيه ، وهذه «الدرقة» من الحماية هي التي تتيح للمحامي أن يدرأ عن نفسه أى سعى يستهدف «إجباره» على إفشاء ما ائتمن عليه !!

(*) المال ٢٠١٠ / ٢ / ٤

هذه العناية الملموسة في تشريعات الدول ، مقننة أيضا في المواثيق الدولية لدفع الدول إلى احترامها ، فجاء فيما جاء بقرارات الأمم المتحدة ٤٥ / ١٦٦ في ديسمبر ١٩٩٠ ، أنه يجب على الدول الأعضاء أن تكفل احترام «سرية» جميع الاتصالات والمشاورات التي تدور بين المحامين وموكليهم في إطار علاقتهم المهنية .

على أن الكفالة الأوجب ، هي التي تنبع من ذات المحامي واحترامه الشخصي لنفسه ولأمانته ، وتعبر عن ضميره وإيمانه بأنه بالفعل حامل رسالة يجب أن يرتفع إليها .. وأن يتذكر دائما أن هذه الرسالة هي التي أفسحت له ضمن غاياتها السامقة في رعاية الحقوق - أن يلم بمكنون أسرار موكله التي باح بها إليه ، وأنه من لحظة تلقيها قد قبل بإرادته أن يحمل «أمانة» تلزمه بها تقاليد وأعراف وشرف مهنته ، قبل أن تدعوه إليها أو تحميها مدونات القوانين والمواثيق الدولية .

يضاعف من ثقل هذه الأمانة ، أن القانون قد أناط بالمحامي مطلق «اختيار» خطة الدفاع التي يراها كفيلة بحماية حقوق موكله أو بلوغ الغاية في دفع الظلم أو الجور عنه . وقد جرى قضاء محكمة النقض المصرية على أن المحامي لا يلتزم بما قد يراه المتهم لنفسه ، بل إن خطة الدفاع متروكة لرؤية المحامي وتقديره ، بل وله أن يبني دفاعه على طلب الرأفة إذا رأى أن إنكار المتهم للتهمة لا يجديه نفعًا .. ذلك أن القانون - احترامًا لرسالة المحاماة - لم يوجب على المحامي أن يسلك في كل ظرف خطة مرسومة له تقيده ، بل ترك له اعتمادًا على شرف المحاماة وتقاليدها واطمئنانا إلى نبل

أغراضها - ترك له أمر الدفاع يتصرف فيه بما يرضى ضميره وعلى حسب ما تهذبه إليه خبرته .

هذا العبء الثقيل ، لا يدركه إلاّ المفطور على حب وفهم واحترام رسالة المحاماة ، وعلى استيعاب معنى الأمانة التى عرضها الله عزّ وجلّ على الجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، وهذه الأمانة هى عنوان الإيثار وجوهره حتى قال رسول القرآن عليه السلام إنه لا إيمان لمن لا أمانة له ، وحذر من كونها يوم القيامة خزى وندامة إلاّ لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها .. وهى أكثر ما تكون أثقل حملاً حينما تتعلق بحياة أو حرية أو مصير إنسان !

لقد نقلت فى كتاب «رسالة المحاماة» ، مشهدا لافتا لأستاذنا الجليل مصطفى مرعى .. فارس المحاماة .. الذى أدرك إدراكاً عميقاً مقتضيات أمانة الدفاع ، ترى ذلك واضحاً فى وقوفه إلى جوار الأدبية «مى زيادة» حين أطبق عليها جحود أقارب استغلوا مرضها وعزلتها فى شتاء الأحزان الذى أحاطها برحيل الأب ثم الأم ، فسولت لهم أنفسهم أن يحجروا عليها ، واستدرجها أحدهم للسفر إلى لبنان حيث أودعوها - بقالة الجنون ! - مستشفى «العصفورية» ، ولم تخرج إلاّ بنجدة إحدى العائلات اللبنانية ، لتعود إلى مصر محملةً بجراح نفسية غائرة ظلت تطاردها مع دعوى الحجر التى لاحقتها فى مصر ! .. يومها وقد إنفض السامر الذى كان على الدوام من حولها من كبار الأدباء والمفكرين ، وقف إلى جوارها فارس المحاماة مصطفى مرعى .. لا يقيد نفسه بالأداء

التقليدى ولا بالحدود الضيقة ، وإنما ينطلق إلى الميدان الرحب ، ويتفتق ذهن الفارس الحامل للأمانة المدرك لمقتضياتها ، عن حينة عبقرية لم تتقيد بحدود المحكمة وقاعتها ، فأشار على المتحدثين معه باسم الكاتبة الجريئة ، بأن تلقى محاضرة بقاعة «إيوارت» التذكارية بالجامعة الأمريكية .. ودون أن تعرف الآنسة «مى» خلفية التدبير الذى عُلف بدعوة وجهت إليها من الجامعة للقاء المحاضرة ، اختارت الأدبية موضوعا لها من أعقد وأعوص موضوعات فلسفة «نيتشة» ، فبهرت الحاضرين ، وانتشر نبؤها على صفحات الصحف مشفوعا بمؤلفاتها : باحثة البادية - وعائشة التيمورية - وسوانح فتاة - والصحائف - وابتسامات ودموع المترجمة عن شارل ومارى لام - وأزهار الحلم بالفرنسية ، وتصادف أن سمع أحد شيوخ القضاء هذه المحاضرة التى تسامعت بها مصر ، فحملت أثرها ودالتها إلى ساحة العدالة ، وجاء فى أسباب قضاء المجلس الحسبى الأعلى برفع الحجر : إنها أعقل من أكبر العقلاء .. هذه القضية كسبها مصطفى مرعى قبل أن يدخل بأوراقه إلى ساحة المحكمة ، لأنه أدرك موجبات الأمانة التى يحملها ، وعرف بثقافته العريضة أن السهم الذى يدق به نعش هذا «الحجر» أن يعيد صورة الأدبية المفكرة «مى زيادة» إلى أذهان الناس ، وقد كان !

كتب وإصدارات أ. رجائي عطيه

- (١) أوراق - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
- (٢) من هدى النبوة وفي مدرسة الرسول - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
- (٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨ .
- (٤) بشاير - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٥) باسمك اللهم - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٦) بسم الله - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٧) نواب القروض - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (٨) يارب - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (٩) قضية التقايين - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (١٠) أبو ذر الغفارى - روز اليوسف ط / ١-٢٠٠٢ ، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢ أبو ذر الغفارى - روز اليوسف ط / ٢-٢٠٠٥ ، هيئة الكتاب - ٢٠٠٥ .
- (١١) قضية الجمارك الكبرى - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٢ .
- (١٢) مواقف ومشاهد إسلامية - دار الهلال - ط ٢٠٠٢ .
- (١٣) ماذا أقول لكم - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣ .

(١٤) عالمية الإسلام - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١ ، ط ٢ -
٢٠٠٣ (حائز على جائزة أفضل كتاب بمعرض القاهرة الدولي
للكتاب سنة ٢٠٠٣ - الهيئة العامة للكتاب) .

(١٥) إبحار في هموم الوطن والحياة - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .

(١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .

(١٧) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الأول - روز اليوسف -
ط ٢٠٠٣ .

(١٨) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الثاني - روز اليوسف -
ط ٢٠٠٣ .

(١٩) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الثالث - روز اليوسف -
ط ٢٠٠٤ .

(٢٠) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الرابع - روز اليوسف -
ط ٢٠٠٥ .

(٢١) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - المجلد الخامس - المكتب المصرى
الحديث - ط ٢٠٠٦

(٢٢) الإنسان والكون والحياة - كتاب الهلال - أكتوبر ٢٠٠٥ .

(٢٣) تأملات غائرة - دار الشروق - ط ٢٠٠٦ .

(٢٤) الأديان والزمن والناس - كتاب الهلال - سبتمبر ٢٠٠٦ .

(٢٥) شجون وطنية - المكتب المصرى الحديث - ط ٢٠٠٦ .

- (٢٦) الهجرة إلى الوطن - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٧ .
- (٢٧) رسالة الحمامة - دار الشروق - سبتمبر ٢٠٠٨ .
- (٢٨) في الوحدة والجماعة الوطنية - المكتب المصري الحديث - سبتمبر ٢٠٠٨ .
- (٢٩) في رياض الفكر - كتاب الهلال ديسمبر ٢٠٠٨ .
- (٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب - المكتب المصري الحديث ٢٠٠٨ .
- (٣١) من تراب الطريق (الكتاب الأول) - المكتب المصري الحديث ٢٠٠٨ .
- (٣٢) من حصاد الحمامة - المجلد الأول - المكتب المصري الحديث .
- (٣٣) من حصاد الحمامة - المجلد الثاني - المكتب المصري الحديث .
- (٣٤) من حصاد الحمامة - المجلد الثالث - المكتب المصري الحديث .
- (٣٥) من حصاد الحمامة - المجلد الرابع - المكتب المصري الحديث .
- (٣٦) من حصاد الحمامة - المجلد الخامس - المكتب المصري الحديث .
- (٣٧) من حصاد الحمامة - المجلد السادس - المكتب المصري الحديث .
- (٣٨) من حصاد الحمامة - المجلد السابع - المكتب المصري الحديث .
- (٣٩) من حصاد الحمامة - المجلد الثامن - المكتب المصري الحديث .
- (٤٠) من حصاد الحمامة - المجلد التاسع - المكتب المصري الحديث .
- (٤١) من حصاد الحمامة - المجلد العاشر - المكتب المصري الحديث .
- (٤٢) من حصاد الحمامة - المجلد الحادي عشر - (تحت الطبع) المكتب المصري الحديث .
- (٤٣) دولة الأيام ! - كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩ .

(٤٤) من تراب الطريق (الكتاب الثانى) - المكتب المصرى الحديث
٢٠٠٩ .

(٤٥) الأمن والإيمان - قراءة فى ملف الأمن المجتمعى فى الإسلام .
المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩ .

(٤٦) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة
العقل للفيلسوف جورج سانتايانا - كتاب الهلال - نوفمبر
٢٠٠٩ .

(٤٧) من تراب الطريق (الكتاب الثالث) - المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠ .

(٤٨) عبقرية إنكار الذات - أبو عبيدة بن الجراح - تحت الطبع .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
(٢٩٤) كيف لا نحزن؟!	٥
(٢٩٥) سمعة مصر!	٩
(٢٩٦) الى عاوزه البيت يحرم على الجامع!	١٢
(٢٩٧) الشوق إلى المعرفة	١٦
(٢٩٨) بين التفاهة والعظمة	١٩
(٢٩٩) شجيرة الورد! (١)	٢٢
(٣٠٠) شجيرة الورد! (٢)	٢٥
(٣٠١) قد يأتي الخير من سوء!	٢٨
(٣٠٢) لا رئاسة لهيئة الدفاع في أي قضية	٣١
(٣٠٣) عن أي سلام يتحدثون؟!	٣٤
(٣٠٤) لن ينال السلام إلا القادر على الحرب!	٣٧
(٣٠٥) الطعنات الطائشة!!	٤١
(٣٠٦) ماذا يقال أو لا يقال في المقال!!	٤٤
(٣٠٧) الكبائر والأغراض الصغيرة!	٤٨
(٣٠٨) هل للاجتماع أم للسياسة؟!	٥٢
(٣٠٩) هل صار العدو هو الإسلام؟!	٥٥
(٣١٠) العاجلة والآجلة؟!	٥٨
(٣١١) فيا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه!	٦٢

الموضوع	الصفحة
(٣١٢) تساند العلماء !	٦٥
(٣١٣) بين الموضوعية والشخصنة	٦٨
(٣١٤) حمدى السكوت وموسوعته الرائعة (١)	٧٢
(٣١٥) حمدى السكوت وموسوعته الرائعة (٢)	٧٥
(٣١٦) دعاء	٧٩
(٣١٧) ويل من الفلسفة والمتفلسفين	٨١
(٣١٨) التنطع الإسرائيلي من غير ذى صفة !	٨٥
(٣١٩) هل عرفنا عدونا ؟!	٨٨
(٣٢٠) إيش تطلبى يا نفسى ؟!	٩١
(٣٢١) وجيعة الهجوم على الضبعة	٩٤
(٣٢٢) دعاء	٩٧
(٣٢٣) الإقطاع المصرى الجديد !	٩٩
(٣٢٤) من الجانى ؟!!!	١٠٢
(٣٢٥) دعاء	١٠٦
(٣٢٦) المقبول وغير المقبول	١٠٨
(٣٢٧) فوبيا أنفلونزا الخنازير !	١١١
(٣٢٨) الزبالة وقلة الحيلة !	١١٤
(٣٢٩) إلام تقودنا الأطماع ؟!	١١٧
(٣٣٠) الخاتم	١٢١

الموضوع	الصفحة
(٣٣١) النقاب من تانى !	١٢٣
(٣٣٢) التقاط الطعم الإسرائيلي !	١٢٦
(٣٣٣) مرض الظهور !	١٢٩
(٣٣٤) الخاتم والحديث الثالث	١٣٢
(٣٣٥) قوة الداخل أغنى من أى بريق !!	١٣٥
(٣٣٦) هل سقطت نظرية دارون؟! !	١٣٩
(٣٣٧) ماذا فعلنا لإنقاذ الأقصى؟! !	١٤٣
(٣٣٨) المسجد الأقصى من تانى؟! !	١٤٧
(٣٣٩) يارب؟! !	١٥٠
(٣٤٠) التنطع الإسرائيلي !	١٥٤
(٣٤١) مباراة رياضية لا معركة حرية !!	١٥٧
(٣٤٢) الخاتم والحديث الرابع	١٦١
(٣٤٣) وفاء ولاد البلد !	١٦٤
(٣٤٤) نعمة الصبر	١٦٨
(٣٤٥) أقدار !	١٧١
(٣٤٦) غربة القريب !	١٧٥
(٣٤٧) الردة العقلية والحضارية !	١٧٩
(٣٤٨) سرف التقاضى !	١٨٣
(٣٤٩) يارب !	١٨٧

الموضوع	الصفحة
(٣٥٠) المثالية التى أحملها على ظهري	١٩٠
(٣٥١) الزهر الصناعى !	١٩٤
(٣٥٢) ضابط الشرطة بين التجني والتجني عليه	١٩٧
(٣٥٣) تبيض الأنظمة !	٢٠١
(٣٥٤) ويل للعظماء من الأوغاد!	٢٠٥
(٣٥٥) عفوا الخاطر !	٢٠٨
(٣٥٦) لا أمن ولا سلام مع اليأس والقهر !	٢١١
(٣٥٧) عبد الرحمن الشرقاوى وأرشيف الذكريات	٢١٤
(٣٥٨) من هموم المساواة !	٢١٨
(٣٥٩) إنها جرائم سب لا جرائم رأي	٢٢٢
(٣٦٠) الدكتور مصطفى محمود ورحلته من الشك إلى الإيمان ...	٢٢٥
(٣٦١) أينشتين والنسبية في كتاب مصطفى محمود	٢٢٩
(٣٦٢) طه حسين وقادة الفكر	٢٣٤
(٣٦٣) عباس العقاد ولغتنا الشاعرة	٢٣٩
(٣٦٤) أغان منسية مع سبق الإصرار!	٢٤٤
(٣٦٥) ما شأن معالى الوزيرة !	٢٤٧
(٣٦٦) الذين علموا سلامة موسى !	٢٥١
(٣٦٧) من أين جاء التعصب ؟!	٢٥٦
(٣٦٨) الأزمة وصناعة التفوق !	٢٥٩

- (٣٦٩) صلاح عبد الصبور في مدينة العشق والحكمة ٢٦٤
- (٣٧٠) مثنوية محمد عبدالله محمد ٢٦٨
- (٣٧١) عاوزنا نرجع زي زمان؟! ٢٧١
- (٣٧٢) الملكيون أكثر من الملك! ٢٧٥
- (٣٧٣) صواب رؤية قديمة؟! ٢٧٩
- (٣٧٤) قضية ديوان قضيتي؟! (١) ٢٨٣
- (٣٧٥) قضية ديوان وطنيتي؟! (٢) ٢٨٧
- (٣٧٦) كيف كنا . وإلام صرنا؟! ٢٩١
- (٣٧٧) فماذا نفعل نحن؟! ٢٩٥
- (٣٧٨) أين ذهبت الوحدة وولت النخوة؟! ٢٩٩
- (٣٧٩) يا صاحب الجلالة! ٣٠٢
- (٣٨٠) إهدار أحكام القضاء! ٣٠٦
- (٣٨١) أدب الاختلاف؟! ٣١٠
- (٣٨٢) رأيت فيما يرى النائم! ٣١٤
- (٣٨٣) المنقذ من الضلال! ٣١٩
- (٣٨٤) نداء الواجب وعناية السماء ٣٢٣
- (٣٨٥) الجنة والنار عند المتصوفة (١) ٣٢٧
- (٣٨٦) الباطن والظاهر عند المتصوفة (١) ٣٣١
- (٣٨٧) « وكلهم آتية يوم القيامة فردا ٣٣٦

الموضوع

الصفحة

٣٣٩	(٣٨٨) شهيد العشق الإلهى
٣٤٤	(٣٨٩) ليس من الإسلام قتل الأبرياء! (١)
٣٤٧	(٣٩٠) ليس من الإسلام قتل الأبرياء! (٢)
٣٥١	(٣٩١) احترام الموت !
٣٥٥	(٣٩٢) الدين محبة
٣٥٩	(٣٩٣) من تاني الى عاوزه البيت يحرم على الجامع !
٣٦٣	(٣٩٤) اللغة والحياة !
٣٦٧	(٣٩٥) المرجان !
٣٧١	(٣٩٦) ماذا بات يجرى فى مصر !
٣٧٥	(٣٩٧) بين ذعر الدنيا ونذير الآخرة
٣٧٩	(٣٩٨) جرائم تختفى وأخرى تظهر !!
٣٨٣	(٣٩٩) شهوة الكلام !
٣٨٧	(٤٠٠) لا إيمان لمن لا أمانة له !
٣٩١	كتب وإصدارات أ. رجائي عطيه
٣٩٥	الفهرس
